أنيس منصور



كتاب عن كتب

دار الشروق

كتاب عن كتب

الطبعة الأولى
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

الطبعة الثانية
١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م

© دار الشروق
القاهرة ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
برقيا شروق - تلكس 93091 SHROK UN
بيروت ص . ب . ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
برقيا : داشروق - تلكس SHOROK 20175 LE

أنيس منصور

كتاب عن كتب

دار الشروق

صدقني : الكتاب أصدق!

أقفل المعرض الدولي للكتاب أبوابه، ولم تشتر كتاباً واحداً. ولا يهمك. فليس من الضروري أن يحصل الإنسان على كل ما يريد. ولا من الضروري أن الذي يعجبني يجب أن أقتنيه.. فنحن جميعاً نحب القمر والنيل والنسيم والحقول الخضراء، فمن الذي يملكها؟ ربما تجد من يملك حديقة لا يراها، ولا يستمتع بها..

وأنا أقول لك بعض تجاربي في القراءة ـ وتجاربي كثيرة وطويلة. ولا أقول إنها أحسن ما يمكن أن يعايشه إنسان. ولكنها جزء من تاريخ عريض في صناعة الكتابة وفن القراءة.

كانت الكتب التي وجدتها في بيتنا دينية، وكانت كثيرة وكبيرة، صفحاتها عريضة، لونها أصفر، لم يفكر مؤلفوها أن قراءها سوف يكونون من الأطفال. وإذا حاول طفل أن يقرأها فلا بد أن يحملها على ذراعيه وأن ينحني عليها ليقرأ حروفاً ملتوية في كلمات متداخلة ونقط خفية. وإذا قرأ فعليه أن يفهم، وإذا لم يفهم وجب أن يسأل، وإذا سأل فلن يجد أحداً

يطاوعه. إذن كان لا بد أن يقرأ وأن يفهم، وأن يصبر.

وفي طفولتي كان أناس كثيرون مثل هذه الكتب ننحني على أيديهم كما ننحني على صفحاتها، ونقبل الجميع: المصحف والكتب وأيدي الناس الكبار من علماء الدين والأكبر سناً. وليس بين هذه الكتب واحد تستطيع أن تقرأه وأنت واقف، أو تضعه في جيبك أو تأخذه معك إلى السرير.. وإنما يجب أن تجلس وتحمله على يديك، أو تضعه على مكتب وتكتفي تقرأه واقفاً.

ولم أتصور أن هناك كتباً أخرى في أي موضوع ليس دينياً، أو أصغر حجماً فهي - إذن - بداية جادة حزينة جافة أيضاً! وكان أعظم اكتشاف في طفولتي أن وجدت «روايات الجيب» من ترجمة عمر عبد العزيز أمين. انقلاباً. الكتب صغيرة. لها أغلفة ملونة. وأحياناً عليها صور عارية. ويمكن وضعها في جيبك. وقراءتها وأنت ماشٍ، وأنت نائم.. في أي وقت وعلى أي وضع. وموضوعاتها ليست دينية.. بل حكايات كلها بوليسية.. مثيرة ممتعة ولا تشبع منها. بل أنت متلهف عليها وعلى المزيد منها.. فعندما عرفت روايات الجيب، عرفت المتعة والتسلية والرغبة المؤكدة في القراءة، وانتقلت الكتب الدينية إلى تحت السرير، إلى الظل.

وفجأة ظهرت كتب أخرى أصغر حجماً وأجمل غلافاً. وهي

كتب دينية: إذن فمن الممكن أن يكون الكتاب دينياً وسهلاً ومسلياً ويوضع في الجيب ورخيص الثمن. إنها كتب الصحفي الكبير محمد صبيح..

ورحت أبحث عن الكتب ذات الأغلفة الأنيقة ورخيصة الثمن، والتي تريحك إذا قرأتها ماشياً أو نائماً أو جالساً. ولست مضطراً أن تنحني عليها تقبلها أو تخشى أن تقع منك. بل تقع ويقع عليها الطعام. لا خوف وليس حراماً!

ويوم ذهبت أتسلم جائزتي عندما جاء ترتيبي الأول في مسابقة الفلسفة، والأول في التوجيهية من وزير المعارف في ذلك الوقت نجيب الهلالي باشا، أعطاني كتباً من نوع لم آره قبل ذلك. إنها مطبوعات «لجنة التأليف والترجمة والنشر» الغلاف أزرق لامع. والورق مصقول. والكتب ضخمة. مثلاً: دزرائيلي ـ تأليف أندريه موروا ترجمة حسن محمود ـ من أمتع الكتب التي قرأتها في حياتي.. كتاب «مبادىء النقد الأدبي» تأليف ابركرومبي ترجمة د. محمد عوض محمد.. الفلسفة اليونانية ـ تأليف يوسف كرم ـ وليس أروع من هذه الكتب أثراً في حياتي. لقد انفتحت نوافذ وأبواب وقلاع الحضارة الغربية تأليفاً وترجمةً على الآخر..

وفجأة وجدت نوعاً آخر من الكتب. من تأليف الصحفي الكبير أحمد الصاوي محمد. إنها أجمل وأمتع الكتب التي

ظهرت أثناء وبعد الحرب العالمية الثانية: الرقص على البارد.. المرأة لعبتها الرجل.. الشيطان لعبته المرأة.. تأييس.. ففي هذه الكتب أناقة الطبع وأناقة العبارة!

* * *

وأخطر حدث في حياتي كقارىء وحريص على أن تكون له مكتبة: ظهور كتب الجيب الصغيرة جداً التي تطالعها قوات الاحتلال البريطاني. فقد طبعوا لهم روائع الأدب العالمي في طبعات رخيصة. وكان يسكن إلى جواري في إمبابة بائع لهذه الكتب. واشتريت مائة كتاب منها.. أي كل الذي كان يعرضه للبيع على عربة يد.. فكانت أول نواة لمكتبتي التي تضم اليوم أكثر من سبعين ألف كتاب. ولا أزال أحتفظ ببعض هذه الكتب، حتى لا أنسى فرحتي بهذا الحدث الذي كان نقطة تحول في حياتي الأدبية.

وارتبطت نهائياً بالكتب. أقرأها. وأشتريها. وأحرص عليها. وأرتبها وأفهرسها ـ أما الآن فلكثرة الكتب وتنوعها وتعدد لغاتها (سبع لغات) لم أعد قادراً على الترتيب والتبويب.. إنني أعرفها من النظر إلى لون أغلفتها.

وعند دخول الجامعة اكتشفت شيئاً لم أكن أعرفه: دوائر المعارف.. كنت أقرأ عنها ولكن لم أرها. لم ألمسها. لا أعرف كيف يكون شكلها وحجمها ولا الطريق إلى شواطىء

محيطاتها العميقة. وفي مكتبة الجامعة تعلمت كل ما كان ينقصني من الجلوس الطويل. والصمت العميق. وكيف ينسى الإنسان طعامه وشرابه ودنياه والزمن والهموم في المكتبة الجامعية.. وكيف إنه يجلس إلى جوار الأساتذة يطلب العلم مثلهم. وأمام العلم، فكل الناس صغار.. وكل الناس يجب أن يتواضعوا ـ فلا نهاية لما لا يعرف من كل شيء!

رأيت «دائرة المعارف الكاثوليكية» في الدير الدومنيكي بشارع مصنع الطرابيش بالعباسية.. تحفة فلسفية دينية..

ورأيت «دائرة المعارف البريطانية» في مكتبة الجامعة.

ورأيت «دائرة المعارف الألمانية» في بيت المستشرق اليوغسلافي الألماني باول كراوس. وكان أستاذي في اللغات اليونانية واللاتينية والعبرية..

ثم رأيت «دائرة كولومبيا» في بيت الأستاذ العقاد..

واليوم أملك من هذه الدوائر عشرين بست لغات.

ومن أعز ما أملك في مكتبتي وثيقة كتبها أمين مكتبة المنصورة يشهد لي فيها بأنني عندما كنت تلميذاً قرأت كل ما في المكتبة من كتب وقصص.. ويدعو الله أن يباركني وأن ينفع بي بلدي وأهلي. ولم يكن من أجل هذه الوثيقة قرأت

واستمتعت. وإنما من أجل المتعة التي هي أعظم وأرقى وأنبل وأبقى المشاعر العقلية.

والمثل اللاتيني القديم يقول: العلم طويل والعمر قصير!

تماماً كالطعام والماء والهواء ـ مهما أخذت فالباقي كثيرٌ جدّاً.

ورفاعة الطهطاوي المثقف الأول في العصر الحديث عندما كدس الكتب أمامه في باريس، وجد أن الذي يجب أن يقرأه في حجم الهرم الأكبر. . وحيره ذلك. ولكن كان عليه أن يختار، ويريح نفسه. يقول في ذلك شعراً بسيطاً:

ما حوى العلم جميعاً أحد   لا ولو مارسه ألف سنة
إنما العلم عميق بحرُه   فخذوا من كل شيء أحسنه!

وعندما فكر الطهطاوي في أن يتوكل على الله ويترجم روائع الأدب الفرنسي رأى في نومه حلماً عجيباً. وحار في تفسيره. أما الحلم فهو أنه يمسك أعواداً من القش يريد أن يصنع منها جسراً يربط بين القاهرة والجيزة. وأدهشه ذلك ولم يفهم إلا بعد وقت طويل. . أن الذي يصنعه في ترجمة الكتب الغربية كالذي يصنع جسراً بين مصر وفرنسا من أعواد القش. . إنه عمل ضخم جداً، وليس من أعواد القش. . إنه حلم خرافي. . أو إنه مهما فعل فالمطلوب كثير

جداً، وليس في استطاعته وحده أن يفعل ذلك!!

ولا في استطاعة أي أحد أن يشتري أو يقتني كل الكتب.. ولذلك فالمكتبة العامة هي أعظم المرافق التي هيأتها الدولة للناس - حتى لو كان في استطاعة الناس أن يشتروا ألوف الكتب، ففي المكتبة العامة الهدوء والاحترام والصمت والتفرغ والتواضع ونسيان غريزة الملكية.. أن تملك هذا وذاك.. لماذا؟ ما دمت لا تستطيع الآن، فالمكتبة أفضل. فإذا استطعت فبعض الكتب. وإذا استطعت أكثر، فسوف تبقى المكتبات العامة أهم وأنبل ما تقدمه الدولة من فرص عامة للسعادة الثقافية!

ولكن أهم ما صنعته القراءة: أنني اعتدت عليها. أنني لا أستطيع أن أعيش بغيرها. والله خلق الإنسان قارئاً متحدثاً مفكراً. وأول كلمة في القرآن: اقرأ.. وأول عبارة في التوراة: في البدء كانت الكلمة.. والكلمة هي العقل والحكمة التي هي من عند الله...

وأهم ما يجب أن نغرسه في الطفل والشاب: أن يتعود القراءة. أن يدمن القراءة. ومن تجربتي أن نترك الطفل والشاب يقرأ أي شيء. كل ما يجد. لأن أهم ما في القراءة: المتعة.. اللذة.. التسلية.. الاستغراق الذي ينسيك كل ما حولك وما في داخلك.. والاستغراق وحده هو الذي يغسلك

ويعصرك وينشرك، ويريحك وينشرك، ويريحك بعد ذلك . . وبعد أن تكون القراءة متعة فأمامك بعد ذلك أن تختار الذي تخصصت فيه. وإذا مللت الذي تخصصت فيه اتجهت إلى الكتب المسلية. . لقد كان العالم الفيزيائي الكبير أينشتاين يقرأ الروايات البوليسية. . وكان أستاذنا العقاد لا يحب الروايات وكان يرى فيها مضيعة للوقت. . ولو عرف العقاد الروايات لكان توتره العصبي أقل ومصرانه الغليظ أهدأ ولكانت معدته أقدر على الهضم. . ولكن العقاد اختار أن يفكر طول الوقت، وأن يقوم عقله بدور عشرين حصاناً جامحاً تجرجر القلب والمعدة والمصارين في كل اتجاه! وأعود إلى المندهش الأول في تاريخ الثقافة الأزهرية، إلى أول من تلقى «الصدمة الحضارية» عندما ذهب إلى باريس في القرن التاسع عشر: رفاعة رافع الطهطاوي يقول في سذاجة وصدق:

أربعة من الناس ميزتهم أحوالهم مكشوفة ظاهرة
فواحد دنياه مقبوضة تتبعها آخرة فآخرة
وواحد دنياه ممدوة ليست له من بعدها آخرة
وواحد دنياه معمورة كذاك أخراه غدت عامرة
وواحد بينهم ضائعٌ! ليست له دنيا ولا آخرة!

وهم الذين يقرأون والذين لا يقرأون، أو يقرأون النافع في الدنيا والآخرة، والذين لا قرأوا ولا فهموا، فضاعوا دنيا وآخرة!.

وأحسن ما جاء في الكتب العربية القديمة أن أديباً دخل على الخليفة عبد الملك بن مروان فوجده يقرأ، فقال له: يا أمير المؤمنين إن الكتاب أنبل جليس، وآنس أنيس، وأصدق صديق، وأحفظ رفيق، وأكرم مصاحب، وأفصح مخاطب، وأبلغ ناطق، وأكتم وامق (محب)، يورد إليك، ولا يصدر عنك، ويحكي لك، ولا يحكي عنك، إن أودعته سرا كتمه، وإن استحفظته علماً حفظه، وإن فاتحته فاتحك، وإن فاوضته فاوضك، وإن جاريته جاراك، ينشط بنشاطك، ويغتبط باغتباطك، ولا يخفي عنك ذكراً، ولا يفشي لك سراً، إن نشرته شهد، وإن طويته رقد، خفيف المؤونة، كثير المعونة، حاضر كمعدوم، غائب كمعلوم، لا تتصنع له عند حضوره في خلوتك، ولا تحتشم له في حال وحدتك. في الليل نعم السمير، وفي النهار نعم المشير.

فقال عبد الملك بن مروان: لقد حببت إليّ الكتاب، وعظمتَّه في نفسي، وحسَّنته في عيني..

وقال شاعر قديم ينصحك أن تتسلى بالشعر:

إذا الهموم نزلن منك ولم تجد
أنساً، ومل فؤادك الأحبابا
فاعمد إلى الكتب التي قد ضمِّنت
أوراقها الأشعار والآدابا

فهي التي تنفي الهموم ولن ترى
أحـــداً له أدب يمـــل كتابا!

ومن الممكن أن تمل القراءة، طبيعي. فعندما يمل الإنسان كل شيء، تكون الكتب أول الضحايا. . .

تماماً كما أن الأصابع لا تقوى على أن تمسـك بشـيء، والعين ترفض أن تلاحظ شيئاً، والأذن تمج الأصـوات، فإن العقل يطرد الأفكار، والقلب ينكر المشاعر. .

وعندما تمل كل شيء، فهذه لحظة يتحول فيها الوجـود إلـى عدم، والجميل إلى قبيح، وكل شيء إلى هباء، وأنت تحتاج إلى مقشة تكنس الدنيا من أمامك. . .

لقد جربت هذه الأحاسيس العنيفـة الرافضـة المتمـردة. . هذه اللحظة الوجودية الثورية. .

ولـكن لا شيء يروض العقـل مثـل الكتـب. . وعليك أن تروض العقل وتراوده حتى تجد الكتـاب الـذي يهـدىء هذه الثورة. . قد يكون كتاباً في الحب. . في الجنس. . في أي موضوع. لا يهم الموضوع. المهـم هو أن تسـتعيد شهيتـك المفتوحـة علـى الـدنيا. . حدث لي ذلك كثيراً. ويحــدث. وأعرف الداء والدواء.

فكثيراً ما أجدني في الساعات الصغيرة من كل يوم في نشاط وحيوية. ولكن لا أريد أن أكتب. ولا أريد أن أقرأ ما كان في نيتي. إذن فعقلي يريد أن يلهو ويلعب.. أن يتمرد فيقفز بلا قيود، مثل رواد الفضاء على القمر، حيث تضعف خيوط الجاذبية. فليكن. من حق العقل أن يستريح مني.. ولذلك أجدني أقلب في كتب الرحلات.. في الفلك.. في النبات في الحيوان.. في الاعترافات.. في الشعر. المهم أن يلهو العقل ويلعب على مرأى مني مربوطاً بخيوطي.

ولن يتحقق لك ذلك إلا بعد تمرين مستمر وتدريب طويل.. ولكن المهم ألا تنزعج إذا وجدت عقلك كذلك. أما الداء فأنت تعرفه والدواء أيضاً.

* * *

صدقني كل الذين حولك يكذبون.. كل الذين تدور حولهم، تكذب عليهم أنت أيضاً. ولا لوم عليك: فالكذب والنفاق أوكسجين الحياة الدنيا التي هي مصالح في مصالح في مصالح. والذي نسميه الحب: هو ماكياج خارجي. والأرقام تؤكد لنا أن أعظم صناعة في الدنيا هي صناعة الماكياج والعطور والتجميل. لماذا؟ لأننا قد اتفقنا على الكذب والخداع وإخفاء الحقيقة..

.. إلا الكتاب.. إنه صريح.. إما أن تقبله كله وإما أن

ترفضه كله . . ولا يقاومك . . فإذا ضاقت بك الدنيا ، وهي ضيقة ضائقة ، فالكتاب : أوسع وأرحب . . كتاب تملكه أو تستعيره ! .

أخيراً قرأت. . هذا الظالم الممتع!

كل الناس يتحدثون عن الجن والعفاريت، ولكن أحداً لم يرها. وكذلك هيرودوت أبو التاريخ، ولكن أحداً لم ير كتابه الذي وصف فيه زيارته لمصر. فقط اشتريت هذا الكتاب في العام الماضي. كنت أزور مدينة شكسبير «استراتفورد على نهر الأفون». وفجأة وجدت مكتبة وامتدت يدي إلى كتاب «التواريخ» لهيرودوت. ولم أكن رأيته أو صادفته في أي وقت. وقد تمنيت ذلك.

فهذا الرجل هيرودوت (٤٩٠ق.م. - ٤٢٥ق.م.) قد أساء إلى مصر كما لم يفعل أحد- يكفي أنه هو الذي فضحنا في طول التاريخ وعرضه عندما قال: إن التماسيح تمشي اثنين اثنين في شوارع العاصمة، ولم نفلح حتى وقت قريب جداً أن نؤكد للعالم أن التماسيح انحسرت إلى أقصى الجنوب. . إلى ما وراء الشلالات.

ويوم التقى الرئيس السوفيتي برجنيف بالرئيس جمال عبد الناصر سأله: إن كانت التماسيح ما تزال في النيل عند القاهرة.

ولم يكن هذا السؤال بريئاً. إنما أراد أن يضايقه، وأن ينبه الرئيس المصري إلى المسافة الهائلة بين القاهرة وموسكو. وأننا في عصر التماسيح وأنهم في عصر سفن الفضاء.. وكانت العلاقة بين البلدين سيئة جداً، وازدادت سوءاً!

ولما جاءني الزميل حاتم نصر فريد يستضيفني في برنامج «سقط سهواً» وسئلت: عن الذي أحب أن أقابله من العظماء؟! كنت أنتظر ذلك فقلت بسرعة: هيرودوت. فقد قرأت عنه طول عمري، ولم أقرأ له. ولا أعرف ما الذي أنساني أن أقتني كتابه «التواريخ» الشهير جداً.. فقد استغرقني الفكر الحديث والتيارات الفلسفية المعاصرة. أو أنني كرهت هذا الرجل، وأنستني الكراهية أن أتحقق بنفسي من كل الذي قاله عن مصر والمصريين!

* * *

وهيرودوت مؤرخ لطيف وممتع. وعبارته سهلة. وكثيراً ما يقول: أنا سمعت هذا من الكهنة ولكن لا أصدق.

ويقول: تحققت من ذلك بنفسي.

وهو قد أحب المصريين وأعجب بهم جداً. فالمصريون أكثر الشعوب نظافة. يستحمون مرة في الصباح ومرة في المساء بالماء البارد. والرجل له ثوبان والمرأة لها ثوب واحد. وملابس الرجال من التيل الأبيض الذي يغسله مرتين.

وشيء غريب لاحظته في مصر: الرجال يجلسون في البيت يغزلون. والنساء يذهبن إلى السوق ويشرين ويبعن أيضاً.

والولد حر في أن يساعد والده أو لا يساعده. أما البنت فلا بد أن تفعل ذلك.

والأولاد إذا رأوا من هم أكبر سناً في الطريق، أفسحوا لهم مكاناً، وأحنوا رؤوسهم.. أو ركعوا وأسندوا أيديهم إلى ركبهم كما يفعل اليابانيون اليوم.

وإذا كانوا جلوساً نهضوا احتراماً..

المصري يتزوج امرأة واحدة.

المصريون على خلاف العالم كله.. ينامون داخل البيت ويأكلون أمام الباب. والرجل يتبول جالساً والمرأة واقفة!

والرجال يحملون الأثقال على رؤوسهم، والنساء يحملنها على أكتافهن..

والمرأة لا تعمل كاهنة..

والمصريون هم الشعب الوحيد في الدنيا، الذين يتمسكون بتعاليم الدين وينفذونها حرفياً. فالرجال لا يقربون النساء في المعابد، ولا يدخلون المعابد بعد أن قاربوا النساء، والكهنة في العالم كله يطيلونَ شعورهم والكهنة المصريون يحلقون شعورهم «ظلبطة»..

وإذا مات أحد في أية بلاد أخرى حلقوا شعورهم ، إلا في مصر فإنهم يتركون شعر الرأس واللحية . .

والمصريون يعيشون مع حيواناتهم في بيت واحد .

والكهنة يرتدون ملابس بيضاء من التيل ، وأحذية من ورق البردى ، والكهنة يزيلون الشعر كله خوفاً من البراغيث . .

والكهنة يعيشون مجاناً على نفقة الدولة : يأكلون ويشربون البيرة ويتناولون لحم الإوز ، ولا يأكلون السمك إطلاقاً ، وإن كان الشعب يأكل الفسيخ ، أي السمك المجفف المملح في الشمس . .

وشيء غريب يرويه لنا هيرودوت : وهو أن المصريين لا يأكلون الفول ، لا نيئاً ولا مسلوقاً . بل يحرمون النظر إليه . فإذا نبت الفول شيطانياً في الحقول تركوه حتى يموت؟ !

ويرى الكهنة أن الفول يفسد الصحة ، وأنه يصيب المعدة بالغازات ، ويحدث الإمساك ، وأنه يبلد العقل . ولذلك فملعون من يأكل الفول ، وملعون من يزرعه ! !

والكهنة لهم شروط قاسية جداً في اختيار الذبيحة . الثور مثلاً ـ لأن الأبقار مقدسة ومحرم ذبحها تماماً ـ ونحن في ذلك سبقنا الهند التي لا تزال تقدس البقرة ، وتتركها تمشي في الشوارع وتدخل المحلات الكبرى . ويوم داست سيارة سفير أجنبي في نيودلهي إحدى الأبقار ، كان لا بد من أن يغادر الهند

فوراً. وقد استطاع كل زعماء الهند نقل بلادهم من العصور الوسطى إلى عصر الذرة وعصر الاكتفاء الذاتي في الطعام، ولكنهم لم يستطيعوا أن ينقلوا الأبقار إلى خارج أية مدينة - هذا ما قاله نهرو. وحجته في ذلك أن احترام مقدسات الشعب، أهم كثيراً من إكراهه على السفر إلى الكواكب الأخرى!

فإذا مات الثور دفنوه في الأرض وتركوا قرنيه فوق التراب، حتى إذا تحلل جسمه تماماً، عادوا فجمعوا هذه القرون. أما البقرة إذا ماتت ألقوها في النيل.

وما زلنا نفعل ذلك مع الأبقار والكلاب أيضاً!

والكهنة هم الذين يختارون الذبيحة المقدسة: يجب أن يكون الثور أبيض تماماً. فإذا كانت به شعرة واحدة سوداء استبعدوه. سواء كانت هذه الشعرة في جسمه أو في ذيله. بل إن الكاهن يفتح فم الثور ويسحب لسانه ليرى إن كانت به نقطة واحدة سوداء. فإذا تأكد من بياضه تماماً أعلن أن هذا ثور نظيف. وهنا يلف ورقة البردى حول أحد قرنيه. ويثبتها بالشمع، ثم يضغط بخاتمه على الشمع. وهو ما نزال نفعله حتى اليوم.

فإذا ذبحوا الثور المقدس، أبعدوا رأسه ودفنوه في الأرض. والمصريون لا يأكلون لحم الرأس. وهم يرون في

لحم الرأس ضرراً بالصحة أكثر من تناول الفول. وهم يلقون رأس الثور المقدس في النيل. ولا بد من طقوس وصلوات وبخور ودعوات قبل إلقاء رأس الثور. هذه الطقوس معناها: إن كانت هناك مصائب أو كوارث تتربص بمصر، فلتغرق مع هذا الرأس في النيل.

والمصريون أسبق من اليهود في ذلك. فاليهود في عيد الغفران يأتون بكبش ويلفون حول قرنيه شريطاً به كل خطايا العام الماضي، ثم يدفعون بالكبش إلى هاوية ليذهب في داهية ومعه العام الذي مضى!

والويل لمن يأكل حيواناً لم يصرح به الكاهن أي لم يذبحه على الطريقة الشرعية، واليهود يفعلون ذلك ونحن أيضاً.

والمصريون لا يأكلون الخنزير ويحرمونه تماماً ـ بل إنهم لا يقتربون من رعاة الخنازير ويمنعونهم من دخول المعابد، ويرفضون الزواج منهم.. فرعاة الخنازير يتزوجون فيما بينهم. وإذا ما لامس أي أحد راعياً للخنازير يجب أن يستحم بملابسه في النيل!

وكل من قتل طائر أبو قردان وجب قتله!

وبعض الناس يتصور أن الشعب المصري القديم كئيب أو جاد أكثر مما ينبغي. ولكن هيرودوت يؤكد أن الكهنة أنفسهم «أولاد حظ» ويحبون الفرفشة، وأنهم يختارون أطيب ما في

الحياة : الخبز والقبلات والهبات. وهم أقرب الأفـواه إلـى أذن الفرعون. ولذلك فهم حاكمة!

وفي الأعياد يركب المصريون الـزوارق. النسـاء يلوحـن بالصاجات والرجال ينفخون في الناي والتصـفيق والـرقص، وإذا رقصت المـرأة المصـرية رفعت ثوبهـا وتمايلـت يمينـاً وشمالاً . .

والحياء يمنع هيرودوت من أن ينقل لنا الألفاظ النابية التي تقال أثناء ذلك الرجال هم الذين يوجهون عباراتهم البذيئة إلى النساء!

والمصريون بعد الليبيين، من أصح الناس وأكثرهم عناية بأجسامهم.

وأكثرهم حرصاً على العطور وكراهية لرائحة العرق.

والمصريون يتناولون شربة الأعشاب والزيوت ثلاثـة أيام متوالية من كل شهر، ولهـم نظرية : أن المعدة بيت الداء. وأن أمراض الإنسان تجيء من الطعام.

والأطبـاء في مصـر الفرعـونية كثيرون جداً وكل واحـد له تخصص، هذا للعين وذلك للدماغ وهذا للمعـدة. . وهنـاك أطباء للاضطرابات التي يشعر بها المريض، ولكن لا يعـرف أين هي. وكل الأطباء المصريين ينصحون أولاً وقبل كل شيء

للمريض : أن يلزم البيت وأن يكف عن النشاط، وأن يكف عن الطعام.

وهيرودوت هو صاحب العبارة الشهيرة : مصر هبة النيل.

لم تكن هذه العبارة بهذا الترتيب في كتابه «التواريخ» وإنما هو المعنى. فالكهنة المصريون قالوا له: إن الفرعون مينا هو الذي جفف المستنقعات، وهو الذي جعل الأرض الخصبة تظهر من تحت الماء. ولم يصدقهم. وقال : كاذبون منافقون. فهو قد أدرك أن النيل هو الذي صنع الدلتا بالطين الذي يترسب كل عام ومن ألوف السنين.

أما التماسيح فلم يقل هيرودوت إنها هكذا كثيرة في شوارع العاصمة!

وإنما هو تحدث عنها وعن وضعها للبيض. وكيف يصطادها المصريون عندما يلقون إليها بالخنازير الحية، فإذا اندفع نحوها التمساح وقع في المصيدة فيهجم عليه الصيادون ويسدون عينيه بالطين!

وكنت قد قرأت أن هيرودوت هو أول من حدثنا عن الأطباق الطائرة، وأنه شاهدها في مدينة «منف» ولكن لم أجد لذلك أثراً في هذا الكتاب، ولم أجد أيضاً أن هيرودوت قد سأل الكهنة تفسيراً لذلك!

وقرأت أيضاً أن هيرودوت قد لاحظ في المعابد المصرية أن

الكهنة لديهم قدرة خارقة على رفع المعادن عن الأرض وتركها معلقة في الهواء، كتب ذلك المؤلف السويسري فون دنيكن والمؤلف الفرنسي روبير شارو وهما يتحدثان عن الكائنات التي هبطت إلى الأرض من الكواكب الأخرى، وأنهم علموا المصريين بعض أسرارهم. لا شيء من ذلك في كتاب هيرودوت!

وهيرودوت صاحب موهبة في رواية القصة وإضافة العناصر المثيرة الممتعة لها، ويبدو أن موهبة الرواية تغلب في بعض الأحيان على سرد الواقع، أو التحقق منه، ولذلك جاءت بعض القصص الطريفة المسلية التي ليس لها أساس صحيح.

مثلاً يقول هيرودوت: إن الكهنة المصريين قالوا إن الملك بسماتيك أراد أن يتأكد بنفسه إن كان المصريون هم أقدم شعوب العالم - هو يرى أنهم أقدم شعب وأعظم حضارة - وأن مصر أم الدنيا كلها - فراح يفكر في حيلة.. وأخيراً اهتدى إلى حيلة ذكية. راح يدق بيوت الناس. واختار طفلين وليدين. وأعطاهما لأحد الرعاة. ووضعهما في غرفة لا يقترب منهما أحد يقدم لهما الطعام والشراب ولا ينطق بكلمة في أي وقت.. ويقال إن الملك بسماتيك أعطى الطفلين لسيدتين قطع لسانيهما. وبعد سنتين فوجيء الراعي بأن الطفلين ينطقان

كلمة واحدة في وقت واحد. الكلمة : بيكوس. .

وراح الملك بسماتيك يسأل علماء زمانه عن معنى هذه الكلمة. فعرف أن هذه كلمة معناها : طعام، وأنها كذلك في لغة شعوب أخرى أقدم من الشعب المصري. هنا أيقن الملك : أن مصر ليست أقدم شعوب العالم.

وعلى الرغم من أن النتيجة لم ترض الملك، لكن المهم أنه أراد أن يتحقق بنفسه. فكانت هذه التجربة الفريدة في التاريخ!

ويقول هيرودوت : إنه كان من الممكن أن تصبح القطط في مصر أكثر عدداً. وأنها لو كانت كثيرة لأكلت الفئران وغيرها من الحشرات التي يهرب منها المصري القديم، فيستخدم شبكة الصيد ويجعل منها «ناموسية» يتوارى تحتها كل ليلة. أما لماذا لا تتكاثر القطط في مصر ؟ فإليك هذه القصة. يقال إن القطة عندما تلد تكره أن يقربها الذكر، إما خوفاً من أن يأكل صغارها، وإما كراهية للجنس واكتفاء بأمومتها. ولكن الذكر يلجأ إلى حيلة ذكية فهو يسرق صغارها ويقتلها دون أن يأكلها. فتحزن الأم وتحن إلى أن تكون أماً مرة أخرى، فتطارد الذكور!

ويقال أيضاً إنه عندما تحدث حريقة في بيت به قطط كان أهل البيت والجيران يتعاونون على إنقاذ القطط. ولكن القطط

تتسلل من بينهم وتلقي بنفسها في النار!

وأخيراً هذه القصة التي ظلت وصمة عار في جبين الملك خوفو. فقد هاجمه هيرودوت هجوماً عنيفاً. وهو واحد من أعظم ملوك مصر الذين حكموها خمسين عاماً. وهو باني الهرم الأكبر. وقد رأى هيرودوت أنه حاكم ظالم مجرم، يكفي أنه سخر الشعب كله لبناء الهرم، فرض عليه هذه السخرة ثلاثة شهور من كل سنة.

ثم يرصف طريقاً فخماً يدحرج عليه هذه الأحجار فتكون في موقع بناء الهرم، وقد تكلف خوفو مالاً كثيراً وقد اضطره ذلك إلى أن يطلب إلى ابنته أن تكون مومساً، وأن تساعد على بناء الهرم وأطاعت الابنة أباها، ولكنها هي الأخرى أرادت أن تخلد ذكرها أي ذكرى هذه التضحية العظيمة، فكانت تطلب من زبائنها في بيت الدعارة أن يعطوها بالإضافة إلى المال كتلة من الحجر، ومن مجموع تلك الأحجار أقامت الهرم الثاني تخليداً لما صنعت من أجل مصر!

فالتاريخ هو المصيدة التي يقع فيها
الإنسان، والإنسان أيضاً هو المصيدة
التي وقع فيها التاريخ!
ولقد أوقعنا هيرودوت في مصيدته
كثيراً ـ لا سامحه الله!

«وطلعت شمس السلام
فعجزت عيون عن رؤيتها ! »

لو كانت للإنسان القدرة على أن يقرأ أفكار الآخرين لخسر جميع أصدقائه. ولكنه سوف يجد نفسه أمام تحد عظيم، هو: أنه يجب أن يتعامل مع الناس بصراحة دون خداع ودون كذب.. وأن يعرف أن أصدقاءه ليس من الضروري أن يكونوا على حق دائماً. وسوف يبني صداقته على أسس جديدة..

ومذكرات عيزر فايتسمان التي عنوانها «معركة من أجل السلام» هي مذكرات رجل أصبح صديقاً لمصر وللسلام.. وكانت علاقته بالرئيس السادات نقطة تحول في حياته هو وفي مسيرة السلام التي عمل من أجل أن تنجح ١٨ شهراً مع كارتر وبيجين وديان وفانس والرئيس السادات. وهو في كتابه هذا لا يخفي مشاعره فهو قلق، وهو متردد، وهو سيىء الظن. لأنه ليس من السهل أن يتحول فجأة من عدو إلى صديق، ولا من صديق إلى مدافع عن السلام مع مصر ومع العالم العربي كله..

يهدي عيزر فايتسمان كتابه: إلى ابنه الذي حارب وتركت الحرب كدماتها في رأسه، وإلى زوج ابنته الذي ما يزال يحارب، وإلى حفيده الذي يتمنى له ألا يحارب! . .

وإذا كان التاريخ هو سجل الأحداث فإن كتابة التاريخ هي أثر هذه الأحداث عند المؤرخ. ولم يغير التاريخ أحد مثل المؤرخين . . ولذلك فهناك أكثر من تاريخ للحادث الواحد. لأن هناك أكثر من وجهة نظر وأكثر من أسلوب وأكثر من مزاج للكاتب . .

والكتب التي صدرت عن حرب أكتوبر كثيرة جداً، وليس من بينها كتب صدرت من مصر. ولكن الكتب التي صدرت عن مبادرة السادات بالسلام ورحلته إلى القدس وخطابه في الكنيست وعملية السلام، حتى اتفاقيات كامب دافيد، ثم معاهدة الصلح مع إسرائيل، ليست كثيرة. وكلها قد صدرت من إسرائيل . . فصدر كتاب «سنة الحمامة» لعدد من الصحفيين الإسرائيليين. ثم مذكرات ديان.

وسوف تصدر في منتصف الشهر القادم مذكرات عيزر فايتسمان وهذه المذكرات صورة من عقلية وزير الدفاع الإسرائيلي.

فهو محدث مرح . وعبارته سريعة خاطفة ذكية حادة. ولكنه إنسان عاطفي. وهو يحب الناس. ولذلك لا يهتم كثيراً بالوثائق أو بالنصوص فالإنسان هو أحسن النصوص وأصدق

الوثائق. فلماذا لا يقرأ الناس ويسجل الناس؟..

وهناك طريقتان لكتابة التاريخ: أن تكتبه وأنت تعايشه، وأن تكتبه بعد أن يكون كل شهود التاريخ قد ماتوا..

والطريقة الأولى هي أن تسجل الأحداث وهي حية.. وهي بدمها وأنفاسها.. وهي تتوالد وتتكاثر وتتقاتل، وقبل أن تبرد- تبرد الأحداث وتبرد أنت أيضاً. وعيب هذا التاريخ أنه شخصي، أنه ترجمة لذاتك، وهذا يجعله أقرب إلى الأدب والفن منه إلى العلم..

والطريقة الثانية أن تكتبه بعد مضي زمن طويل. وهذا البعد الزمني يعطيك الحرية في أن تكتب، فأنت لا تخاف أحداً ولا تجامل أحداً من شهود التاريخ. وبذلك تكون محايداً تماماً. وتكون كل الأحداث قد اكتملت أمامك. وتكون موضوعياً. وتكون أقرب إلى الطبيب الذي يشرح جثة لصاحبها الذي مات أو يكون التاريخ أمامك مومياء أو حجراً تقلبه كما تشاء.

ولكن لا يزال الإنسان يفضل أن يكون المؤرخ مسلياً ممتعاً، فيحدثه كأنه يعرفه، ويصارحه كأنه صديق. وبذلك يلغي المسافة التقليدية بين القارىء والكاتب.. وإلغاء المسافة هو أهم معالم عملية السلام هذه. ولذلك يقول فايتسمان إن جيلنا أسعد الأجيال، لأنه رأى رجلين يحققان إعجازاً ليس له مثيل في كل العصور. رجلاً هبط على سطح

القمر، ورجلا هبط مطار بن جوريون بإسرائيل . .

ولم يصدق فايتسمان كلمة واحدة مما قاله الرئيس السادات يوم ٩ نوفمبر لمجلس الشعب المصري . حين أبدى استعداده لأن يذهب إلى القدس ويخاطب الشعب الإسرائيلي والعالم كله . . ولكنه في نفس الوقت لم يصدق أن يذهب السادات في خداعه لشعبه وشعب إسرائيل إلى هذه الدرجة . وعندما أعلن أحد الجنرالات في الصحف أن الرئيس السادات يخدع إسرائيل بينما يستعد لحرب جديدة سنة ١٩٧٨ ، غضب فايتسمان باعتباره وزيراً للدفاع : كيف يجرؤ ضابط كبير على أن يدلي بهذه التصريحات الخطيرة دون الرجوع إليه . فقد خاف أن تؤدي هذه التصريحات إلى أن يعدل السادات عن رحلة القدس . فمن يدري ربما كان جاداً . .

وكان أكبر عذاب عاناه فايتسمان هو أن ساقه قد انكسرت وأنها في الجبس وأن الأطباء قد أكدوا له أنه لا يستطيع أن يذهب للقاء السادات في المطار، مع كل الوزراء والقادة والساسة . وقال له الطبيب : إن الكتب التي تعلمنا منها تقول إنه يجب أن يبقى في الجبس ستة أسابيع أخرى . وكان رد فايتسمان في غضب : إذن فغيروا هذه الكتب! . .

وفي التلفزيون رأى الطائرة المصرية تقف والسلم يمتد إليها والباب ينفتح ، وتمر ثوان دون أن يظهر الرئيس

السادات، ثم يظهر ليدق قلب العالم كله.. إن زعيم أكبر دولة معادية لإسرائيل جاء إلى إسرائيل. خرافة القرن العشرين. كيف حدث؟ لماذا؟ ما هي النتائج؟ كيف يخاطر رجل بحياته وبشعبه وبالعلاقات العربية، ويكون كل ذلك خداعاً؟..

وجاء خطاب السادات في الكنيست ضربة عنيفة. فهو قد قرر كل ما قاله قبل ذلك دون أن يتزحزح بوصة واحدة. وعلى الرغم من أن الترجمة العبرية للخطاب لم تكن جيدة، فإن فايتسمان أحس بأن السادات لم يأت ليطلب سلاماً إنما جاء يملي شروط الحرب الجديدة. ولذلك تلفت حوله إلى الوزراء والأعضاء. ثم أمسك ورقة وقلماً وكتب: يجب أن نستعد للحرب!

وبعث بهذه الورقة لرئيس الوزراء الذي هز رأسه في حزن وأسى!..

وفي هذا اليوم طلبه د. مصطفى خليل بالتليفون، وقال: الرئيس السادات يريد أن يراك!..

ولم يعرف ما الذي يمكن أن يقوله. ولا الذي يمكن أن يدور بينهما. ماذا يقول لزعيم أكبر دولة عربية، وبين مصر وإسرائيل: دم وثأر ولا يمكن أن يزول كل ذلك في لحظة لقاء؟.. صحيح أن الكثير من أحداث التاريخ تتم بالعناق

والقبلات، أكثر مما تتم بالحرب والمعارك، ولكن كيف يزول كل ما في النفس لمجرد مصافحة الرئيس السادات؟.. كيف ينظر إليه؟ هل يجرؤ أن ينظر إلى عينيه.. وهو الذي أصدر أوامر بقتل وجرح ألوف المصريين!..

عندما أتصل به د. مصطفى خليل تلفونياً، قفز عيزر فايتسمان من السرير ومرت لحظات دون أن يتحقق من وجوده. أين هو؟ في فندق الملك داود؟ من الذي يطلبه؟.. رئيس وزراء مصر الذي يوجد في غرفة مجاورة؟ ولماذا؟ لأن الرئيس السادات يريد أن يراه! ولماذا هو بالذات؟ ولماذا اختاره؟ ما الذي وجده فيه ولم يجده في زملائه الوزراء!.. إن عيزر فايتسمان قد لاحظ في الإسماعيلية بعد ذلك أن الرئيس السادات يتعامل بقرف مع موشي ديان.. ولا يكترث به.. وفي الطريق إلى جناح الرئيس السادات وضعوه على مقعد ذي عجلات وعند الرئيس السادات وجد مصطفى خليل وبطرس غالي وعثمان أحمد عثمان. وأكد له الرئيس السادات أنه جاء من أجل سلام شامل، وليس من أجل حل منفرد. أو من أجل اتفاقية وقف إطلاق نار. بل معاهدة سلام وتطبيع للعلاقات وتبادل سفراء وفتح الحدود..

ولم يستطع عيزر فايتسمان أن يفكر جيداً في هذا اللقاء. لماذا؟ إنه ما يزال سيىء الظن بالرئيس السادات. ومن المؤكد

أن الرئيس السادات رجل شجاع وزعيم كبير. ولكن لماذا لا يكون مخادعاً أكبر؟ . .

وقد طلب إليه مناحم بيغن أن يستعد للسفر إلى مصر للقاء وزير الحربية الفريق الجمسي. وتضايق لهذه السرعة، إذ كيف يذهب أول وزير دفاع إسرائيلي إلى مصر يتوكأ على عصا؟ . . إن هذا المنظر يضايقه. ولكن لا مفر. وقيل له ربما يلتقي مرة أخرى بالرئيس السادات. وجمع فايتسمان رجال المخابرات والمؤرخين والمستشرقين يطلب إليهم المزيد من المعلومات عن الرئيس السادات. بعضهم قال: لماذا لا تضلل السادات أيضاً. . وتستدرجه إلى طريق مظلم مسدود؟ ! . .

ولم يصدق فايتسمان أن السادات جاء يضحك على الشعب اليهودي، وعلى شعبه قبل ذلك. . ولكن لا بد من معرفة السادات عن قرب. .

فما الذي يمكن أن يقدمه له هدية تذكارية. وجدوا له ساعة كبيرة أنيقة نقشت عليها هذه العبارة: إلى الزعيم الذي دفع عقارب الساعة إلى الأمام. .

ثم طلب إلى صديق له في باريس أن يبعث له «بايب». وجاء البايب فنقش عليه هذه العبارة: أتمنى أن تدخن في سلام. .

ثم أتى ببندقية للفريق الجمسي وزير الحربية، وكتب عليها: أتمنى ألا تستخدمها أبداً..

وفي لقائه مع الرئيس السادات في الإسماعيلية، أكد له الرئيس أنه جاد في السلام وفي السلام الشامل. وأن من الضروري أن ينجزوا شيئاً.. وبسرعة: الجلاء التام عن سيناء وإزالة المستوطنات والمطارات. مقابل «تطبيع كامل» للعلاقات بين البلدين..

وفي المرة الثالثة جاء فايتسمان مع مناحم بيجين وموشي ديان. واستقبلهم في المطار السيد حسني مبارك نائب رئيس الجمهورية بدلاً من الرئيس السادات. وتضايق بيجين لذلك. ولكنه البروتوكول غير أن بيجين الذي عاش «منبوذاً» سياسياً متعطش إلى التكريم والتمجيد. وقد أضاف ديان إلى هذا اللقاء الفاتر مزيداً من النار عندما قال لبيجين: لا يوجد علم إسرائيلي واحد في الطرقات. وكل الأعلام مصرية، والصور والتحيات للرئيس السادات!..

ولم يكد الرئيس السادات يرى فايتسمان متوكئاً على عصاه حتى قال: أما تزال تمشي على عصا؟..

وسكت فايتسمان، ثم ألقى بالعصا في الهواء قائلاً: الله يخرب بيتك..

وضحك الرئيس السادات وأحس عيزر فايتسمان أن هذه

الضحكة واللقاء الودي والاهتمام الشخصي من الرئيس السادات قد أزال حاجزاً نفسياً ثقيلاً. ولكن ما يزال في النفس ما فيها من شك وقلق.. فقد كانت جرعة السلام كبيرة وقوية: رحلة السادات إلى القدس وخطابه في الكنيست وأثر ذلك على شعب إسرائيل والعالم كله ثم إصراره على السلام الشامل وتطبيع العلاقات، كل ذلك في وقت قصير جداً. لقد كانت هذه الأحداث المتتابعة بقوة، أكبر من أن يحتملها أحد. وأكبر دليل على ذلك أن خطاب الرئيس السادات في الكنيست كان خشناً، ولكن الناس لم يفكروا في ذلك. إنما هزهم الحدث. ووضعهم أمام باب ضخم انفتح بقوة وأطل على طريق واسع، كانوا يؤمنون بأنه لا وجود له.. وأن باب السلام مفتوح على الوهم. ولكن بعد هذا الذي حدث من الذي يجرؤ على الشك في ذلك أو تقليل أهميته، والاستخفاف بنتائجه الخطيرة على وجدان شعب إسرائيل؟..

وفي الطريق إلى مصر ذهاباً وإياباً كان فايتسمان ينظر إلى الأهرامات التي عرفها من الجو، والتي اعتقد مثل يهود كثيرين، أن أجداده قد أقاموها! وفي سنة ١٩٤٠ كان ضابطاً في سلاح الطيران البريطاني. وكان يحلو له أن يمر إلى جوار الأهرام ويتعب رأسه وخياله كثيراً في كيفية بناء أجداده للأهرام، بهذه الروعة والجمال والجلال..

(حتى مناحم بيجين كان يعتقد ذلك، إلى أن أقنعه العالم

الأثري إيجال يادين نائب رئيس الوزراء فقد قرأ له من التوراة، أن يهود مصر كانوا يبنون بيوتهم من الطين. وأنه ليس صحيحاً أنهم بناة الأهرام. هنا فقط آمن بيجين بأن المصريين هم الذين أقاموا الأهرام وليسوا أجداده من أحفاد يعقوب عليه السلام). .

وقد اعترف فايتسمان بأن موقف مناحم بيجين صعب. فهو من أشد الصقور تطرفاً. وهو صاحب سياسة «ولا بوصة» - أي ولا بوصة تتركها إسرائيل لمصر. والآن يتفاوض على ترك ألوف الكيلو مترات إنها شجاعة من بيجين أن يتحول بهذه السرعة. ولكنه الحدث الجلل، والفرصة التي يجب ألا تضيع. والمجد الذي حققه بيجين. . وسوف يذكر اليهود إلى الأبد الرجل الذي عقد سلاماً مع مصر حتى لا تكون حروب بعد ذلك. كما قال السادات وهز وجدان اليهود في العالم كله: لتكن حرب أكتوبر آخر الحروب! . . .

وأحس عيزر فايتسمان أن السادات قد استطاع بسرعة غريبة جداً، أن يتجاوز المبادرة. وأن ينظر إليها على أنها حدث كبير قد وقع. وعلينا أن ننظر إلى النتائج، ففي أول مرة التقى به قال فايتسمان: أهنئك على «مفاجأة» حرب أكتوبر! . .

ولكن الرئيس السادات بسرعة وبضيق واضح قال له: دعنا لا نتكلم عن الحرب! .

ولكن فايتسمان قال له: سيادة الرئيس كانت خطبتك في الكنيست عنيفة.. ولا توجد حكومة في إسرائيل تستطيع أن تبقى بعدها ثلاثين ثانية!..

ولكن شعب إسرائيل هزه الحادث ونسي تفاصيل الخطبة أو نبرتها أو حتى مضمونها!..

وظلت الشكوك والمخاوف تدير رأس فايتسمان، وراح يبحث عن نظائر تاريخية لرحلة السادات. فوجد أقرب شبه لذلك رحلة الوفد الياباني الذي ذهب للقاء الرئيس الأمريكي، بينما كانت الطائرات اليابانية تحطم الأسطول الأمريكي في ميناء بيرل هاربور- فلماذا لا يكون السادات قد دبر هذه الخدعة الكبرى؟!..

ولا يخفي فايتسمان دهشته لهذه الأسطورة التي يعيشها ذهاباً إلى إسرائيل، ومناقشة مجلس الوزراء لكل ما سمعه ورآه، وإياباً إلى مصر ليجلس من جديد إلى أكبر زعيم عربي استطاع أن يهز الدنيا في هدوء تام، كأنه لم يفعل شيئاً فريداً في التاريخ..

ونزل عيزر فايتسمان في قصر الطاهرة. وكان في غرفته خط تليفوني مباشر مع العالم كله. وظل فايتسمان يطلب جميع أصدقائه في إسرائيل وفي أوروبا وأمريكا ويقول: أنا عيزر.. إنني أتكلم إليكم من سرير الملك فاروق في قصر الطاهرة بالقاهرة!..

وعلى الغداء جاء سفرجي سوداني يقول له: هل تعرف عائلة فايتسمان التي كانت تسكن في شارع قصر النيل؟ . . إنني كنت أعمل عندهم . . كيف حال مدام أفيفا؟ . .

قال له عيزر إنها زوجة السفير إميل النجار . . إجلس واكتب لها خطاباً وأنا أسلمه لها . .

إنها الصدفة العجيبة التي تسوق واحداً من ٤٢ مليون مصري ليقول لفايتسمان إنه يعرف بعض أقاربه في مصر . . إلى هذه الدرجة قد تقاربت المسافات بين مصر وإسرائيل، وبين يهود مصر ويهود العالم . . وفي خطوة واحدة انتهى طريق طويل جداً . وسقطت حواجز وعوائق وموانع وسدود وشكوك . إن الموقف أكبر وأخطر مما يتصور الذين يشاركون في صنع السلام . .

يقول عيزر فايتسمان: إذا كان الطريق إلى النار محفوفاً بالنيات الطيبة، فكذلك الطريق إلى السلام! . .

وفي مجلس الوزراء الإسرائيلي كانوا يحاسبونه ويسألونه عن كل كلمة ولفتة قالها الرئيس السادات والوزراء والمساعدون . . وكانوا يشيرون إلى أنه أصبح صديقاً للسادات، وأن هناك خوفاً ألا يكون دقيقاً وأن يكون قد وقف مع المصريين . . وأن السادات قد سحره بابتساماته وقبلاته . . وفي إحدى المرات ضاق فايتسمان بهذه المناقشات العنيفة في

مجلس الوزراء، فدخل غرفة مجاورة ووجد أحد الملصقات ينادي بالسلام فمزقه قائلاً: لست على يقين من أن هذه الحكومة تريد السلام!..

وتمضي معركة فايتسمان من أجل أن يتحقق السلام بين مصر وإسرائيل.. إنه يواجه الموقف بشجاعة. ويواجهه بفهم لمشاكل الرئيس السادات ومصاعب بيجين. ولكن، رغم كل شيء، يجب أن يفعل شيئاً حتى لا تفلت هذه الفرصة النادرة الثمينة من أيدينا جميعاً..

واتهموا فايتسمان: هل أصبحت حمامة بعد أن كنت صقراً؟..

وكان يضايقه ذلك. فلا فارق بين الصقور والحمائم إلا في السرعة. فالصقور والحمائم مثل طائرتين إحداهما سريعة والأخرى بطيئة.. فالطائرة السريعة يمكنها أن تكون بطيئة.. أما الطائرة البطيئة فلا يمكنها أن تكون سريعة. فهو ما يزال صقراً يناور مرة بسرعة ومرة ببطء!..

وفايتسمان صقر مثل بيجين تماماً، ولا يختلف عنه في موقفه من سيناء. ولكن شيئاً قد حدث، وهذا الشيء يجب أن يغير كل شيء أخر..

ويقول: إن الشعب اليهودي قد اعتاد أن يعيش في مجتمع مغلق خائف قلق وفي ظل حائط، وسقط هذا الحائط، وجاء

نور السلام باهراً، فأعمى عيوناً كثيرة! . .

وقد عاش شعب إسرائيل في شك وخوف وتردد. ولذلك فمن الصعب عليهم أن يتغيروا من الشك إلى اليقين، ومن الخوف إلى الأمان، ومن التردد إلى الحسم، كل ذلك في هذا الوقت القصير. .

ولكن في الحرب كما في السلام: يجب أن نعرف نفسية وعقلية قائد المعركة. وأن نفهم العدو أو الطرف الآخر. وأن يجلس مرة في مقعده ليرى عالمه وظروفه، ونعود بعد ذلك إلى مواقعنا لنراه مرة أخرى على ضوء أحداثنا. ويجب أن يعرف الشعب الإسرائيلي - كما يقول فايتسمان - أن السادات سوف يدفع الثمن «عربياً» و «مصرياً» ومن الوهم أن نتصور أن الثمن كان رخيصاً!! . .

وكرجل عسكري فإنه يرى أنه لا أمان ولا ضمان لإسرائيل إلا باعتمادها على جيشها، فالأرض لا تعطي الأمان - لا تلال سيناء الصفراء، ولا أرض الجولان السوداء! . .

إنه يتمنى طبعاً أن تكون الضفة الغربية جزءاً من إسرائيل. يتمنى ذلك ولكن الدنيا تغيرت. ويجب أن تعتمد إسرائيل على نفسها، وعلى جيشها، بدلاً من أن تذهب إلى واشنطن من حين إلى حين طلباً للدولارات والسلاح. وبدلاً من أن تتاجر إسرائيل مع الأرجنتين والمكسيك. . فعلى حدودها ٤٢ مليوناً

من المصريين. إن هذا يجب أن يغير كل مناهج الفهم والمواجهة مع مصر..

يقول فايتسمان: يجب أن نفهم أننا لن نعلم المصريين.. بل يجب أن نتعلم منهم: التسامح والمودة والكرم والمرح!..

وفي مقدمة المذكرات يقول عيزر فايتسمان: «السلام شيء أكثر من أكوام الورق والدوسيهات والوثائق. فوراء النصوص والبنود يوجد أناس.. يوجد البشر من الجانبين. إن الوجه الإنساني للسلام هو الذي يهمني، وهو الذي أعرضه هنا. وهذا الكتاب ليس سجلاً مفصلاً لكل عملية السلام، إنه حكايتي الخاصة.. إنه وصف للأحداث كما رأيتها، وجهة نظري شخصياً، وتسجيل لمساهمتي في هذه العملية التاريخية، التي توجتها معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل.. فهل نجحت؟»..

أعتقد أنه نجح تماماً.

ويبقى أن تقرأ هذه المذكرات ابتداء من الأسبوع القادم. فقد سمح لنا المؤلف والناشر أن ننفرد بترجمتها. فشكراً.

يستحيل تفادي
حرب جديدة
بين إسرائيل والعرب؟ !

أمريكا إذن هي المسؤولة عن كل المصائب التي مسحت الأمة العربية بالأرض المقدسة. لأنها أيدت إسرائيل تأيياً أعمى. ولأنها شجعت على العنف والدم فولدت هذه الحروب، وحروباً قادمة في هذه المنطقة..

هذه هي خلاصة أحدث كتاب صدر في أمريكا للصحفي اللامع دونالدنف. الكتاب عنوانه «محاربون من أجل القدس - الأيام الستة التي غيرت الشرق الأوسط».

والقصة قديمة. ولكنه اعتمد على وثائق سرية أذيعت أخيراً، وعلى عدد هائل من المقابلات وعلى أسلوبه الصحفي السهل المثير. وعلى أحلامه من أجل السلام، ودفاعه عن المصالح الأمريكية في الشرق الأوسط وفزعه من أن تؤدي العلاقة الشاذة الاستفزازية بين أمريكا وإسرائيل إلى ضياع هيبة أمريكا ومصالحها في الشرق الأوسط، وبعد ذلك في العالم كله..

وإذا كان لا بد من تركيز الاتهام على شخص واحد، فإنه لا يتردد في أن يضع الرئيس السابق جونسون في قفص من حديد ويكتب عليه: المجرم الحقيقي. فقد كان جونسون مؤيداً لإسرائيل في جميع المناسبات. فعندما كان زعيماً للمعارضة في مجلس الشيوخ، وقف يتحدى أيزنهاور الذي طالب إسرائيل بأن تنسحب من سيناء بعد العدوان الثلاثي. وإذا كانت أمريكا قد اكتسبت شعبية في الشرق الأوسط بسبب موقف الرئيس أيزنهاور، فقد استطاع جونسون أن يقضي على كل ذلك. ولم يحاول جونسون أن يخفي هذا العطف العميق على إسرائيل ظالمة أو مظلومة ـ وكان يراها مظلومة دائماً. . .

وكان الرئيس جمال عبد الناصر على حق في اعتقاده أن الرئيس جونسون لا يحبه، وقد حاول جونسون أن يؤكد له في رسائل عديدة، أن هذا الإحساس خاطىء. ولكن عبد الناصر لم يتزحزح عن هذا الاعتقاد ـ والحق معه. . ولكن عبد الناصر قد أخطأ عندما اعتقد أن جونسون شخصياً هو السبب. والحقيقة أن جونسون ومن ورائه وحوله وأمامه كل يهود أمريكا. .

وقبل جونسون كان الرئيس كنيدي. فكنيدي قد اعترف لبن جوريون: «بأنه لولا اليهود ما نجحت في انتخابات الرياسة. ولذلك سوف أساعدهم امتناناً لهم». .

ولـم يمض وقـت طويل حتـى بعـث الـرئيس كنيدي إلـى إسرائيل بأكبر كمية من وسائل الدفاع الجوي، محطماً بذلك كل حظر على الشرق الأوسط. أرسل إلى إسرائيل بصواريخ هوك المضادة للطائرات . .

ولما اغتيل كنيدي أعلن جونسون للسفير الإسرائيلـي: إذا كنتم قد فقدتم صديقاً عظيماً، فأنا صديق أعظم! . .

وعندما زار أشرف مروان وزوجته منـى عبـد الناصـر واشنطن. استضافهما الرئيس جونسون وقال لابنـة عبـد الناصر: أنـت عروس. . وابنتـي عروس أيضـاً . . وأدعـوك أنـت وعريسك إلى البقاء في مزرعتي. . وأطلـب إليك أن تؤكدي لوالدك أنني صديق له! . .

ولكن مثل هذه المداعبات ليست مما يعجب به عبد الناصر أو يصدقه. .

ومضى تصعيد الأزمة في الشرق الأوسط، تقدمت القوات المصرية إلى سيناء واستعـدت القـوات الإسـرائيلية، واهتـز العالم العربي كله للخطب الملتهبة التي يلقيها عبد الناصر في جميع المناسبات، وكلها تدين الولايات المتحدة التي تسانـد إسرائيل إلى غير حد. .

وأثناء ذهاب عبد الناصر إلى بور سعيد أخبره علي صبري

رئيس الوزراء أن السفير الأمريكي لا يستريح إلى موقف عبد الناصر العدواني من أمريكا، وسوف يكون من الصعب على أمريكا أن تمده بالقمح.. وغضب عبد الناصر. وفي مواجهة جماهير بور سعيد ترك خطابه المكتوب وقال: إذا كان الرئيس جونسون لا يعجبه أسلوبنا فأمامه البحر.. ماذا يفعل به؟.. فقالت الجماهير: يشرب منه!..

ومضى عبد الناصر يقول: وإذا لم يشبعه البحر الأبيض، فليشرب من البحر الأحمر والأسود أيضاً!..

وفي ذلك الوقت حاولت إسرائيل أن تحصل على تأكيدات خاصة من أمريكا بمساندتها ضد مصر. وطلبت إليها أيضاً أن تمدها بالأقنعة الواقية من الغازات السامة، فقد استخدمت مصر الغازات السامة في حربها ضد اليمن سنة ١٩٦٢. ووعدتها أمريكا بذلك. وظل أبا إيبان وزير خارجية إسرائيل يلح على الرئيس الأمريكي جونسون وجميع المسؤولين أن يعلنوا تأييدهم لإسرائيل. فكان له ما أراد، وأعلن جونسون أنه ضد الذي يطلق النار أولاً.. ثم أعلن أنه سوف يحمي أمن إسرائيل..

* * *

في ذلك الوقت كانت أمريكا غارقة في حرب فيتنام. ولم يتصور الشعب الأمريكي أن هذه الحرب سوف تطول. وأنها

سوف تؤدي إلى هزيمة أمريكا لأول مرة في التاريخ. وقد طغت حرب فيتنام على كل المشاكل العالمية.. وبلغت القوات الأمريكية في فيتنام نصف مليون جندي. وكانت هناك مدمرات وغواصات وألوف الطائرات والمدافع والدبابات.. وفجأة طلب القائد الأمريكي مدداً من ربع مليون جندي. فكانت صدمة للشعب الأمريكي الذي لم تكن لديه معلومات مؤكدة عن سير القتال. وتوالت أخبار الخسائر، وأخبار الفظائع الأمريكية والتدمير، وتخريب الأرض وتعذيب الأسرى..

واستطاع القس مارتن لوثر كنج أن يقود المظاهرات ضد الحكومة وألف جماعة إسمها «التفاوض الآن» يطالب بالجلوس مع الشعب الفيتنامي لإنهاء الحرب.. وسارت المظاهرات، مئات الألوف تهتف بسقوط الحكومة ومحاكمة مجرم الحرب جونسون.. وهرب الجنود الأمريكان من الجيش.. وهرب الشبان من أمريكا وذلك بالسفر إلى الخارج، أو بالانزواء وتعاطي المخدرات. واتخذ الاحتجاج على السلطة غضباً وسخطاً على كل سلطة أخرى: الأبوين والمدرسة والكنيسة والمجتمع.. إذن فلقد تمزق المجتمع الأمريكي. وعرف الشبان الأمريكان «تكفير» المجتمع الأمريكي الذي يتباهى دائماً بالدعوة إلى السلام وإلى حماية حقوق الإنسان، و«الهجرة» منه إلى الغابات وإلى دول

أمـريكا الوسطـى . . والهجـرة من المسيحية إلـى الديانـات البوذية والوثنية . .

إذن فلقد حقـق الـرئيس الأمـريكي جونسـون أكبـر كارثـة أصابت أمريكا في العصر الحديث فلم يكن - إذن - في حاجـة إلى كارثة أخرى في الشرق الأوسط. ولكنه لم يستطيع فقد تصاعدت الأزمة . ووقعت حرب سنة ١٩٦٧ وانتصـرت إسـرائيل علـى مصر وسوريا والأردن انتصاراً مروعـاً . وبـدأت هذا النصـر بهزيمة الطيران المصري على أرضـه ، وعلـى الرغـم من أن جميع أجهزة الرادار في المنطقة قد سجلت الهجـوم الجـوي الإسرائيلي ، فإن أحداً لم يكن يتوقع أن تكون الهزيمة هكذا ساحقة وخاطفة . .

ولكن هزيمـة سنـة ١٩٦٧ قد أدت إلـى شعبية إسـرائيل في أمريكا . فقد انبهر الأمريكان بهذه الدولة الصغيرة التي هزمت كل الـدول العـربية مستخدمـةً الأسلحـة الأمـريكية . وكان الأمريكان يشيرون إلى إسرائيل علـى أنهـا الـولاية الواحـدة والخمسون . .

ولكن هذا النصر الساحق قد فضح أمريكا تماماً . فهـي قد أيدت إسرائيل تمامـاً ، واتخـذت بذلك موقفـاً عدائياً من كل العرب . .

وكشفت أيضاً عن اعتماد إسرائيل الكامـل علـى أمـريكا ،

مادياً وعسكرياً ومعنوياً أيضاً. وعلى ذلك فإسرائيل هي أمريكا وأمريكا هي إسرائيل. والعداء لأمريكا هو عداء أيضاً لإسرائيل..

وفي أثناء الحرب هاجمت الزوارق الإسرائيلية سفينة التجسس الأمريكية «ليبرتي» وأصيب كثير من الجنود والضباط في هذه العملية، ولكن الرئيس جونسون تستر على هذا الحادث.. ثم أصدر أوامره بنقل طاقم السفينة الأمريكية إلى عشرات من قطع الأسطول الأمريكي وصدرت إليهم الأوامر بألا يفتح أحد فمه. وتكلف إصلاح هذه السفينة ثلاثين مليون دولار، ثم بيعت خردة بعد ذلك بمائة ألف.

وطالبت أمريكا بأن تدفع إسرائيل سبعة ملايين دولار ولم تدفعها..

أما قبور شهداء السفينة «ليبرتي» فقد وضعت عليها هذه العبارة: توفي في شرق البحر الأبيض المتوسط.

واحتج الضباط الأحياء على هذه العبارة المهينة. وقالوا: كأنما ماتوا في أحد كباريهات بيروت!..

فقط في سنة ١٩٨٢ وضعت عبارة أخرى تقول: قتلوا على ظهر الباخرة ليبرتي!..

وهي عبارة لا تشرف أحداً ولكنها أقل إهانة من العبارة الأولى!..

والذي ينظر إلى الحروب بين العرب وإسرائيل يجد أنها تزداد قسوةً وعنفاً ووحشيةً. ففي العدوان الثلاثي - من بريطانيا وفرنسا وإسرائيل على مصر - كان عدد القتلى في إسرائيل ١٩٨ وعدد الجرحى ٨٩٩، بينما عدد القتلى المصريين ألف، وعدد الجرحى أربعة آلاف..

وبعدها بأحد عشر عاماً فقدت إسرائيل ٩٨٣ قتيلاً و ٤٥١٣ جريحاً، وفقدت القوات العربية ٤٢٩٦ قتيلاً و ٦٥٤١ جريحاً..

أما حرب سنة ١٩٧٣ وهي التي استخدمت فيها أحدث الأسلحة وأكثرها تطوراً وقدرةً على التدمير فقد بلغ قتلى إسرائيل ٢٨٣٨ وجرحاها ٨٥٢٨ وأسراها ٥٠٨..

أما قتلى العرب فهم ٨٥٢٨ وجرحاهم ١٩٥٤٨ والأسرى ٨٥٥١. وفقدت الجيوش المتحاربة كلها ٤٩٥ طائرة و ٦١ هليكوبتر و ٣٣٩٤ دبابة..

وسوف تكون الحرب القادمة أكثر قسوةً وفداحةً..

وفي سنة ١٩٥٦ صوبت روسيا صواريخها إلى لندن وباريس وتل أبيب احتجاجاً على العدوان الثلاثي..

أما أمريكا فقد نقلت الأسطول السادس إلى البحر الأبيض.

وفي سنة ١٩٦٧ كانت المواجهة بين روسيا وأمريكا أخطر. فقد حذر كوسيجين رئيس وزراء روسيا ألا تذهب أمريكا إلى أبعد من ذلك في مساندتها لإسرائيل، وكان رد الفعل الأمريكي هو استعداد أسطولها السادس مرة أخرى لكل الاحتمالات..

وفي سنة ١٩٧٣ استعدت كل القوات الأمريكية في العالم لمواجهة أي تدخل سوفيتي في سير القتال.

يقول المؤلف: إن حرب سنة ١٩٦٧ هي أعظم مأساة عسكرية أصابت الشرق الأوسط.

ففي السبعة عشر عاماً الماضية تمزق الشرق الأوسط بالكراهية والأحقاد والمرارة والعنف والدم. وطبيعي أن يقوم الفلسطينيون بكل أنواع الانتقام فقد قتلوا الفريق الإسرائيلي في الدورة الأولمبية بميونخ، ثم كانت حرب سنة١٩٧٣ ثم كان الهجوم الوحشي الإسرائيلي على لبنان، وكان الحصار اللاإنساني لبيروت...

أما الشيء الوحيد الذي تحقق فيما بعد كارثة سنة ١٩٦٧ فهو عقد اتفاقية كامب دافيد سنة ١٩٧٩، فهذه الاتفاقية في تحليلها النهائي لم تؤد إلى سلام دائم بين مصر وإسرائيل، إنما هي ضاعفت سوء الظن والمرارة بين الجميع. وهي لا شك قد أدت إلى اغتيال الرئيس السادات. وكل شيء يدل

الآن على أن المستقبل يدخر للمنطقة ما هو شبيه بذلك أو أسوأ. والشرق الأوسط محكوم عليه أن يعيش فترةً أخرى من العذاب والإرهاب وربما تجدد القتال..

والأمريكان الذين بهرهم الانتصار الإسرائيلي في حرب ١٩٦٧ قد نسوا تماماً كم كلفهم ذلك من خسائر في المنطقة. كما أن علاقة أمريكا مع روسيا قد ساءت تماماً..

وازدادت أمريكا تورطاً في المنطقة، حتى ذهبت إلى سيناء تدافع عن السلام بين مصر وإسرائيل. وإلى لبنان تدافع عن إسرائيل ضد الشعب اللبناني والسوري والفلسطيني..

ويقول المؤلف أيضاً: ومن سخريات القدر أن اليهود الذين تعذبوا في كل الدنيا وضاعوا وتاهوا وتشتتوا، قد فرضوا كل ذلك على الشعب الفلسطيني، دون رحمة..

وأمريكا قد ساعدتهم على كل ذلك..

ثم إن أمريكا تتحدث سراً بلهجة مع الملك حسين، وتجاهر بلهجة أخرى.. فلماذا لا تنفذ أمريكا ما تقوله في السر؟..

* * *

ومن المؤكد أن تشجيع أمريكا للتشدد والعنف الإسرائيلي هو الذي أتى إلى الحكم برجل إرهابي مثل بيجين في ١٩٧٧..

والموقف الآن في الشرق الأوسط: هو الدماء تجري والأسلحة تدوي، ومبادرة ريغان يرفضها اليهود والفلسطينيون وكثير من العرب.. والروس قد بعثوا بأسلحة متطورة إلى سوريا ومعها ألوف الخبراء..

يقول المؤلف: إن الوقت قد فات لتفادي حرب جديدة!

وهذا الموقف الأمريكي أو العجز الأمريكي عن اتخاذ موقف متوازن أو عادل بين العرب وإسرائيل هو الذي عمق لدى الشعوب العربية إحساسها بالكراهية والمرارة والشك في أمريكا وإسرائيل..

ويقول: إن أمريكا يجب أن تعرف، وكذلك إسرائيل، أنه لا يمكن التعايش مع العرب، بأهانة العرب وإذلالهم. لا يمكن أن يتحقق السلام بالحرب والعدوان المستمر، إن مثل هذا الموقف العدواني سوف يجعل العرب على استعداد دائم للحرب والانتقام لكرامتهم، مهما كلفهم ذلك..

ولقد كان الرئيس الأمريكي أيزنهاور أول من نبه الشعب الأمريكي والزعماء الإسرائيليين إلى ذلك. ولكن أحداً لم يأخذ بوجهة نظره. ورأوا في دعوته إلى التفاهم والمودة، أحد أمراض الشيخوخة.

وفي آخر الكتاب يوجه المؤلف تحذيره لأمريكا ونصيحته المخلصة للشعب الأمريكي الذي تأثر كثيراً بفيلم «الخروج» الذي

ألفه يهودي أمريكي اسمه يوريس . . فتوهم الأمريكان أن بطل الفيلم هو صورة صادقة لإحساس المواطن الأمريكي نحو إسرائيل. ونسي الشعب الأمريكي الطيب أن هذه الصورة قد رسمها أديب يهودي شديد التعصب لإسرائيل.

يقول دونالدنف الذي ألف قبل ذلك كتاباً رائعاً عن «محاربون في السويس»: شيء واحد هام يجب أن أؤكده وهو: أنه عن طريق الحياة كأصدقاء، في وسع إسرائيل أن تعيش في سلام. فليس في استطاعتها أن تظل إلى الأبد تلوم العرب وحدهم على هذه الحروب . . فنحن لكي نحارب لا بد من اثنين. وقد فعل الطرفان أقسى وأقصى ما في استطاعتهم في ٣٥ عاماً. فإذا لم يحاولوا أن يكونوا أصدقاء وأن يتسامحوا كما تدعو إلى ذلك اليهودية والمسيحية والإسلام، فسوف تكون حرب أعنف وأبشع من كل الحروب التي عرفها الشرق الأوسط. . وعلى العرب وإسرائيل أن يعيدوا النظر في مواقفهم . . وعلى أمريكا وإسرائيل أيضاً . .

وألا فكل الشعوب في المنطقة جاهزة نفسيّاً للقتال. وإذا كانت أمريكا تؤيد إسرائيل تأييداً مطلقاً، فإنها في نفس الوقت تساعد على الحرب التي تصيب في الدرجة الأولى مصالح أمريكا، وتمهد الطريق لروسيا في المنطقة، وعلى الشعب الأمريكي أن يجيب عن هذا السؤال بوضوح: هل إسرائيل تساوي كل

هذه الخسائر الأمـريكية المتـوالية والمصائـب المتراكمـة في المنطقة وفي العالم كله؟! . .

الجواب: من المؤكد أنها لا تساوي . .

خوف الرئيس من الأرنب
وفضائح أخرى!

ـ الصحفيون هم شعب الله المختار للدفاع الإرهابي عن الحرية! . .

ـ الصحفيون هم سيف العدالة المزيفة! . .

ـ هم أشعة الحقيقة الوهمية! . .

ـ في استطاعة أي إنسان في أمريكا أن يظهر على الشاشة ويشتم الساسة، وأي سياسي أن يظهر على الشاشة ويشتم الشعب . .

الصحافة الأمريكية دعارة وتجارة! . .

قال الرئيس كنيدي: إنني مدين بمنصبي هذا إلى النيويورك تايمس! . .

وقال الرئيس جيفرسون: إذا خيروني بين حكومة بلا صحف وصحف بلا حكومة، فإنني أفضلها بلا حكومة! . .

التليفزيون هو الديمقراطية في أقبح صورها الملونة! . .

ـ لماذا تقرأ الصحف صباحاً ومساء؟ . .

ـ رفسني حمار في رأسي وأنا طفل صغير. فأدمنت ذلك! . .

وغير هذه العبارات الشائكة، التي جرحت المؤلف قبل أن تجرح الصحفيين . . وهي لن تجرحهم فقد اعتادوا على ذلك، ولكن جودي باول السكرتير الصحفي للرئيس كارتر، جاء يصفي حسابات قديمة، فيلعن الأيام التي عمل فيها بالصحافة وكان مضطراً للتعامل مع هذه الوحوش الضارية. وهو الآن رغم ذلك يعمل صحفياً.

الكتاب عنوانه «الجانب الآخر من القصة». أما القصة فهي ليست السنوات الأربع في البيت الأبيض حيث التقى بالصحفيين ١٤٥٣ مرة ينقل إليهم آخر الأنباء والقرارات وكل ما يشغل البيت الأبيض والشعب الأمريكي والعالم كله. فمثل هذه الأحداث الجليلة قد تكفل برواية تفاصيلها وأسرارها كارتر وبرزنسكي وفانس، وأخيراً روزالين كارتر في مذكراتهم الممتعة الرائعة. أما جودي باول فيروي الجانب الآخر من الأكاذيب والفضائح التي اخترعها الصحفيون ضد الرئيس كارتر وابنته الصغيرة إيمي وضد زميله هاملتون جوردان وضده هو أيضاً. والكتاب غاضب ساخط. ولن يحظى بما يستحقه من

تقدير لأنه يشتم الصحف والصحفيين، ولذلك فالذين يقرأونه ـ إن فعلوا ـ سوف يسكتون عن الإشارة إليه.

ومن مظاهر الغضب هذه العبارة التي جاءت على الغلاف «عندما بدت لي الأخبار في ذلك الوقت والآن، خاطئة ولا سند لها وظالمة»..

* * *

فالمؤلف جودي باول ذلك الشاب الوسيم جداً اللطيف الرقيق المرح، رأى ما لم يره أحد من قبل. فهو أقوى إنسان شغل هذا المنصب. وهو في موقعه هذا يرى «مطبخ» الأخبار والقرارات في البيت الأبيض. ومطلوب أن يشبع نهم الصحفيين. وأن يكون مثيراً ليجذبهم إليه، وأن يكون ممتعاً. وألا يستسلم لهم وإلا أضاعوه.. ومشكلة الصحافة وكل صحفي هو أن يكون مثيراً ومسلياً. فإذا نجح في ذلك تقاضى أكبر أجر. وإذا كان وقوراً دقيقاً، ظل وراء مكتبه حتى يموت دون أن يزيد مرتبه قرشاً واحداً. ولا يهم أين تذهب ضربات الصحفي، هل هي موجهة ضد الحكومة أو ضد الشعب؟.. المهم أن يضرب وأن يتفرج على الذين يضربهم، والمهم أن تكون الضحية على قيد الحياة، حتى يجد متعة في عذابها، وأن يقنع الناس بأن يشاركوه ذلك. إنها الوحشية تصنعها الصحف ويعتاد عليها الناس. ولا أحد يعرف أيهما القاتل

وأيهما القتيل. فالقتيل يريد أن يقوم بهذا الدور، والصحفي يسعده أن يسارع إلى ذلك..

وجودي باول جاء من الجنوب مع الرئيس كارتر، وعمل معه في حملاته الانتخابية محافظاً لولاية جورجيا.. ولأنه من الجنوب، فهو فلاح صريح. ولذلك يقول: إذا أردت أن تقول لاحد يا ابن الـ..، فقلها في وجهه. لأنك لوقلتها من وراء ظهره فسوف تبلغه شتائم أكثر يتولى الناس إضافتها. ولذلك فاختصاراً للوقت وتوفيراً لجهود أنصار الفضيحة ومروجيها، قلها ولا تخف!..

جودي باول: ليس من أملي إصلاح الصحافة الأمريكية المعوجة.. ولا أن أجعل لها هدفاً أسمى. فلا يزال البقاء للأتفه والأسخف والأوقح. إنما فقط أردت أن أدافع عن البيت الأبيض وعن نفسي، وأن تهون هذه المصيبة على كل من سوف يشغل هذا المنصب بعد ذلك.. ولم يمض وقت طويل حتى توالت الفضائح، وأول فضيحة ما نشرته الصحف عن أحد مستشاري الرئيس كارتر، أنه كان يستقل طائرة كل أسبوع ليشاهد مباريات كرة القدم في ولاية جورجيا أي الولاية التي جاء منها الرئيس..

ولم يكن الخبر صحيحاً. بل إن أعضاء كثيرين في مجلس الشيوخ يفعلون ذلك..

وكان رد الفعل عنيفاً في غرف البيت الأبيض.

وأول غلطة لجودي باول أنه تولى الدفاع عنها دون أن تكون لديه معلومات كافية، ونشرت شبكات التليفزيون كل ما جاء على لسانه، فكانت فضيحة أخرى..

وطبيعي أن يتعرض المؤلف لأكبر حادث في تاريخ الرئيس الأمريكي وأمريكا أيضاً: قمة كامب دافيد. فقد تقرر عزل كارتر والسادات وبيجين والوفود المرافقة لهم في غابات وعلى سفوح جبال كامب دافيد بعيداً عن ١٥٠٠ صحفي. وكان على جودي باول أن يلتقي بالصحفيين طوال ١٣ يوماً. وقد اختير مكان بالقرب من كامب دافيد. وزود هذا المكان بمائتي تليفون وآلات كاتبة وخطوط مباشرة لمصر وإسرائيل..

وكانت هناك اقتراحات بأن يكون مقر الرؤساء الثلاثة في أماكن أخرى في واشنطن مثل بيت الضيافة «بلير هاوس»، أو في فندق كارلتون.. ولكن اختيار كامب دافيد كان أنسب مكان لأن يعمل الرؤساء بعيداً عن الصحفيين.

وقد كان الرئيس نيكسون هو الذي أعد استراحة كامب دافيد، فكانت على هذه الصورة الجميلة. وتلقى الرئيس كارتر خطاباً من أرملة إيزنهاور تقول فيه: إنني سعيدة باختياركم منطقة كامب دافيد، التي اتخذت اسمها من حفيدي، مكاناً

لتقرير السلام في الشرق الأوسط. بعيداً عن الصحفيين، حتى لا يفسدوا كل شيء . .

وجاء خطاب أرملة أيزنهاور سبباً قوياً لأن يكون كامب دافيد هو المقر النهائي لقمة أمريكا ومصر وإسرائيل من أجل السلام . .

وكان المقر الصحفي في قرية «ثرمونت» التي ارتفع منها منطاد يهدينا إلى هذه الخلية من النحل والدبابير الصحفية. وقد ضللنا الطريق . . نحن الذين ذهبنا لمتابعة الأخبار عن قرب. فقد كنا نرى المنطاد من بعيد، ومع ذلك نخوض الغابات ونصطدم بالجبال والبحيرات الصناعية . . وهناك كنا نلتقي بجودي باول. إنه شاب وسيم يتجه مباشرة إلى المنصة والميكرفون ويدلي بما لديه من معلومات، ويجيب عن بعض التساؤلات ويحاول أن يكون لطيفاً. فإذا سئل: كم مرة التقى السادات بيجين؟ كان يقول: مرتين . .

وعندما كنا نسأله: ومن الذي بدأ بالتحية؟

كان يجيب: لم أسمع ولكني رأيت الاثنين يتقاربان . . ولا بد أنها تكلما ولا بد أنهما قالا صباح الخير أو مساء الخير . فكلاهما إنسان متحضر! . .

أو يقول لنا: السادات يمشي وحده . . السادات وجد نفسه وجهاً لوجه مع السيدة روزالين كارتر والسيدة عليزة بيجين،

ولكنه أحنى رأسه ومضى يفكر. . أو السيد بيجين يلعب الشطرنج مع برزنسكي وهما يتكلمان اللغة البولندية.

وكان الصحفيون يسألونه: ومن الذي انتصر في النهاية؟ . .

وكان يجيب: إنهما يستأنفان اللعب اليوم. .

وفي داخل كامب دافيد كان هناك معمل لتحميض الصور. . أما الصور الملونة فيتم تحميضها في أحد معامل القاعدة البحرية التي تتولى حراسة المنطقة. واختيار الصور متروك للوفدين. كل وفد يختار الصور التي يراها مناسبة. .

فالوفد المصري يرفض الصور التي يبدو فيها السادات ضاحكاً بينما بيجين مكشر. والوفد الإسرائيلي يفعل نفس الشيء. وكل وفد حريص على أن تدل صورة الرئيس كارتر على الاهتمام والاحترام. .

وكانت لجودي باول مشكلة يومية: د. أسامة الباز. لأنه هو الذي يختار صور الوفد المصري. وأسامة الباز في حوار لا ينتهي مع الرئيس كارتر. بل إنه يجلس إليه أكثر مما يجلس مع السادات وبيجين. وهو لا يكف عن مناقشة الضفة الغربية والقدس وبناء المستوطنات والانسحاب من سيناء. ولا بد من الاتصال به. ولم يكن في استطاعة جودي باول أن يرد على

الصحفيين الذين يستعجلون الصور، بأنه لا يعرف ما الذي يفعله إذا كان أسامة الباز لا يمكن الاتصال به، ولا يعرف وسيلة لإبعاده عن كارتر. .

ويوم قرر السادات أن يخرج للفسحة دون إخطار للصحفيين، نشرت شبكات التليفزيون مندوبيها وصوريها على كل مداخل ومخارج كامب دافيد. . ثم هاجموا جودي باول الذي لم يطلعهم على هذا الخبر المثير. ويكون الرد: إنه السادات الذي فاجأه بهذا القرار، ويكون رد الصحفيين: أنت كذاب. . أنت أبن الـ . . .

ويوم ذهب الرؤساء الثلاثة إلى حفلة أقامتها القوات البحرية أفسحوا مكاناً للصحفيين ومنعوا عائلات ضباط البحرية من مشاهدة هذه الحفلة. . وبكت زوجة جودي باول وابنته. فقد حاولت إحداهما أن تقف تحية للنشيد القومي. . والصحفيون لم يقفوا. وشتموا زوجته.

وكانت هناك محاولات لا تنتهي بين السادات وبيجين لأن يبدو كل منهما أقل تنازلاً من أجل السلام. أما صحف مصر وإسرائيل فكانت حريصة على إبراز هذا المعنى، وجودي باول لا يعلق على ذلك ويكتفي بأن يقول: إنه لا يعرف العربية أو العبرية!. .

ثم ظهرت فضيحة الرئيس والأرنب. .

فقد ذهب الرئيس في إجازة وروى أنه بينما كان يركب الزورق إذ رأى عن بعد أرنباً كبيراً سابحاً في الماء. والأرنب اتجه ناحية الزورق.. ولم يكن الرئيس كارتر قد رأى مثل هذه الأرانب البرية الضخمة. وقد اندهش الرئيس وانزعج أيضاً..

ونشرت الصحف هذا الخبر. وكان جودي باول هو الذي روى حكاية الأرنب لأحد أصدقائه.. وتناولت كل شبكات التليفزيون قصة الرئيس «قاتل الأرانب»..

وتساءلت الصحف والتليفزيون: ما الذي يقوله الروس والكوبيون أو الأجانب وجماعة سوابو الأفريقية عن الرئيس الأمريكي الذي يخاف من الأرانب؟!..

وقالت صحف أخرى: إن خوف الرئيس من الأرانب، هو الذي جعل أتباع الخوميني في طهران يتجرأون على السفارة الأمريكية ويحاصرون الخمسين رهينة؟..

وقالت الصحف: إن خوف الرئيس من الأرانب هو الذي جعل الروس يحتلون أفغانستان!..

وقالت الصحف: ما الذي نقوله للعالم كله؟.. هل نقول لهم إن الرجل الذي يستطيع بأصبعه أن يشعل حرباً نووية يخاف من الأرانب؟..

وقال القساوسة في شبكات التليفزيون: إن الكتب المقدسة تصف الأرنب بأنه من أتباع الشيطان، فكيف يدعي الرئيس كارتر أنه مؤمن، ثم يخاف من قتل حليف الشيطان؟..

وقالت صحف: إن قتل الرئيس للأرنب دليل على القسوة والوحشية!..

وتساءلت صحف أخرى: لماذا لم يدخل الرئيس في حوار إيجابي مع الأرنب؟ ألا يتسع الزورق لهما معاً؟. أهذا هو السلوك الذي نتوقعه من رجل الحرب مع الروس، والسلام مع العالم؟..

وقالت الصحف اليهودية: هذا ـ إذن ـ ما سوف تفعله أمريكا مع دولة صغيرة مثل إسرائيل!..

بل إن الرئيس كارتر قد سئل في لقاءات كثيرة أن يوضح للناس: كيف رأى الأرنب؟. وكيف خاف منه؟. وكيف أطلق عليه الرصاص؟. وأن يشرح بالضبط وبالدقة: ماذا حدث؟..

وبعد انتصار الرئيس ريجان في الانتخابات، أخرجوا من الأوراق الخاصة للرئيس كارتر صورة له مع الأرنب. ونشرتها الصحف والتليفزيون!..

وقد أساءت هذه القصة للرئيس كارتر إساءة بالغة ـ وكان جودي باول هو السبب . .

ثم قصة «أهرامات النيل» . .

فقد نشرت الصحف الأمريكية والتليفزيون أن هاملتون جوردان أحد مستشاري الرئيس كارتر قد أسرف في الشراب . وأنه لذلك اقترب من حرم السفير أشرف غربال . . وسحب صدر فستانها قائلاً : لقد تمنيت طول عمري أن أرى الأهرامات ! . .

ولم تفلح جميع المحاولات في تكذيب هذه الواقعة الوقحة . نفاها كيسنجر الذي قال إنه كان يجلس إلى جوار حرم السفير المصري . وكل الضيوف الذين تناولوا العشاء في بيت المذيعة بربارا والترز . ولكن القصة انتشرت ولم يعد في الإمكان تكذيبها .

ونشرت الصحف أن جودي باول وزميله هاملتون جوردان معاديان لليهود ولإسرائيل . . وأنهما هاجما يهود أمريكا . وأنهما يؤيدان موافقة الكونجرس على بيع طائرات ف ١٥ للسعودية ومصر . وحاول جودي باول أن يعرف مصدر هذه الأكذوبة الجديدة . ثم عرف أنه إحدى الصحفيات . . قد نشرت الخبر . ثم عرف من الذي أعطاها هذا الخبر . . إنه رئيس اللجنة اليهودية للدفاع عن إسرائيل في الكونجرس ! . .

وعرف جودي باول من جيرانه أن إحدى السيارات قد وقفت أمام بيته وجمعت صناديق الزبالة وهربت، وبعد أيام نشرت الصحف أن ابنة جودي باول ذهبت إلى أحد القساوسة تعترف بأنها ارتكبت خطيئة كبرى، وأن هذا واضح من الخطاب الذي بعثت به إليه.. القساوسة. ومن رد القسيس عليها. وأن هذه العلاقة مع القسيس نفسه!..

وتساءلت الصحيفة: إن كانت إميلي ابنة جودي باول قد تورطت في تعاطي المخدرات أو في فضيحة جنسية؟..

ولم تكن هذه القصة إلا نتيجة لقراءة ما جاء في الأوراق التي ألقيت في صندوق الزبالة. فأحد القساوسة قد كتب لابنته يدعوها للقائه والحديث معه. وأنه في لقائهما السابق قد أعجب بتفكيرها وثقافتها!..

وقد فعلت الصحف نفس الشيء مع هنري كيسنجر. حين سارعت سيارة بجمع الزبالة من أمام شقته، لمعرفة ما الذي جاء في أوراقه الخاصة؟!..

وقصة أخرى عن إيمي ابنة الرئيس كارتر وعلاقتها بالأسلحة النووية- وقد روى برزنسكي هذه النكتة في مذكراته. وحكى كيف إنه كان يداعب الرئيس كارتر في مذكرات مكتوبة في هذا الشأن. وقد تسرب إلى الصحف أن إيمي -١٠ سنوات - قد تورطت في علاقة مع أحد الروس فأطلعته على الأخبار

النووية السرية في البيت الأبيض؟!..

ونشرت الصحف أن إيمي ابنة الرئيس كارتر تعيش على هواها في البيت الأبيض. وأنها تستضيف من تشاء من أصدقائها..

ونشرت الصحف أن إيمي كانت ضمن فريق رياضي خسر في كرة القدم. وأن إيمي جلست على الأرض تبكي وتطلب أن تكون لها «كأس» الفوز.. فما كان من رجال الأمن الذين يحرسونها إلا أن أحضروا لها كأساً؟!..

ونشرت الصحف أن «إيمي» ظهرت في إحدى الحفلات الرسمية وقد انكفأت في أحد الأركان تقرأ في كتاب وأن هذه قلة أدب وسوء تربية، وأن من الخير لوالديها أن يضرباها قلمين ويلقناها درساً في البروتوكول؟!..

وقصة أن هاملتون جوردان قد عاكس إحدى الفتيات، فلما لم تستجب له بصق على فستانها!..

ثم فضيحة الكوكايين.. فقد نشرت الصحف أن هاملتون جوردان كان يتردد على «الكباريه ٥٤» في نيويورك.. وهو كباريه للعراة. وأنهم قدموا له الكوكايين. وأنه تعاطاه، وأنه قد أصبح مدمناً..

وقد حاول جودي باول أن يكذب هذه القصة بكل ما

يستطيع من قوة . . ويجد في موقف الصحافة كلها منه ومن البيت الأبيض عداء للرئيس كارتر وحقداً عليه هو.

وأوضح صورة لهذه الحرب بين البيت الأبيض والصحافة قد ظهرت في قضية «ووترجيت» التي فضحت الرئيس الأمريكي نيكسون، لأنه كان يتصنت على خصومه السياسيين . .

وكذلك موقف الصحافة من حرب فيتنام. وقد أدى موقف الصحافة إلى تمزيق الرأي العام الأمريكي وربما العالمي. وانتصرت الصحافة وانسحقت الحكومة، ولكن خسارة الشعب الأمريكي معنوياً كانت أفدح وأبشع. ومايزال الأمريكان يعانون من عقدة فيتنام حتى اليوم، والسبب هو الحملة الظالمة للصحف على البيت الأبيض.

أما فضيحة الفضائح فهي أن الصحافة تحدثت طويلاً وكثيراً عن العلاقة الغرامية بين الرئيس «المؤمن» كارتر وسكرتيرته سوزان؟!.

وأن جودي باول كان عشيقاً لها قبل مجيئها إلى البيت الأبيض؟!.

* * *

شيء واحد يعذب جودي باول هو أنه قد أساء إلى رئيسه كارتر كثيراً، وبحسن نية. وأنه في الدفاع عن كارتر قد خسر

كل الصحفيين. ولكنه ليس نادماً على شيء، فكارتر يستحق الدفاع عنه، أما الصحفيون فليس مكسباً أن تعرفهم، ولا خسارة أن تكون بعيداً عنهم. فليس لهم أصدقاء ولا تحكمهم مباديء، فهم في حالة سباق مميت من أجل الحصول على أي خبر، ولو كان الثمن جثة القاريء.. أو كل القراء.. فالمهم هو أن يثيروا وأن يجرحوا وأن يذبحوا ـ فتلك هي الوسيلة وذلك هو الهدف..

* * *

في أخر الكتاب يقول جودي باول: وإذا نظرت إلى الوراء الآن فيؤسفني أنني لم أضحك بما فيه الكفاية على أنفسنا وعلى الذين من حولنا في العالم كله. فأشد ما يحتاج إليه البيت الأبيض، هو هذه القدرة على أن نرى الجانب المرح من كل شيء، أو حتى الجانب السخيف..

وليست في هذا الكتاب ابتسامة واحدة. فقد أطلق لسانه وأظافره وأنيابه في كل الصحف، التي يعمل فيها الآن.. ولأن الصحفيين قد اعتادوا على أن يكونوا وحوشاً شرسة، وأن يصفقوا لمن ينتصر في النهاية، فقد أسعدهم أن يحتمي جودي باول بالذين مسحوا به بلاط صاحبة الجلالة ـ فهو عندما غضب منهم هرب إليهم. وفي ذلك اعتذار لهم عن كل الذي جاء في هذا الكتاب!..

عندما تكتب
السيدة الأولى مذكراتها

- ١ -

هناك نوعان من الزوجات:

الزوجة وزوجة رئيس الجمهورية.

وزوجة رئيس الجمهورية أنواع:

واحدة وقفت أمامه مثل جاكلين زوجة الرئيس جون كنيدي.

وواحدة إلى جواره مثل اليانورة زوجة الرئيس فرانكلين روزفلت.

وواحدة وراءه مثل روزالين زوجة الرئيس جيمي كارتر، التي صدرت مذكراتها أخيراً بعنوان «سيدة أولى من قرية بلينز»، وهي قصة فتاة ريفية عادية أحبت ضابطاً بحرياً يقيم على مسافة ثلاثة أميال من بيتها ويكبرها بثلاث سنوات. رأت صورته على الحائط في غرفة نوم أخته، أحبت الصورة في صمت، فقد رأت فيه نموذجاً للرشاقة والوسامة. ولم تره.

وعندما رأته لم تكلمه. وعندما كلمته لأول مرة قالت كلمة واحدة. وعندما ذهبت معه إلى السينما ودعها بقبلة على خدها.. مع الأسف ـ هي التي أسفت ـ وهي متدينة مثله تماماً.

ومضت قصة الحب عادية. فأخته هي التي رتبت اللقاءات. وعندما طلب منها الزواج فوجئت، فقد كانت صغيرة في السابعة عشرة. ولم تستعد لهذا اليوم ـ وتضايقت أخته عندما أحست أن أخاها قد انصرف تماماً إلى روزالين، ولم تفلح روزالين إلا بعد وقت طويل في استعادة صداقة هذه الأخت! ـ ولم تكمل بعد دراستها، كما وعدت والدها قبل أن يموت. فقد كانت تعمل في صالون حلاقة، وكانت هي التي تغسل رؤوس الزبائن بالشامبو. ولكنها قررت أن تدرس في الجامعة. وعندما اتفقا على الزواج أعطاها كتاباً عنوانه «زوجة ضابط بحري» لتعرف ما هو وما عمله وما هي واجباتها. وأحبت الشخص أكثر مما أحبت صاحب الصورة. وعندما ألقى الأمريكان القنابل على هيروشيما ونجازاكي صلّت لله شكراً، فلن يذهب زوجها للقتال في مياه اليابان..

الصفحات الأولى من مذكراتها مثيرة وبسيطة وطبيعية، فهي تتحدث عن الليلة السابقة على حلف اليمين عندما اختير جيمي كارتر رئيساً للجمهورية. لقد عاشت أسرة كارتر في «بلير

هاوس» وهـو قصـر الضيافـة . وكان ذلك يوم ٢٠ ينـاير سنـة ١٩٧٧ . الجو بارد . الفرق الموسيقية التي كان من المفروض أن تعزف في حديقة البيت الأبيض صدر لها قرار بأن تنصرف حتى لا تلتصق الآلات النحاسية بشفاه العازفين . ولـم تقـرر السيدة روزالين كارتر ما الذي سوف تفعله : هل يسيرون على الأقدام إلى البيت الأبيض وسط الناس؟ إنهـا تريد أن يكون دخول البيت الأبيض شعبياً . ولكن كيف تفعـل ذلك؟ . . إن أولادها الثلاثة متزوجون . واحـدة من الزوجـات حامـل في شهرها الثامن . وابنتها إيمي نسيت أن تحضر معها البـوت . . هي شعرها قصير جداً . اكتشفت ذلك فجـأة ، فظلـت تنكشـه ليبدو أطول . وفي الصباح الباكر تناولـوا إفطارهـم ، الثلاثـة ببرنس الحمام في المطبخ : هي والرئيس وابنتهما إيمي .

ثم وضعت في عنقها سلسلة ذهبية تتدلى منها ثلاثة صلبان : واحد لزوجها وواحد لابنتها وواحـد للحفيد . . لتجلـب لهـا الحظ . .

وبعد ذلك كان كل شيء مثيراً ، لم تعـد ترى ولا تسمـع ، ونسيت شعرها القصير ، وفساتينها التي ليست أنيقة ، ولـم تعد تذكر إلا أن هذا اليوم قمة أحلامها وبداية حياة لم تكن تخطر لها على بال . وكانت الموسيقى والجماهير والسيارات والناس يهتفون : يحيا كارتر . . بارك الله فيك . . ونزلت أسرة كارتـر

من السيارة. وساروا جميعاً إلى البيت الأبيض في موكب طويل. توقف الموكب فجأة لأن إيمي طلبت من أخيها أن يربط لها الجزمة. وبدأت حياة روزالين كارتر السيدة الأولى لأمريكا! . .

- ٢ -

كان الرئيس كارتر يعلن دائماً أثناء الحملة الانتخابية: أن أمريكا قد نسيت أصدقاءها في العالم. وأنه إذا أصبح رئيساً فسوف يعود إلى الأصدقاء ويعيدهم. .

وكانت أمام كارتر مشاكل عاجلة: الطاقة وقناة بنما والسلام في الشرق الأوسط ومفاوضات الحد من الأسلحة الاستراتيجية، وكان لا بد أن يحضر مؤتمر قمة في لندن. أما نائب الرئيس مونديل فهو يلاحق كل هذه المؤتمرات، وعليه هو أيضاً أن يشارك في جلسات حلف شمال الأطلنطي. .

وأروع الذين كتبوا مشاكل الرئيس والتزاماته: سيروس فانس وزير الخارجية، فقد كتب في مذكراته أنواع العذاب والشقاء الذي يواجهه كل يوم، وعليه أن يكون جاهزاً للرأى والقرار لكل مشاكل الدنيا. .

ثم أمام الرئيس مشاكل أمريكا اللاتينية. وفي يوم عاد الرئيس كارتر ليلاً ليقول لزوجته: أريد منك خدمة. . أن تسافري نيابة عني إلى بعض دول أمريكا اللاتينية.

ولم تستطع أن تقول لا أو نعم ، لقد كان الطلب مفاجأة . وبعد تفكير قالت : طبعاً أوافق .

وبدأ الاستعداد لهذه المهمة . جاءها وزراء الخارجية والمالية والأمن القومي ومنظمة الدول الأمريكية يحاضرونها ويجيبون عن أسئلتها . وبدأت تتقن اللغة الأسبانية وتتحدث ليلاً ونهاراً مع زوجة فانس وزير الخارجية ومع اثنتين من زوجات أولادها . وكانت تعرف الأسبانية ، ولكنها لا تتحدثها بطلاقة كما يفعل الرئيس كارتر . ثم راح برزنسكي مستشار الأمن القومي يعرض عليها مشاكل أمريكا اللاتينية من وجهة نظر إدارة الرئيس كارتر ، مع تعريف بكل الزعماء : مزاياهم وعيوبهم ، وما الذي يرضي ويعجب زوجاتهم . وفي نفس الوقت ما الذي يجب عليها أن تفعله أو لا تفعله . فهي يجب ألا تعد بشيء . فليست لها صفة رسمية . ولكن في نفس الوقت عليها أن تؤكد ما أعلنه الرئيس كارتر عن حقوق الإنسان . التي معناها عنده : تحرير الإنسان من القهر السياسي ، والفقر الاقتصادي .

وعرفت روزالين أن مشاكل العالم كلها مترابطة . فما يحدث في أمريكا له أثر في كل مكان في العالم ، وعكس ذلك صحيح . وتقول إنها سمعت من الإسرائيليين هذه النكتة ، قيل لليفي اشكول رئيس الوزراء : عندنا مصيبة . فتساءل : ماذا؟

قالوا له: جفاف! قال: أين؟ قالوا: في صحراء النقب..
وكان رده: الحمد لله. لقد ظننت ذلك في ولاية تكساس!.

وبدأت بعد ذلك رحلتها مع وفد مكون من ١٩ شخصاً من الخبراء ورجال الأمن والصحافة إلى جامايكا وكوستاريكا وإكوادور وبيرو والبرازيل وكولومبيا وفنزويلا..

وفي الاستفتاءات التي أجريت للرأي العام في أمريكا جاء دور السيدة روزالين كارتر: السيدة الأولى في أمريكا وفي العالم. أن لها أثراً على قرار الرئيس كارتر لأنها تحضر معظم الاجتماعات الهامة في البيت الأبيض. وتكتب ملاحظات، وتساعده على العمل في الساعات الصغيرة من كل يوم، حيث يكون بعيداً عن السكرتارية والمستشارين. وأنها لا تعرض رأياً، إنما فقط تذكره وتمده بالمعلومات. فهي السكرتير العاشق له..

- ٣ -

ومن أهم الأحداث في حياتها وحياة زوجها وأمريكا والعالم: قمة كامب دافيد. وقد بدأ الاستعداد لها منذ وقت طويل. لقد فكر كارتر في أن يجمع بين الرئيس السادات والسيد بيجين. وناقش ذلك مع كل مستشاريه. وكان من رأيهم: ابعد عن الشرق الأوسط. فالخلاف بين اليهود والعرب عمره مئات السنين. وهناك يقين عند الطرفين: أن لا

سلام بينهما إلى يوم القيامة . ابعد! .

لاحظ كارتر أن كل مستشاريه مهندسون بارعون في رسم طرق الفشل ذهاباً وإياباً. ولكن أحداً منهم لم يفكر في طريق واحد للنجاح .

وهنا أصر جيمي كارتر على أن يحاول وأن ينجح . قال لزوجته : إذا لم تحاولي فأنا أضمن لك الفشل ، وإذا حاولت فأنا أضمن لك الفشل والنجاح . وإذا كان لديك إيمان وإصرار فأنا أضمن لك النجاح ! .

وفي أغسطس من العام الأول للرياسة سافر فانس وزير الخارجية لدعوة السادات وبيجين لزيارة واشنطن . وافق الاثنان سعيدين بذلك .

وجاءت زيارة السادات للقدس التي هزت العالم كله . ورأى فيه العالم أملاً باهراً للسلام .

وكان السادات قد وعد كارتر: بأنه في اللحظة الحرجة ، يمكنك الاعتماد عليّ في تذليل الصعوبات التي تعترض طريق السلام!

ولم تفلح جميع الجهود بين مصر وإسرائيل ليتقدم أحد نحو السلام، فبعث كارتر إلى السادات خطاباً يقول له فيه : لقد حانت اللحظة الحرجة .

وسافر إلى كامب دافيد وفدان: من مصر برئاسة السادات، ومن إسرائيل برئاسة بيجين في ٥ سبتمبر سنة ١٩٧٨.

ونصحوا روزالين أن تكتب مذكراتها. فهذه فترة تاريخية نادرة. وكتبت أكثر من مائتي صفحة.

وكانت المفاوضات والمناورات وتشدد الطرفين. وإن كانت روزالين تلاحظ أن الوفد الإسرائيلي أكثر مرونة. وكان السادات يشير إلى بيجين بقوله «هذا الرجل». وكان كارتر يقول ذلك أيضاً: هذا الرجل لا يريد السلام.. هذا الرجل يعتقد أني لم أفعل له شيئاً، مع أنني أحاول أن أنشر السلام في بلاده.. الله يلعن..

وفي إحدى الليالي الباردة جداً قدمت للرئيس السادات «إيشاربها» ليلف به رأسه.. وتمنت أن يلتقط أحد هذه الصورة النادرة..

وكان كارتر يقول للرئيس السادات عندما يجده متشدداً عصبياً ممروراً: أنت وعدتني بالمساعدة.. ويمكن أن نوقع اتفاقاً معاً، إذا تشبث بيجين بموقفه..

وقال له الرئيس السادات: اكتب أية وثيقة. أنت تعرف المشاكل الهامة في المنطقة. وأنا على استعداد لأن أوقع أية وثيقة معقولة تقدمها أمريكا..

كتبت السيدة روزالين في مذكراتها: عندما يثق السادات

في أحد فانه يتعاون معه . . وهو يثق في كارتر وفايتسمان . وعندما لا يثق في أحد فهو يتوقف عن التعاون معه . وهو لا يثق في بيجين مطلقاً . .

وكان الرئيس كارتر عندما يغضب وينفعل يقول لبيجين : أنا أحاول أن أحقق لك السلام . ولكنك جعلت موقفي صعباً . .

ولما علم الرئيس كارتر أن السادات قرر أن يحزم أمتعته ويرحل . وفي نفس الوقت أصدر أوامره إلى خمس فرق بأن تنتشر على الضفة الغربية لقناة السويس ، قال كارتر : إن الخطر ليس من إسرائيل ، إن الخطر يجيء من جيرانه الأفارقة .

ولما التقى بالرئيس السادات كان عنيفاً لدرجة أنه قال لزوجته : لن أقول لك ما الذي دار بيني وبين السادات . أبداً !

وعرفت السيدة روزالين أن لهجة كارتر مع السادات كانت عنيفة جداً . وأنه لم يحدث أن فعل ذلك مع أحد في حياته . لقد حذره كارتر من الفضيحة العالمية التي سوف تكون من نصيبه وحده . فهو وعد بأن يساعد كارتر ، وهو سوف يدخل التاريخ على أنه الرجل الذي جعل العالم كله ينتظر ثم خدعه . . وأنه هو الذي حطم كل جهود السلام ، والعلاقات المصرية الأمريكية أيضاً ! .

وأخيراً وبعد مناقشات عنيفة وافق السادات . واستراح

كارتر وقال له: ماذا تريد أن أقدمه لك؟.

قال السادات: أن تجيء لزيارة مصر أنت وروزالين.

قال كارتر: شيئاً أهم من ذلك.

قال السادات بعد تردد: مزيداً من القمح.

قال كارتر: هذه مهمة الكونجرس، ولكني سأحاول.

وبعد شهور وافق الكونجرس على إرسال القمح إلى مصر..

ولم يفت السيد مناحم بيجين أن يخلط النفاق بالغرور بالجهل عندما قال لروزالين: إن زوجك قد تعب كثيراً في الوصول إلى الاتفاق.. إن الذي عمله يعادل ما عمله أجدادنا في بناء الهرم!

- ٤ -

وعندما جلس الرئيس كارتر إلى زوجته في السرير سألته: ماذا حدث اليوم؟.

قال لها: إنه غضب من المصريين وانهى اللقاء، وطلب مقابلة السادات فوراً. فقد كان يتحدث إلى د. أسامة الباز، وفوجيء بأسامة الباز يقول: إنه لا يوافق على أن يكون لإسرائيل أي رأي في مشكلة اللاجئين في الضفة الغربية. ولكن كارتر قال له: هذا يخالف ما قاله الرئيس السادات. قال

أسامة: ولكني لم أناقش الرئيس في ذلك.

فغضب كارتر. وطالب بلقاء السادات فوراً.

فقيل له إن السادات نام مبكراً، وطلب ألا يوقظه أحد.

وفي الساعة الرابعة من صباح ذلك اليوم نهضت روزالين لتجد زوجها قد نهض أيضاً. وقال لها: أنا قلق على حياة الرئيس السادات، فليس من عادته أن ينام مبكراً. ثم إنني استمعت إلى مناقشات حامية بين أعضاء الوفد المصري..

واستدعى كارتر رجال الأمن ومستشار الأمن برزنسكي الذي جاء بالبيجاما. وطلب إليهم أن يقتربوا من كوخ الرئيس السادات ليعرفوا إن كان شيء قد حدث..

وفي الساعة الثامنة صباحاً نظر كارتر وروزالين من النافذة، فوجدا السادات قد استعد للمشي.

هذه الواقعة رواها برزنسكي في مذكراته، وعرضت لها في هذا المكان منذ شهور، وقد كان الرئيس كارتر قد حذر برزنسكي من التصنت على الوفدين المصري والإسرائيلي؛ فلا داعي للمشاكل، ووعده برزنسكي بذلك. ولكن جاءت المعلومات للرئيس عن محادثات عنيفة وصراع في غرف الوفد المصري ـ بما يدل على أن برزنسكي قد وضع أجهزة للتصنت أيضاً. وعندما ذهب الرئيس كارتر إلى القدس، أشار إلى

سقف الغرفة التي ينام فيها قائلاً: إن بيجين يعرف كل ما نقول الآن!

وسألت أنا مصدراً كبيراً جداً عن هذه الواقعة، قال: لم تكن هناك محاولة من أي نوع. . إنما هم الأمريكان قد استمعوا إلى المناقشات الحادة بين أعضاء الوفد، وذهب بهم خيالهم إلى آخر المدى. .

وتقول روزالين إن د. أسامة الباز يمثل التشدد والتصلب.

وهذا قاله موشي ديان في مذكراته التي كتبت عنها منذ سنوات في هذا المكان أيضاً.

وتقول روزالين إن أسامة الباز من الطبيعي أن يكون كذلك، فقد كان عضواً في منظمة التحرير الفلسطينية عندما كان طالباً، وقد عرفت من الرئيس كارتر أن ما يقوله أسامة الباز يوافقه عليه الوفد المصري عادة. فمثلاً: عندما تحدثوا عن القدس مدينة غير منقسمة، كان الإسرائيليون يقولون: القدس غير مقسمة.

ولكن أسامة الباز أصر على استخدام هذا التعبير: القدس مدينة غير مقسمة. . فهذا يرضي العرب!

ـ ٥ ـ

ثم مأساة الرهائن الأمريكان المحبوسين لمدة ٤٤٤ يوماً،

آخر الأحداث العنيفة في رياسة كارتر.

وقد رواها الرئيس كارتر في مذكراته التي كتبت عنها في هذا المكان، فكان أدق.

وكتب عنها برزنسكي، فامتلأت بالمعلومات المثيرة والنظرات السياسية الذكية..

وتعرضت روزالين للأحداث في أفغانستان والحظر على تصدير القمح إلى روسيا ومقاطعة الدورة الأوليمبية وفشل محاولة إنقاذ الرهائن أول مرة، وقبل ذلك مأساة شاه إيران الذي رفضت كثير من الدول أن تؤيه مريضاً أو امبراطوراً.. وكيف قرر كارتر قبوله في أمريكا.. ثم هرب الشاه إلى مصر حيث عاش ودفن في احتفال مهيب، وارتفع قدر السادات مرة أخرى عند شعوب العالم لشجاعته وإنسانيته، وسمع الشاه لأول مرة الهتافات المعادية له أمام البيت الأبيض.. وعندما وقف كارتر ورزالين والشاه وفرح ديبا كانت الدموع في عيون الجموع. لا من التأثر فقط، ولكن من القنابل المسيلة للدموع يطلقها رجال الأمن على المتظاهرين الذين وصفهم الشاه بأنهم شرذمة من الشيوعيين وأتباع الخميني!

- ٦ -

ودخل كارتر انتخابات الإعادة وفشل في سنة ١٩٨٠. وكان لا بد أن يعود إلى قريته بلينز. وقبل عودته اشترى له أعضاء

مجلس الوزراء: منشاراً وشاكوشاً وكماشةً وعلبة مسامير. فكارتر يحب النجارة وله ورشة يعمل فيها ساعات طويلة..

وقد نسيت روزالين كيف كانت الحياة قبل ذلك في قرية بلينز، التي تحدد لها أن تعيش فيها حتى الموت. لقد انحسرت الأضواء الباهرة والجماهير والحفلات واللقاءات..

كل ذلك أصبح في بيت صغير في قرية صغيرة، وكلما فكرت في هذه النهاية والبداية معاً، داخلها الحزن والأسى. ولكن بسرعة اكتشفت أنها قد نسيت هذه الحياة الهادئة البسيطة، واكتشفت فصول السنة ومواعيد الزهور والثمار. وكانت قد نسيت كل ذلك.

وخشيت من الملل ولكنها لم تعرف الضيق، فقد جاءها كثير من الضيوف من كل أمريكا ومن العالم.. جاءها السادات مرة، وجيهان السادات ثلاث مرات، وجاء بيجين وزوجته، والرئيس الفرنسي ديستان، ورئيس وزراء اليابان فوكودا، والوزراء والساسة وغيرهم..

وماتت ليليان أم كارتر، وماتت روث أختها.. وابنتهما إيمي (١٦ سنة) سافرت بعيداً لتدرس في الجامعة.. وابنهما جاك وزوجته جودي يعملان في شيكاغو في إحدى الغرف التجارية.. وابنهما تشيب طلق زوجته كارون، وتزوج أخرى تعمل محاسبة في نفس الشركة التي يعمل بها، وابنهما

جيف وزوجته أنيت يعملان معاً في واشنطن في مؤسسة للحاسبات الألكترونية، وأحفادهم: جاسون (٨ سنوات) وسارة (٥ سنوات) وجيمس (٧ سنوات) يزورون جيمي وروزالين وحدهما. وسوف يولد الحفيد الرابع..

أما بيلي أخو الرئيس فقد شفي نهائياً من إدمان الخمور، ويعيش بعيداً سعيداً مع زوجته.

وعندما فرغت روزالين من مذكراتها راحت تفكر فيما سوف تفعله بعد ذلك. فهي تعمل في «مركز كارتر للعلاقات الإنسانية». ثم عاودت نشاطها لمساعدة المتخلفين عقلياً، وقد انشغلت بهذه القضية طوال عمرها.

وكذلك مساعدة المسنات والفقيرات.

تقول روزالين: لو عاد جيمي إلى ترشيح نفسه فسوف أسارع بالوقوف إلى جواره. فلا شيء أروع من الحملات الانتخابية والأجتماعات والتخطيط..

فهي تريد أن يعرف الشعب الأمريكي أنه أخطأ عندما خذل كارتر، لقد عمل مخلصاً وقدم لبلاده أحسن ما يمكن تقديمه من حلول لمشاكله.

وفي آخر المذكرات تقول: إن فشل جيمي كارتر في

الانتخابات هو أقوى سبب يدعوني إلى العودة إلى البيت الأبيض . . فأنا لا أحب الفشل ! .

إنها مشت وراءه من أجل أن يكونا في المقدمة . .

بين هتلر وقيام دولة إسرائيل :
الصهيونازية . . !

في سنة ١٩٧٨ قامت مظاهرة للشباب الأمريكي في مدينة شيكاغو تطالب بعودة النازية. ومرت هذه المظاهرة بحي اليهود في المدينة. وأمام هذه المظاهرة وضدها اختلفت آراء زعماء اليهود الأمريكان . . جماعة قالوا : اقفلوا النوافذ والأبواب ولا تتعرضوا لها . . وجماعة قالوا بل افتحوا النوافذ واحترموا وجهة نظر الآخرين. فمن حق أي إنسان أن يعلن رأيه في أي وقت وفي أي مكان وبأية طريقة.

فقط أدرك الكاتب الأمريكي الشاب أدوين بلاك أنه أمام لغز من ألغاز العلاقة الغريبة بين الصهيونية والنازية. ولم يفهم معنى الموقف العاقل الهادىء أمام النازية الجديدة في أمريكا؟. وعاد إلى الكتب يقرأ، فوجد أن هتلر عندما وصل إلى السلطة في ألمانيا، لم يهاجم اليهود في أي مكان . . بل إن جميع المنظمات اليهودية سكتت تماماً. كيف؟.

وعندما أطلع والديه على هذا اللغز. وعلى أنه سوف يبحث

عن الحقيقة وراء ذلك، هدده أبوه بالطرد من البيت، وهددته أمه بأنها لن تراه، ولن تعترف به مدى الحياة. فأبواه قد هربا من معسكرات الاعتقال في بولندا. . أبـوه عندمـا اختفـى في إحدى الغابات تعثرت قدمه في قدم أخرى تحت الجليد فكانت زوجته. وعاش الزوجان سنتين تحت الاشجار. ولما خرجـا من الغابات كانا يعتقدان أن اليهود قد قضي عليهم تمامـاً. . وأنه لم يعد في الدنيا إلا هذان الاثنان. . وتساءلت إن كانت هناك فائدة. . من أن يظل أي إنسان يهودياً. وقررا أن يظلا كذلك وألا ينسيا ما أصابهما.

ولكن المـؤلف بلاك اعتـزم أن يمضـي في البحـث خمس سنوات بين القـارات الثـلاث، وأن يسـتعين بعشـرات من المترجمين حتى كان هذا الكتاب الذي رفضتـه كثير من دور النشر خوفاً من المنظمات اليهودية.

واليهـود الألمـان يعيشـون في ألمـانيا من القـرن الرابـع الميلادي. وهم يلقون موجات من العذاب والهوان. ولـولا أن هذه الكراهية لهم قد استقرت واستمرت ما كانت الفلسفات النازية المعادية لهم، وما كانت معسكرات الاعتقال وأفـران الغاز في يوخنفالد وداخاو واوشفتس وتربلنكا. واليهود أكثـر الناس حساسية للتحركات الاجتماعية حولهم. وأكثرهم تنبؤاً بتقلبات السياسة. فلما ظهرت النازية كانوا أشد خوفاً. ولما

ارتفع هتلر إلى السلطة كانوا يتوقعون ذلك . ويخافون أيضاً. بعضهم فكر بسرعة فهرب من ألمانيا حافياً عارياً. وبعضهم قرر أن يبقى في ألمانيا لأنه عاجز عن ترك البلاد، ولأن لديه أملاً في أن يسقط هتلر.

وحدث كل الذي توقعه اليهود في أبريل ١٩٣٣ عندما أعلن هتلر عداءه الصريح لليهود الذين هم مصدر كل مصائب الدنيا في ألمانيا وغيرها. وبدأ اضطهاد اليهود وطردهم وإحراق معابدهم وتحطيم نوافذ بيوتهم ووضع العلامات الصفراء على ملابسهم، تمييزاً لهم عن غيرهم، واستعداء للناس عليهم.

وأعلنت المنظمات اليهودية في العالم كله مقاطعة البضاعة الألمانية. وسارت المظاهرات في أمريكا وعلقت اللافتات في كل العواصم الأمريكية والآسيوية تطالب بمقاطعة السلع الألمانية.

وبدأ الألمان يشعرون بأن هذه المظاهرات مدمرة. وبدأوا يكتبون على صناعاتهم: إنها صنعت في سويسرا أو في النمسا أو في بعض الولايات الألمانية. ولم يعد أحد يقرأ عبارة صنعت في ألمانيا.

وحاول ساحر الاقتصاد الألماني شاخت أن يدعم الاقتصاد الألماني بوسائل مالية وحيل اقتصادية. ولكن المقاطعة للسلع الألمانية كانت نتائجها خطيرة. ومن المعروف أن أحد

أسباب قبول الشعب الألماني للنازية أن هتلر وعدهم بحل مشكلة البطالةفهناك عشرة ملايين ألماني بلا عمل .

وقد جرب اليهود في العالم ألواناً وأشكالاً مختلفة من مقاطعة اعدائهم لهم في روسيا وفي بولندا . . ثم في الولايات المتحدة الأمريكية نفسها . ففي العشرينات اتخذ هنري فورد موقفاً معادياً لليهود . وأصدر مطبوعات تصف اليهود بأنهم عصابة عالمية للتآمر على خراب الدنيا . وجعلهم وراء كل الكوارث التي أصابت الانسانية في كل العصور . وإنهم هم الذين أسقطوا عدداً من رؤساء أمريكا . وكان لدى الأمريكان استعداد لقبول هذه النظريات وخاصة أن اليهود قد أفلحوا في الاستيلاء على مصادرهائلة للثروات والصناعات ووسائل الاعلام . وكان هتلر معجباً بهنري فورد . وأعلن أنه من هنري فورد قد استلهم العداء لليهود . ووصفه هتلر بأنه رئيس الحزب النازي في أمريكا . ثم أصدر هتلر قصة حياته في كتاب بعنوان «كفاحي» سنة ١٩٢٤ متأثراً بما قاله هنري فورد . . وبعد قيام النازية كانت مؤلفات فورد أكثر انتشاراً من «كفاحي» .

ووقفت المنظمات اليهودية تقاطع السيارة «فورد» وتعلق اللافتات في كل مكان وفي كل العواصم الأوروبية والآسيوية ضد فورد . . وقام اليهود بمظاهرة على شكل موكب من ٤٠٠

سيارة ليست من بينها واحدة فورد. . وعلقت اللافتات: فليشاركنا من كانت له سيارة أخرى. .

وبعد سنوات هبط إنتاج سيارات فورد، فقد امتنع الكثيرون عن شرائها. وأقبلوا على شراء الشيفروليه وغيرها من السيارات. وامتنعت البنوك اليهودية عن إعطاء القروض والتسهيلات لكل من يتعامل مع شركة وعملاء فورد في أي موقع. . ولم يجد هنري فورد بداً من أن يشحن كتبه في ثلاثة لوريات ويحرقها في احتفال أقرب إلى الاعتذار للجالية اليهودية في أمريكا!

وعندما كانت ألمانيا تحرق وتنهب وتحطم البيوت والمعابد اليهودية، كان مندوبون من المنظمات اليهودية يتعاونون مع الحكومة النازية على ترحيل ستين ألف يهودي ألماني إلى فلسطين. أما الثمن: فهو أن تكف المنظمات اليهودية عن الدعاية المضادة لهتلر وللسلع الألمانية. . بل أكثر من ذلك: استعداد هذه المنظمات لشراء كل ما تحتاج إليه ألمانيا من خضروات وفواكه الشرق الأوسط، والمواد الخام من أفريقيا. . وكان يتولى كل هذه العمليات بنك زلخا في بيروت.

أما المفاوضات مع الألمان فيقوم بها عدد قليل من أقطاب الصهيونية في سرية تامة بعيداً عن يهود ألمانيا ويهود العالم.

وظل النازيون يحرقون ويقتلون اليهود، بينما هؤلاء يفاوضونهم من برلين ومن القدس.

وفي أغسطس سنة ١٩٣٣ اكتمل الاتفاق على ترحيل عدد من اليهود الألمان إلى فلسطين. ووافق اليهود على أن يخرج هؤلاء اليهود «مطرودين» من ألمانيا.. أي وافقوا على خروجهم سراً وعلناً، ومحترمين ومحتقرين. المهم أن يخرجوا. وهؤلاء الألمان الذين ذهبوا إلى فلسطين هم الذين ساعدوا على قيام الدولة على أسس علمية في السياسة والاقتصاد والزراعة والصناعة ـ انهم هدية هتلر إلى إسرائيل!.

وفي لقاء بين ممثلي المنظمات الصهيونية وبين يهود ألمانيا، حضره أدولف ايخمان، ممثلاً للحكومة الألمانية ـ وهو الرجل الذي خطفوه من الأرجنتين وأعدموه في إسرائيل بعد ذلك اعترض الألمان اليهود على المقاطعة. واعترضوا على موقف المنظمات الصهيونية من هتلر والنازية.. ومضى الخروج من ألمانيا إلى فلسطين. فدخل فلسطين حوالي ٥٣ ألف يهودي أوروبي، من بينهم تسعة آلاف من ألمانيا وحدها.

وفي ذلك الوقت كان العرب واليهود يتحدثون عن دولتين في فلسطين.. ثم بدأ الحديث عن دولة يهودية.. ثم عن دولة

يهودية مستقلة. واندهش هتلر لتطور الفكر العالمي لصالح اليهود!

وكان معروفاً أن ايخمان كان ضد هجرة اليهود أو ترحيلهم إلى فلسطين، فتكون لهم أغلبية أو تكون لهم دولة. ولم يخف على اليهود الألمان، أنه هو وهتلر إنما يهدفان إلى بعثرة اليهود في أمريكا اللاتينية.. ليتكاثر عليهم العالم ويقضي عليهم تماماً. وهكذا تنحل المسألة اليهودية. ويكون هتلر هو صاحب الفضل في التعجيل بها.

وما يقوله ايخمان قد كرره قبل ذلك الكاتب الصهيوني هرتسل: فهو يرى أن المسألة اليهودية إنما هي تولد حيث يوجد اليهود. فاليهود يخلقون العداء لهم والتعصب ضدهم. فهتلر ـ على ذلك ـ لم يخلق العداء لليهود، إنما خلقه اليهود. ولذلك فلا حل للمسألة اليهودية إلا بأن يكونوا أغلبية في أي مكان. في إسرائيل أو في نيويورك، أو غيرهما..

وفي ذلك الوقت أصرت بريطانيا على وقف الهجرة إلى فلسطين..

وفي سنة ١٩٣٦ اجتاحت ألمانيا دولتي النمسا وتشيكوسلوفاكيا. ووقف العالم حائراً واليهود أيضاً. ولم تجرؤ دولة واحدة على أن تتخذ موقفاً عدائياً من هتلر. فالكل في فزع، بل إن دولاً أوروبية كثيرة أيدت هتلر وعقدت معه

معاهدات الصلح ومواثيق حسن الجوار والسلام . .

وعندما زحفت القوات الألمانية إلى بولندا ، كانت هذه هي بداية الحرب العالمية الثانية . .

ونقل هتلر ما لديه من اليهود إلى معسكرات الاعتقال . فلم يدفع يهود العالم أموالاً أكثر لينقلوا كل اليهود إلى أي مكان آخر . فالمنظمات اليهودية قد اختلفت فيما بينها .

وعلى الرغم من أن اليهود لجأوا إلى وسائل وحيل في غاية التعقيد لدفع ملايين الدولارات إلى هتلر ، فإن حاجته كانت أكثر ، وسرعة الأحداث كانت أسبق ، وقراره بالحرب العالمية الثانية قد غطى كل شيء . ولم يعد في الإمكان الإتصال بهتلر . . إنما كانت مخابرات اليهود في فلسطين على اتصال بالجستابو الألماني ، وعن طريق عملاء اليهود في الجستابو ، أمكن تهريب اليهود إلى تركيا ومنها إلى فلسطين براً وبحراً وسيراً على الأقدام . .

وقد حاولت المنظمات اليهودية أن تجري حواراً مع العرب ، بعد أسبوع واحد من وصول هتلر إلى السلطة فأرسلت عيونها وعقولها تتحسس الرأي العام العربي . وأسفرت هذه الاستطلاعات عن غداء أقيم بفندق الملك داود حضره عرب ويهود . وقد أثارات هذه المأدبة الرأي العام العربي . وهاجم العرب هؤلاء المعتدلين الذين ارتضوا

الجلوس مع اليهود لتناول العيش والملح.

ولم يكن من السهل أن يجد اليهود رأياً عربياً عاماً معهم. بل كان الرأي العام العربي والمسيحي مع هتلر ضد اليهود وضد الأنجليز والفرنسيين أيضاً.

ولم تتوقف عمليات التهريب والترحيل إلى فلسطين..

وسارعت دول أوربا الشرقية في إحراق اليهود وطردهم، حتى لا يؤدي السكوت عن ذلك إلى اغضاب هتلر وقواته الزاحفة وهكذا تعاون العالم كله ضد اليهود كراهية لهم وخوفاً من هتلر.

وعندما ذهب وزير المالية شاخت إلى أمريكا، اندهش لغضب الرئيس الأمريكي من موقف ألمانيا من اليهود، وتضايق الرئيس الأمريكي لأن شاخت قد أصدر عملات ألمانية خاصة ليستدرج كل العملات الصعبة من خارج ألمانيا، لكي يتحتم على الجميع شراء السلع الألمانية. فاعتذر شاخت بأنه لم يتصور هذه الآثار البعيدة لها. ولم يكن شاخت صادقاً. وقد أدت المقاطعة العالمية للسلع الألمانية إلى مزيد من المشاكل الاقتصادية. ولكن الحرب قد اخترعت حلاً لثلاثة أرباع مشكلة البطالة الألمانية. فتسعة ملايين من العشرة المتعطلين أصبحوا يحاربون في كل الجبهات!

فهل أدت مقاطعة السلع الألمانية حقاً إلى النتيجة التي أرادها اليهود؟

من المؤكد أنها أصابت الاقتصاد الألماني، والفلسفة النازية في مكان شديد الحساسية، وأنها أدت إلى توقف بعض المصانع وتخوف الشعب الألماني من نتائج ذلك.. ولم يؤد قتل الكثيرين من اليهود في ألمانيا، إلى إنقاذ الموقف.

وسلاح المقاطعة قد لجأت إليه أمريكا نفسها فهي منعت التعامل مع شيلي، وهي منعت تصدير القمح إلى روسيا، وقاطعت الدورة الأولمبية وقاطعت البترول الليبي، وجمدت الأرصدة الإيرانية..

ولكن المقاطعة اليهودية لم تحقق كل آمال اليهود من ذلك. فاليهود لم يتفقوا فيما بينهم. فبعضهم كان من رأيه أن سقوط هتلر قد يؤدي إلى أن يعقبه من هو أكثر تشدداً.. وقد يسقط هذا، وتتعاقب الانقلابات في ألمانيا.. وفي كل مرة يزداد العداء لليهود في ألمانيا وفي العالم المسيحي.. وتصبح ألمانيا هي «فاتيكان العداء للسامية»..

ولكن موقف اليهود يشابه موقف الألمان أيضاً. فالشعوب الأوربية تحقد على الشعب الألماني. وتغار من تفوقه. ولذلك فهي حريصة على إذلاله. ولولا معاهدة فرساي المهينة بعد الحرب العالمية الأولى، ما كانت النازية والحرب العالمية

الثانية . . ولولا اغتيال الأمير النمساوي في يوغوسلافيا، ما كانت الحرب العالمية الأولى . .

ولما كانت الحروب مع ألمانيا من مئات السنين . واليهود كذلك، فهناك الكراهية لهم . . وهذه الكراهية تشبه الغازات تحتبس في صدر الأرض ثم تنفجر براكين نازية وفاشية وشيوعية ومسيحية وإسلامية . .

ولذلك أصبح الشعور بالخوف وسوء الظن من أهم صفات الألمان واليهود . وربما كان ذلك سبباً في عطف الألمان اليهود على النازية التي هي الوطنية الألمانية، كما أن الصهيونية هي الوطنية اليهودية؟! .

ولذلك فعندما سافر المؤلف إلى إسرائيل ليقضي شهر العسل في إحدى مستوطناتها لم يعد يندهش لحرص اليهود الألمان على أن يتكلموا الألمانية ويحيطوا أنفسهم بكل التقاليد الألمانية وأن يركبوا السيارات المرسيدس، ويستمعوا إلى موسيقى فاجنر المعادي لليهود، وأن يشتروا الحديد من مصانع كروب التي كانت مصنع الحرب النازية، وأن يحتفظوا في بيوتهم بأجهزة تسجيل جروندنج وأن تكون تليفوناتهم من سيمنس . . أليس غريباً أن تكون أكبر أسرة يهودية مالية في العالم هي روتشيلد التي نشأت في مدينة فرانكفورت الألمانية . . وأن يكون الزعيم الصهيوني هرتسل ألمانياً وأن

يكون العبقري أينشتين أيضاً.

ويتساءل المؤلف بعد كل ذلك إن كان من مصلحة إسرائيل التي أقامها العلماء والخبراء والعمال الألمان، أن تقاطع كل ما هو ألماني؟. وكان الجواب: بل من مصلحتها أن تكون على علاقة طيبة. فهذا يساعدها اقتصادياً وسياسياً.

وبعد الحرب، لولا التعويضات الألمانية الهائلة التي دفعها المستشار أدناور لإسرائيل، ما قامت على قدميها رغم كل العداء العربي الذي يحيط بها من كل الجهات.

الكتاب الذي صدر منذ أربعة أيام في نيويورك إسمه «اتفاقية الترحيل - قصة تنشر لأول مرة الميثاق السري بين الرايخ الثالث وفلسطين اليهودية». موضوع الكتاب أنه مهما كانت العداوة بين شعبين، فإنه يمكن أن يفكر أناس عقلاء بأعصاب باردة حديدية في مخرج من هذا المأزق. هذا المخرج من الممكن أن نسميه «الصهيونازية» أي الاتفاق السري بين الصهيونية والنازية المعادية لها. ويكون أساس الاتفاق هو المصلحة.. السلع.. العمال.. المصانع.. الدولار.. المارك.. لا الرحمة ولا العطف. ولا المباديء. الإنسانية. فالمعدة لا أذن لها ولا لسان ولا دين. والشعوب كالأفاعي تزحف على معداتها..

ولا يوجد مذهب سياسي أو ديني ترفضه كله أو تقبله كله..

بل إن أكثر المذاهب عداء وتناقضاً في استطاعتنا أن نجد بينها نقطاً للإلتقاء.

والبراعة السياسية هي أن نعرف أين ومتى وكيف ـ لصالح الشعوب. وهذا الكتاب نموذج لذلك.

أمام الذهب والجنس :
الناس شموع تذوب !

ليس أخطر من امرأة ولدت في الوحل، وقررت أن تعاقب الناس جميعاً على ذلك، واحدة من هؤلاء النساء اسمها ثيودورا، عاشت وماتت قبل ولادة ايفا وايزابيلا بيرون زوجتي الرئيس الارجنتيني، بأربعة عشر قرناً . .

كان أبوها يعمل في السيرك في مدينة القسطنطينية، يطعم الخيول ويروض الوحوش. ولا يحلو له النوم إلا تحت أقدامها، حتى داسته الأقدام ومات، وترك زوجة وثلاث بنات .

وعرفت الأم الطريق إلى السيرك. وعلمت بناتها الرقص، واحدة منهن كانت تساعد أختيها على ارتداء الملابس ثم تنطلق إلى الساحة الكبرى تجمع قطع الملابس الصغيرة التي تناثرت وراء أختيها. وبعد أن يضحك الناس ويصفقوا للراقصات تعود الأم إلى البيت تشكو من قلة الطعام وقلة الشراب وندرة القلوب الرحيمة بين الناس .

وأصبح معروفاً أن ثيودورا ستكون راقصة.

وفي الثانية عشرة من عمرها رقصت.. وأصبحت أشهر راقصة في السادسة عشرة. وكانت أجرأ الراقصات أيضاً.. تتعرى من الأمام ومن الخلف والناس يلقون عليها بملابسهم وهداياهم ثم اهتدت إلى طريقة فريدة في الرقص.. فكانت تنزع ملابسها تماماً.. ثم تنام على الأرض وتجيء أخت لها وتغطي جسمها بحبات القمح.. وتجيء الأخرى تطلق عليها الإوز يجمع حبات القمح بمنقاره والناس في حالة من الجنون.. الأثيودورا نفسها، فكانت عيناها تفتشان بين المتفرجين عن رجلٍ غني!

وفي يوم حبستها أمها وهي تقول لها:

ـ سوف تقضين على حياتك بيدك إنك لا تشبعين من الفلوس.

ـ وأنت أي شيء يشبعك؟

ـ يجب أن يكون عندك قلب.

نحن بلا قلوب..

ـ لا تتركي رجلاً من أجل رجلٍ أغنى منه..

ـ ولأي شيء أتركه؟

ـ لا امتنان لأحد!

ـ لا أحد يمتن لنا . . إننا كلاب . . إننا قطع من اللحم يمضغها الناس . . ثم يبصقونها بعد ذلك . . أنت وأنا ونحن جميعاً بصقات على الأرض . . إن شكلك غريب جداً وأنت تتحدثين عن الفضيلة!

وهربت ثيودورا مع حاكم مدينة بنغازي . إنه رجلٌ غني . وقبل أن تسافر معه سألته :

ـ بأي معنى أذهب معك . . كزوجة؟

ـ طبعاً لا

ـ إذن؟

ـ كعشيقة

ـ أوافق . .

وكانت الحياة في ليبيا مملة وكان يحبسها في البيت ليعود إليها في الليل ترقص له ولأصدقائه من المخمورين . . واستطاعت ثيودورا أن تملأ الفراغ بعدد أخر من الشبان . . واكتشف الرجل خيانتها له . فطردها واتجهت إلى الاسكندرية . وقبل أن تسافر إلى الاسكندرية كانت قد وضعت طفلها الأول والأخير وهي في الخامسة عشرة من عمرها . وتركته . . وعند بوابات الاسكندرية سألها الحراس عن مهنتها : فوقفت وعرت صدرها وهزت وسطها . . ولكن

الحارس لم يفهم أو أراد أن يستوضحها أكثر. فخلعت ملابسها عارية تماماً وهي تقول: أفعل ذلك عند الطلب. .

وتركها تدخل الاسكندرية. . ولكنها قررت أن تعود إلى السيرك. . ووصلت إلى مدينة القسطنطينية وذهبت إلى إحدى غانيات الليل، وسألتها عن أخبار الدنيا. وعرفت كل شيء. ولم تضيّع وقتاً. . سكنت في بيت قريب من القصر الامبراطوري. واتجهت إلى كل أصدقاء الامبراطور جستنيان، أحكم وأعظم أباطرة الرومان. وعرفت منهم أدق أسرار الامبراطور. وكانت تسأل عن أشياء كثيرة، حتى ظن الناس أنها جاسوسة. وقالت: إنني أعمل لحساب امرأة سوف تكون تاجاً من الوحل على رأس الجميع. . إنني أعمل لحسابي!

ولم يفهم الناس منها شيئاً. وقالوا: غانية مغرورة. . أو أنها ملتقى المرارة والحرارة!

* * *

قالت لها احدى صديقاتها سوف أعطيك خطاباً للامبراطور، وأخذت الخطاب. واتجهت إلى قصر الامبراطور وقفزت من النافذة. واندهش الامبراطور جستنيان: من أنت.

ـ واحدة تبحث عن صداقتك

ـ وكيف دخلت هنا؟

ـ من النافذة!

ـ ولكنه دخول غير عادي . .

ـ لأنني شخصية غير عادية . .

وأمسك الخطاب وقرأه وقال:

ـ تريدين العودة إلى السيرك؟

ـ نعم . .

ـ ولكنك لن تعودي . . اجلسي . . وجلست . حتى اختارها زوجة له . وتم تتويجها امبراطورة . وثار الشعب يطلب سقوط الغانية . .

وعرفت هي من مكانها على العرش وبالقرب من أعقل الملوك ، وأكبر الخزائن ، وأقوى الجيوش كيف تسكت هذه الخناجر الصارخة وفي يوم سألها الامبراطور: كيف خطر لك أن تكوني امبراطورة؟

ـ لم يخطر على بالي هذا . . وإنما قررت أن أكون في أعلى مكان: قديسة . . امبراطورة . . معبودة . وكنت أنت أول الذين اتجهت إليهم . .

ـ ولو كان الذي اتجهت إليه أحد رجال الدين؟

ـ كنت أجعل من نفسي بابا للكنيسة الرومانية . .

ـ ولو كان سفاحاً . . .

ـ لكنت مصاصة لدم البشر جميعاً

ـ إذن أنا لست إلا واحداً في طريق .

ـ ولكن أحسن من في الطريق . . وفي أي طريق . .

ونهض الامبراطور يقبّل يديها . .

وفي ليلة زفاف الامبراطور وكان ذلك في عيد الفصح طلبت ثيودورا أن تجيء كل المغنيات والراقصات ويقبّلن قدميها ـ كما يفعل الناس مع الملكات ثم طلبت إليهن جميعاً أن يغنين ويرقصن أمام بابها حتى الصباح . . وجاءت الراقصات اللاتي احتقرنها وضربنها وألقين بالطين على رأسها يغنين لها ويطلبن من الله : السعادة للعروسين من أجل الشعب . . وبالرفاء والبنين من أجل البشرية !

* * *

ولم تنس ثيودورا من أين جاءت ، ولا الناس يريدون أن ينسوا ذلك . وقد نظمت ثيودورا جيشاً من الجواسيس من الرجال والنساء ينقلن إليها ماذا يقول الناس عنها . وراحت تقطع الألسنة وتضع في السجون وتحكم بالإعدام على كل من يسخر منها وكانوا يقولون : غانية . . ثم يقولون : ولكنها تعطف

على الفقراء . . كانوا يقولون : فاجرة داعرة . . ثم يعودون ليقولوا : ولكنها أول من طالب بتحرير المرأة من ذل الرجل . . وأول من عمل على تقييد حرية الرجال في أن يبيعوا المرأة ويشتروها . . كانوا يقولون : بخيلة . . ولكنها عرفت إذلال الفلوس للناس . .

حاولت ثيودورا أن تفتح باب التوبة أمام الغانيات فخصصت لهن قصراً ووضعت في القصر مئات الغانيات يعشن في سلام وطهارة. ولكن الغانيات كرهن الفضيلة المملة وهربن من القصر . . وكن يلقين بأنفسهن من النوافذ في البحر . .

وفي إحدى الليالي التقت ثيودورا بالغانيات، وارتدت لهن ملابس الراقصات وجلست تقول : أريد أن أتفاهم معكن . . ما الذي يضايقكن من هذه الحياة التي ليس فيها رجل يدوس بأقدامه قلوب النساء .

وتعالت الأصوات تقول : ولكن الرجل أفضل من ألف امرأة . . وذل الرجل أفضل من إذلال امرأة لامرأة أخرى .

وغطت ثيودورا نفسها وانسحبت وفتحت الأبواب على أخرها . . وخرجت في هدوء لتمشي وراءها مئات الغانيات إلى الشارع إلى الحانات إلى السفن . . ولم يعد في «بيت الندم»

تائبة واحدة. . أو واحدة تريد أن تندم على ما فعلت أو ما سوف تفعل!

وفي يوم كانت ثيودورا تشكو من آلام في صدرها ـ عندها سرطان. وسمعت أصواتاً تهتف بسقوطها. وسألت. قالوا لها الشعب ساخط يريد الطعام. ولذلك سرقوا التماثيل الذهبية ليشتروا بها خبزاً. وطلبت إليهم أن يعينوها على ارتداء ملابسها وأعانوها. وفتحوا لها النافذة. . وخرجت للناس. والتفوا حولها معجبين بشجاعتها. فقالت: ماذا تريدون؟

ـ الخبز يا ملكة؟

ـ سيكون لكم خبز ومرح. . سأفتح لكم مخازن الغلال وأبواب السيرك لكل الناس مجاناً.

وراح الناس يقولون: طبعاً سوف تفعل ذلك. إنها من الشعب. عرفت الجوع والحرمان. . تعيش الملكة. .

وفتحت للشعب أبواب المطاعم والحانات. . وفتحت أبواب السيرك. . وذهب الناس يحملون الطعام والنبيذ ليتفرجوا مجاناً على الخيول ومصارعة الوحوش وعلى الرقص والغناء. ذهب الامبراطور بملابس سوداء وكانت ملابس الامبراطورة بيضاء. . وقبل نهاية الاستعراض خرجت ثيودورا ومن ورائها زوجها، وتقدمت قوات تطلق السهام والنبال على

الشعب فقتلت في يوم واحد ثلاثين ألفاً . . وأصبحت هي التي تحكم . وكان الناس يقولون في أول أيام زواجهاإنها ليست إلا زوجة للامبراطور . .

ولكن بعد هذه المذبحة قالوا إن جستنيان نفسه ليس إلا زوجاً للامبراطورة!

وكان الناس يقولون أن ثيودورا ومعناها: هبة الله ليست ـ إلا ديمون ـ دورا ومعناها هبة الشيطان!

وكانت تقول: هذه حكمة عمري كله: أمام الذهب والجنس كل الناس شموع تذوب!!

لم تنس ثيودورا واحداً أو واحدة أهانتها أو سخرت منها . . ولم يغب عن بالها رجل واحد رآها عارية حافية . . أو طردها من بيته أو من أحضانه ـ كلهم ألقت بهم في السجن أو في كهوف الموت . وفي بعض الأحيان كانت تنهض من نومها صارخة: تذكرت فلاناً . . وتصدر أمرها ليأتوا به . فإذا جاءوا به طلبت إليه أن يقبّل الأرض تحت قدميها . . ثم تذكّره بما كان منه . وقبل أن يندم على أنه فعل ذلك يكون السيف أسبق إلى عنقه . . ثم تنام هانئة حتى الصباح . وتتلقى التهاني من كل الذين حولها لأنها صفت حساباً قديماً!

* * *

لم يبق أمام هذه المرأة الذكية جداً إلا أن تنتظر . فالمرض

قد فتك بها. وأدركت، كما يفعل كل الذين اقترب منهم الموت، أن نهايتها قريبة. فطلبت من جنودها أربعة آلاف.. وذهبت إلى إحدى العيون المعدنية.. ونزلت واستحمت.. ثم طلبت من وصيفاتها أن يأتين بماء الورد وأن يصبغن بالالوان أظافرها وقدميها.. وأن ينظفوها بكل زهور الغابة وأن يغنين لها ويطلبن من الله أن يجعل الماء تحتها نبيذاً شفاءً للشعب.. وأن يجعل الطيور حولها ملائكة من أجل السلام..

لقد قررت أن تكون عروساً جميلة تلقي بنفسها في أحضان الموت. وأشارت إلى جنودها تقول: إلى هنا تنتهي مهمة كل الذين حولي.. وتبدأ رحلتي وحدي.. وماتت!

حتى تخرج أصابعها
من تحت الماء !

«لهذا السبب تشتغل المرأة بالسحر . . وكان من تعاستها أن حكم عليها الرجل بالإعدام غرقاً أو حرقاً أو شنقاً . . وكان هذا الموقف أكبر دليل على المشكلة التي تعانيها المرأة، وعلى العنف الذي يتخذه الرجل في مواجهة المرأة» . . هذه العبارة للأديبة الأسترالية الأصل جرمين جرير في كتابها الجديد «الأنوثة العاجزة» .

ولكن ما هو هذا السبب الذي جعل المرأة تتجه إلى السحر؟ السبب هو أن المرأة تريد أن تتمرد على «الدور» الذي حدده لها الرجل . أن تثور على الإطار الذي بناه الرجل س الإسمنت المسلح من مئات السنين، حتى لا تخرج المرأة منه . . أو تخرج عليه . فالسحر هو محاولة من المرأة لكي تستعين بقوى أخرى ضد الرجل . وكان نجاح المرأة في ذلك دليلاً على أن الرجال ليسوا بهذه القوة . وكان أنتقام الرجل من المرأة دليلاً آخر على أن الرجل ليس واسع الأفق كما يدعي . . وليس مؤمناً بالحرية التي ينادي بها . .

أما جرمين جرير هذه فمثل كل الناس دخلت المدرسة. وكانت حريصة على ارضاء أمها. وليست مثل كل الناس هربت من المدرسة ومن قارة أستراليا إلى بريطانيا. ودخلت الجامعة وحصلت على الدكتوراة في أدب شكسبير. واشتغلت ممثلة في التليفزيون. ولم ترفع عينها عن الرجل، ولا أخفت ضيقها منه ولا تحفزها في الثورة عليه..

وهي تؤمن بأن المرأة لا بد لها من «الخروج» من وعن وعلى وضد القوالب التي وضعها الرجل. وترى أن الملابس التي ترتديها المرأة من عشرين عاماً دليل على ذلك. فهي ترتدي ملابس الرجال.. وهي تقصر شعرها مثلما كان يفعل الرجال. وإذا دخنت فهي مسرفة، وإذا شربت فهي مدمنة. وإذا تكلمت فهي صارخة. وإذا ثارت فهي مجرمة، وإذا أجرمت فهي مؤمنة. وتقول: وكانوا يعلموننا ونحن صغار أن البنت هي التي تطيل شعرها أما الرجل فهو قصير الشعر. ولم يعد ذلك مقنعاً لهذا الجيل من المتمردات على الرجل والرجولة..

وأكثر من ذلك: أن ثرثرة المرأة ليست طبعاً، ولا غريزة، وإنما هي موقف ضد الرجل.. فالرجل يرى أن الفتاة يجب أن تسد فمها. وأن تلتزم حدود الأنوثة والرقة في الكلام. أما إذا تكلمت وأطالت فهذه هي قلة الأدب وقلة العقل معاً. ولكن

الرجل هو الذي يقول ذلك . وهذا يكفيها اغراء في ألا تفعل ذلك . . فطال شعرها ولسانها وساعات كلامها بمناسبة ومن غير مناسبة ! .

ثم أن المرأة عندما تتجه باهتمامها إلى المرأة دون الرجل ، هو خروج عن المألوف في العلاقات الجنسية «السوية» أي العادية فهذا هو التمرد ! .

وأخيراً صدر فى أمريكا كتاب بعنوان «الطيران» لكاتبة عنيفة أسمها كيت ميليت . هذه الكاتبة وصفوها بأنها كارل ماركس المرأة . . أو ماوتسي تونج الثقافة الجنسية . . وهي في هذا الكتاب تتعرى وتتباهى بأنها تحب الجنسين معاً . . وأنه ليس أمامها غير الثورة على العقل المزعوم للرجل وأنها بهذا الكتاب قد فضحت نفسها وأحرقتها . . تماماً كما يفعل رهبان البوذية . . يحرقون أجسامهم تطهيراً لنفوسهم احتجاجاً على الظلم والاستبداد . .

ولكن يكذب من يقول أن هذا الأسلوب من الكاتبة كيت ميليت يعجب الرجال أو النساء . . فلا هي رجل ولا هي امرأة . . ولكنها تمرد على الاثنين ، وخسارة على الطرفين . . فكأنها قدمت حياتها مجاناً . . بلا مقابل من شيء جديد تضيفه إلى فلسفة السخط عند المرأة ، أو إلى الهمس بالسخرية عند الرجل !

وإذا كان الرجال يطلبون من المرأة أن تكذب في ملامحها فتضع الأبيض والأحمر والأزرق.. وتكذب في ملابسها، فتشد صدرها وتخنق خصرها وترفع أردافها وتدلي بشعرها على وجهها وتصبغ بالدم شفتيها وتضيء بالابتسام وجهها، فان أحداً لم يقل للرجل أن يفعل نفس الشيء في كتابة التاريخ. فالتاريخ هو أكذوبة الرجل المقررة على الرجل وعلى المرأة. وإذا كان تجميل المرأة فناً فان كتابة التاريخ فن في تجميل عيوب الانسانية!

وكان نصيب النساء الشهيرات في التاريخ عظيماً جداً. فما من امرأة ظهرت وبرزت إلا جعل لها الرجل ظلالاً كثيفة من العار. لماذا؟ لانه يندم أن أعطاها باليمين. ولذلك سارع فسحب بالشمال كل شيء.. وبقيت المرأة العظيمة نكتة عظيمة وفضيحة أعظم. ولم يكن ذلك هو نصيب النساء اللاتي اشتغلن بالسياسة فقط، بل القديسات أيضاً.

وكل دولة لا بد أن تضع يدك على قلبك وأنت تقرأ تاريخ كل امرأة ممتازة.

.. مثلاً: كليوباترة.. المؤرخون يؤكدون أنها سيدة ذكية، وأنها وطنية في المقام الأول، وأنها من أجل العرش فعلت المستحيلات. ولكن الفنانين الكبار يقولون: انها فعلت كل شيء من أجل العرش ومن أجل جسمها.. وأنها

بالصدفة كانت ملكة . . أما الحقيقة فهي غانية مدربة واسعة النشاط وأن نشاطها جعلها تتعثر في أبطال وملوك وأساطيل!

وثيودورا: زوجة الأمبراطور جوستنيان وهو رجل عظيم بكل الموازين. لا شك. أما هي فالشك حولها وتحتها، ولا يذكر المؤرخون إلا مباذلها. وكأن زوجها العظيم كان معصوماً من نفس خطاياها. ولكن المؤرخ الرجل حريص على أن يرى المرأة غانية سواء كانت تجلس على العرش أو أمامه أو تحته. وأن الظروف مهما تغيرت فالمرأة ذات طبيعة ثابتة وطبيعتها أنها بائعة هوى لكل من يطلبه!

ومسالينا: زوجة الامبراطور كلوديوس. ابنتها كانت زوجة الامبراطور نيرون سيدة قوية. . حكيمة. ولكن التاريخ يتفنن في الحديث عن ترددها على بيوت الدعارة وأنها كانت تعطي نفسها لكل شاب. وأن أحد أزواجها قد قتلها غيرة عليها. وهذا صحيح. . ولكن الذي لا يبرزه التاريخ أن هذه السيدة قد بلغها أن إحدى بناتها قد خطفتها امرأة أخرى وقررت أن تنتقم من أمها فجعلتها إحدى الغانيات. . وحارت الأم ما الذي تفعله وراحت تبحث بنفسها وكل يوم تبيت على وعد من رجل أو من امرأة أن تدلها على ابنتها وكانت هذه المأساة التي انتهت بموتها في أحط هذه البيوت!

وسميراميس: يقال أنها كانت امرأة شرسة. ويقال أنها

كانت مثل الكلاب تشمشم في أقدام الغرباء ـ كما يقول الشاعر الألماني هينه وكانت تركب حصاناً عاريا وعارية . . وكانت تلف وجهها فقط . . وكانوا يعرفونها من ملامح جسمها . . وكانت تلقي بنفسها عند أي شاب غريب . . هذه صورتها في التاريخ . . ولكن أحداً لا يذكر كم مريضاً عالجت . . كم غانية تابت على يديها . . كم فقيراً أطعمت وأشبعت وأسكنت وأسعدت؟ .

وفي التوراة في سفر «الملوك الأول» تقرأ عن قصة ملكة سبأ . . وفي القرآن في سورة «النمل» تجد صورة لملكة عادلة سمعت بالملك سليمان . . الذي دعاها للإيمان . وقال القرآن على لسانها : «قالت يا أيها الملأ افتوني في أمري ، ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون» . فهي ملكة لا تنفرد برأي أو بقرار . . ولكن التاريخ يحدثنا عن مباذل بلقيس ملكة سبأ وكيف أنها أقامت المواخير في أورشليم . . وقد صور فيلم ظهر من سنوات حياة بلقيس . وكان الفيلم بطولة بول برينر وجينا لولو بريجيدا واسمه «سبأ» . والفيلم يستند إلى كل وثائق التاريخ المعروفة . فيصور لنا المرأة تستحم في اللبن وتشعل النار في دماء الرجال وتستدفيء في هدوء . .

حتى زنوبيا ملكة تدمر التي أسمها «الزباء» . . كانت امرأة في غاية الشجاعة والعقل . . وأنها تقدمت بقواتها ترد الغزاة .

ولكن التاريخ يصور لنا مؤامراتها فقط من أجل الحكم والسيطرة وشذوذها الجنسي!

وروكسانا ابنة الملك داريوس. . أحبت الأسكندر الأكبر، وتزوجها وكانت حيواناً مصاصاً للدماء بعد وفاة الإسكندر. . ولكن أحداً لا يذكر أنها جففت الدماء والدموع. . ونشرت السلام بين خلفائه. ثم حررت بلادها من قوات الإغريق!

وعندما قررت المرأة، هرباً من قسوة الرجل وظلمه وأنانيته، أن تعيش حياة خاصة بها. وأن تقيم لنفسها مدينة من النساء أو جزيرة محرمة على الرجال، خلق الرجل حولها ما لا نهاية له من الخرافات. فقد كانت مجموعة من النساء عرفن باسم «الأمازونات». . وهذه الكلمة من معانيها آكلات اللحوم. . ومن معانيها: ذوات الثدي الواحد. فقد كانت فتاة الأمازون حريصة على أن تتقن إطلاق السهام. وكان ثدياها يعوقانها. . ولذلك قطعت كل واحدة ثدياً. . وكلهن في منتهى الشجاعة والقدرة على إحكام الرماية وكان من عادة نساء الأمازون أن ينتقلن مرة كل سنة إلى بلدة مجاورة فتحمل النساء. . فإذا كان المولود ولداً أعادوه إلى ابيه . . وإذا كانت بنتاً احتفظوا بها. .

ويقال إن إحدى ملكات الأمازون قد ذهبت إلى الأسكندر الأكبر وطلبت منه أن تحمل منه ليكون لها ولد عبقري أو أبنة

عبقرية. وأقامت معه ثلاثة عشر يوماً واختفت.. والمؤرخون يريدون ـ طبعاً أن يقولوا أن الأمازونات لم يستطعن الحياة وحدهن. وأن واحدة منهن لم تقو على مقاومة الإسكندر الأكبر.. بل من أجله هربت من بنات قومها، وخلعت كل فلسفة: المرأة وحدها تستطيع أن تعيش أكرم وأعز على نفسها من الحياة مع الرجل!

وعندما حاول الرجل أن يعطي للمرأة كل صفات الرجال من العقل والحكمة تحدث باسهاب عن الأمبراطورة إيجاريا زوجة الأمبراطور نوما. قال المؤرخون أن الأمبراطور كان إذا أراد أن يقنع ضيفه بشيء قال: ليس هذا رأيي وإنما هو رأي إيجاريا. فيسكت الناس!

فقد كانت حكيمة. ولكن المؤرخين يجتهدون جداً ليقولوا لنا: أن هذا اتفاق بين إيجاريا وزوجها.. وأن الإثنين يلعبان على الناس.. وأن هذه تمثيلية كاذبة.. فالرأي رأيه هو، ولكنه ينسبه إليها. وبذلك يبدو كأنه لا يستبد برأي ولا ينفرد بقرار.. وأنه أشرك معه النصف الآخر من المجتمع فقراره إجماعي.

.. حدث ذلك في كل العصور حتى إيفا وإيزابيلا زوجتا الرئيس بيرون.. كانتا راقصتين، ولكن لهما أعمالاً شعبية مجيدةـ بناها المؤرخون طبعاً!..

وفي الفنون الشعبية نجد المرأة «المعلمة» . . أي التي تتسلط على عدد من الرجال، ويدينون لها بالطاعة والولاء. هذه المعلمة قد ارتدت ملابس الرجال، واستعارت أساليبهم في الكلام والسلام والثواب والعقاب . . أما الرجال فهم طراز تافه من الناس . . ومعنى ذلك أن الرجل عندما أطال في عمر هذه المعلمة إنما أراد أن يقول أن المرأة إذا حاولت أن تقلد الرجال فأنها لا تفلح إلا مع عدد من أشباه الرجال . . فلا هي رجل ولا هؤلاء أيضاً . .

وبذلك تبقى «المعلمة» نكتة ولكنها ليست حقيقة . لانها لا تستطيع . والرجال لا يقبلون . نعود إلى اشتغال المرأة بالسحر فقد كانت المرأة الساحرة يحكمون عليها بأن تغرق في الماء . وكان ذلك أقسى وأقصى العقوبة لأن موتها يستغرق وقتاً أطول وتعذيباً أكثر . . وكانت تختفي تحت الماء . . ثم تطفو . ولكن أكثر الساحرات كن يرفعن أيديهن من تحت الماء ويحركنها . . وكانت هذه الحركة نوعاً من الإصرار الصامت على أن يقلن شيئاً . . آخر كلمات لهن . وهذه الكلمات الصامتة تؤكد أن المرأة حتى لو غرقت فلا بد أن تستنكر ما يفعله الرجال، أو ما يفرضه الرجال على النساء . . من حياة أو موت . . !

الذي نصفه بأنه
من وراء العقل

لا تشغل بالك بالاسم «العلمي» لهذه الظواهر العجيبة عند بعض الناس . . يمكنك أن تقول إنها حالات نفسية ليس لدينا تفسير واضح لها . . يمكنك أن تقول إنها صفات غريبة أو قدرات خفية . . وإنها لا تدخل في نطاق العلم أو العقل الإنساني وإن كان العلماء يحاولون رصدها ليعرفوا من أين وكيف ولماذا؟

مثلاً : ما معنى أنك تفكر في شخص وتفاجأ بأنه أمامك . . ما معنى أن تفكر في أن تطلبه بالتليفون وتمتديدك فإذا التليفون يرن ويكون هو المتحدث؟

* * *

حدث أن قام رجل من عز النوم يشكو من وجع مفاجىء في ضرسه ونظر إلى الساعة فكانت الثانية عشرة مساءً . . وحاول أن يجد شيئاً مسكناً . ووجد . ولكن الضرس ما زال يوجعه . . وفي الصباح ذهب إلى طبيب الأسنان وخلع الضرس . . وبعد يومين تلقى خطاباً من ابنه في بلد آخر يحكى له أنه قام عند

منتصف الليل يشكو من ضرسه . . وذهب إلى الطبيب وخلعه . . وكان الضرس مماثلاً لضرس أبيه!

ما تفسيرك لأن تقوم أم من فراشها منزعجة . وتشكو من وجع في بطنها . . وتتلقى خطاباً من ابنة لها تعيش في أمريكا وتروي لها أن عملية جراحية أجريت لها . وأنها بخير . وتكون ساعة إجراء العملية هي نفس الساعة التي توجعت فيها الأم . .

ما الذي تقوله إذا سمعت من إحدى الأمهات أنها كانت مستغرقة في نوم هادىء . وفجأة نهضت في فزع شديد ، وذهبت إلى غرفة أخرى لتجد أن طفلها يوشك أن يقع من السرير على الأرض؟

حدث كثيراً جداً أن ينهض أخ أو أب أو أم من جلسته . . ليقول : يا ساتر يا رب . . اللهم اجعله خيراً . . لقد رأيت فجأة أن فلاناً كادت تدوسه سيارة . .

ويندهش هو كيف رأى ذلك بوضوح؟ إنه لا يعرف بالضبط ما الذي رآه ولا كيف رآه . . وبعد ساعات يعرف أن فلاناً هذا كادت أن تدوَسه سيارة!

كيف يرى الإنسان ما لا تستطيع أن تراه عيناه . . كيف يسمع ما لا تسمعه أذناه . . أو كيف يرى بلا عينين . . وكيف يسمع بلا أذنين؟

إنني أقلب في هذا الكتاب الذي صدر في عشرين طبعة وباع أكثر من مليون نسخة وعنوانه (دراسات عجيبة نفسية في الاتحاد السوفياتي) من تأليف شيلا أوستراندر ولين شريدر. . أو يمكن أن يكون عنوانه دراسات خفية. . أو دراسات غير نفسية.

ويستمر الكتاب الذي يعرض لهذه التجارب العجيبة في الاتحاد السوفياتي وبلغاريا وتشيكوسلوفاكيا. .

ففي روسيا أمكن نقل رسائل بين رجلين أحدهما في موسكو والآخر في لنينغراد. . هذان الشخصان عندهما القدرة على قراءة أفكار الآخر. . أو على أن ينقل أحدهما للآخر أفكاره. . أتوا بواحد منهما. وأجلسوه في معمل وطلبوا إليه أن يقول لزميله على مدى مئات الأميال ما الذي يمسكه في يده الآن. وأعطوه مسماراً من الصلب. . وطلبوا إليه أن ينقل إلى زميله لون المسمار وطوله وعرضه ومادته.

فجلس الرجل يتخيل أن زميله جالس أمامه. وراح يركز النظر إليه. . وينقل إليه صفات المسمار. وبعد لحظات جاءت برقية من لنينغراد تقول إنه تلقى الرسالة: إنه مسمار طوله كذا ولونه كذا. . كيف؟

وقد أمكن أكثر من مرة أن ينقل إليه صورة أمامه. . فهو يركز عينيه على الصورة التي أمامه ثم يركز على زميله. .

وتنتقل إليه الصورة التي أمامه . . أي ينقل إليه المعنى أو خطوط الصورة فيقول إنه رأى صورة كذا وطولها كذا . . كيف؟

بالضبط ما الذي حدث عندما فوجىء ستالين وهو في مكتبه يقرأ بأن رجلاً غريباً عنه قد دخل مكتبه والحراس ينحنون له . من هذا؟ إنه شخص ما . . ولما سأله : كيف دخلت هنا؟ قال : أقنعت الحراس جميعاً بأنني وزير الداخلية؟

وسأله : كيف؟

قال : أوحيت لهم . . أوهمتهم . . أثرت عليهم

مع أنه لا يوجد أي شبه بين هذا الرجل وبين وزير الداخلية . . لا طولاً ولا عرضاً ولا ملامح . ولكنه استطاع أن يقنع مئات الحراس بأنه وزير الداخلية؟ ! كيف؟

* * *

وأجرى العلماء الروس تجارب مضنية على سيدة عندها قدرة غريبة على تحريك الأشياء بمجرد الاقتراب منها دون لمسها . فهي إذا وضعت يدها على ارتفاع متر من الشوك والسكاكين وأعواد الكبريت تحركت في الاتجاه الذي تريد . . ثم أنها كيف استطاعت أن تحرك عود الكبريت إلى علبة الكبريت ثم تدفعه من بعد فيشتعل . كيف؟

إن هذا يفسر لنا ماذا يحدث عندما يحسد إنسان واحداً آخر. ينظر إلى الكوب فينكسر. أو ينظر إلى الثوب فيحترق.

أو لعل العلماء إذا عرفوا ما الذي يحدث، أن يفسروا لنا ماذا يحدث إذا لعنك إنسان أن تصيبك اللعنة، أو إذا دعا لك بالخير أن يصيبك الخير! كيف؟

ثم أن هذه السيدة كانت تكسر البيضة عن بعد. ثم ترفع اصبعها فوق البيضة فيخرج البياض بعيداً عن صفار البيضة، أو العكس إذا أرادت؟ كيف؟

يقول العلماء السوفيت إنهم لاحظوا أن رواد الفضاء يكونون في حالة نفسية غريبة.. فهم يتفاهمون بغير كلام.. ويحذر بعضهم البعض دون كلام.. ولذلك كثيراً ما التقت أيديهم عند زرار واحد يحركونه دون أن يدور بينهم كلام.. ولكنهم قرأوا أفكار بعضهم البعض.. أو أحسوا بالخطر معاً فتحركوا يعالجون الموقف!

وقد ذهب العلماء الروس إلى أنهم استطاعوا أن (يدخلوا في الخط)، عندما ينقل رجل رسالة إلى رجل آخر بعيد.. ففي إحدى المرات كلفوا رجلاً بأن ينقل رسالة شفرية إلى رجل آخر. ثم أتوا برجل ثالث له نفس القدرة على نقل الرسائل وتلقيها.. وركز على أحد الرجلين فعرف بالضبط ما الذي نقله

إلى رجل آخر يبعد عنه مئات الأميال! كيف؟

* * *

ما الذي يحدث إذا جاء شخص وكتب بعيداً عنك سطراً على ورقة . . ثم وضع الورقة في جيبه . . ثم وقف إلى جوارك ورآك تتلفت حولك وتنظر وراءك فجأة، فضحك الرجل . ثم أخرج الورقة من جيبه لتجد مكتوباً عليها: آمرك أن تتلفت وراءك فجأة!

إنه قد أوحى إليك . . ضغط عليك . . تسلل إلى داخلك . . فإذا بك تفعل ما طلبه منك دون أن تدري!

كيف يقرأ رجل خطابات في جيبك أنت؟

حدث في موتمر دولي عقد في موسكو سنة ١٩٦٧ أن أتى العلماء الروس بفتاة . هذه الفتاة عندها قدرة على أن تتجسدها (أرواح) الموتى . . فتتقدم إليك وتقول لك أنا الفنان دافنشي . .

وتسألها عن أدق حياة دافنشي فإذا هي ترد عليك . .

أو أن تقول لها أنت: أنت الآن روح والدتي السيدة فلانة . .

وفجأة تقول لك الفتاة: أنا والدتك اسمي كذا . . وأعيش في كذا . . وعندي أوجاع في هذا المكان من جسمي .

وبعد لحظات تفيق هذه الفتاة دون أن تدري شيئاً عن الذي قالته أو فعلته. ولك أن تسأل كيف حدث ذلك؟ كيف كان هذا (الحضور) أو (الاستحضار) الروحي؟

أليس هذا قريباً مما يقوله الشعراء: نزل علينا الوحي.. وجاءنا شيطان الشعر.. أي أن نوعاً من التجسيد المؤقت قد حدث، وأن قوة أخرى قد استولت على أحلامهم أو خيالهم، فإذا هم يكتبون ما يملي عليهم؟

ما هذه القوة الخارقة التي عند إحدى الروسيات التي تجعلها تقرأ الصحف وراء ظهرها.. أو تقرأ الصحف بأصابعها بعيداً عن عينيها.. كيف تمر بأصابع قدمها على عناوين الصحف فتقول: هذا أحمر.. هذا أسود.. هذه صورة..

ثم كيف تستطيع أن تقرأ الصحف إذا وضعت تحت لوح من الزجاج.. ثم كيف تستطيع أن تفرز أوراق الكوتشينة التي وضعت في صندوق أسود في غرفة مظلمة؟

ألا يمكن أن تؤدي معرفة العلماء لهذه القدرات الغريبة إلى أن تجد حلاً للعميان.. أن تعاونهم على الرؤية دون عينين، وأن تعاون الصم على السماع دون أذنين.. إن العلماء يحاولون أن يدرسوا خصائص الجسم الإنساني والعقل الإنساني لعلهم أن يكتشفوا هذه الينابيع السحرية لهذه القدرات الفردية الخارقة! لا شيء بعيداً عن العقل الإنساني الذي يقف مندهشاً، ثم

تتجاوز الدهشة إلى الفهم وإلى وضع القواعد من أجل علم متكامل لخصائص الإنسان والنفس البشرية . .

وأعجب ما شاهده علماء الغرب عندما ذهبوا إلى موسكو في الستينات : رجل ابتكر نوعاً من الكاميرات للتصوير قادرة على تصوير الجسم الإنساني فإذا بهم يجدون هالات من النور والنار حول جسم الإنسان . . وحول الحيوانات وحول النباتات . . بل أن هذه الكاميرات قد صورت رجلاً مقطوع الذراع ، بل صورت الذراع المقطوعة أيضاً .

والإنسان الذي قطعت ذراعه أو ساقه يشعر بها ، كأنها ما تزال في مكانها . .

بل أن هذه الكاميرا التقطت صورة تذكارية لعائلة . وكانت المفاجأة : لقد ظهر في الصور بعض أفرادها الذين ماتوا ! ! أعجب من ذلك أن في روسيا رجلاً تطلب منه أن يتخيل برج إيفل في باريس . . فيقول لك : الآن أتخيله .

وتلتقط صورة لهذا الرجل . وإذا بك ترى برج إيفل مرسوماً في كل عين من عينيه؟

والذي يجري بين الناس يحدث بين الحيوانات أيضاً . لقد أتى الروس بأرنبة . ووضعوها في أحد المعامل . ووضعوا صغارها في غواصة . وبعدت الغواصة عن المعمل مئات الأميال ، ثم نزلت إلى مئات الأمتار تحت الماء . . ووضعوا

علـى رأس الأم ورأس صغارهـا أجهـزة تنقــل احساســات الجميع . . وفي كل مرة يخزون أحد صغارها بالإبرة فإن الأم تنتفض . . وفي إحدى المرات ذبحوا صغارهـا الواحـد بعـد الآخر فكانت الأم تصاب بتشنجات عصبية وتتلوى وتكاد تموت!

ثم هناك هؤلاء البدو الذين يمسكون عصا يدقـون بهـا الأرض ويقولون . هنا ماء حلو . . أو هنا ماء ملح . . أو هنا بترول . . أو هنا فحم . .

فـي جمهـورية أزبكستـان عدد كبير من الـذين يمسـكون العصا . . وفي الصحراء الغربية وفي السعودية أناس عندهـم هذه القدرة على معرفة ما يجري تحت الأرض دون أن يروا من ذلك شيئاً!

* * *

إن هذا الكتاب متعة للقارىء وهو يدق أبواب المجهـول من الجسم الإنساني . . ويتسلل إلى مصادر القدرات الخفية للعقل . . فلا شيء يرفضه العقل . وإنما العقل يجب أن يقبل كل شيء ويبحثه ، لعله أن يهتـدي إلـى شيء جديد. فالـذي نعرفه عن الإنسان وجسمه وعقله قليل . . ونحن قد اعتدنا على نوع واحـد من المعرفـة : الأشياء الملموسـة نعيشهـا ونزنهـا ونضعها في النور والنار وفي المجالات المغناطيسية ثم نرقب ونحسـب ونسجـل بعـد ذلك ملاحظاتنـا . . ولـكن هنـاك

حالات. . انفعالات. . تفاعلات. . نشاطاً لا يمكن حسابه. . ولكنه يحدث. وحدوثه غريب. ويجب ألا يبقى غريباً. ولذلك يحاول علماء كبار أن يفهموا. . ما هذه النفس؟ ما هذه الروح؟ ما هذا التجسد؟ما هذه الرؤية عن بعد، والسماع عن بعد، وتحريك الأشياء عن بعد. . وتنويم الناس. . وتجسدهم لأشخاص ماتوا. . أو أرواح غابت؟

إن العلماء الروس يؤكدون أن هناك (شيئاً آخر) غير الجسم الإنساني. .

إن هناك (جسماً لطيفاً) أو (جسماً ناعماً) في داخل الجسم. . فإذا فني الجسم بقى هذا الآخر. . هل هي: الطاقة الحيوية. هل هي الطاقة التي تبقى ولا تتبدد. . هل هي (الروح). . أن هناك شيئاً ما من الأشياء. . ومن الإنسان والحيوانات والنباتات. .

فالإنسان إذا نظرنا إليه نجده كالجزر أو كالأشجار. . منفصل بعضه عن بعض. . ولكن الجزر التي تبدو على سطح الماء منفصلة، فإنها في القاع مترابطة. . والأشجار لها فروع منفصلة ولكن جذورها متشابكة. . ولا يمكن أن نفصل بين الناس. . ولا يمكن أن نفصل بين الليل والنهار، أو بين البر والبحر أو بين البحر والهواء ولا بين الأرض والكواكب الأخرى. . والعقل الانساني لايستبعد أن يكون لهذه

الكواكب أو النجوم أثرها على السلوك الإنساني. . ولا ينفي العلماء الروس أن هناك قوة كبرى تحتوي العالم وتنظمه . . وليس الآن، هو الوقت المناسب لاختيار اسم لهذه القوة، أو هذه القوى أو هذه الظواهر، إنها عجيبة غريبة إلى أن يجد العلماء اسماً آخر ولكنها حقيقة. . ولا ينقصها إلا التفسير الواضح، لكي تكون علمية أو منطقية أو في نطاق العقل!

كتاب يدّعي قراءته
كل الناس!

هناك كتب مثل الخرائط تهديك إلى غيرها.

وهناك كتب تحتاج إلى خرائط، لان الذي يقلبها يضيع فيها..

وكتب مثل الاوراق المالية مضمونة الفائدة..

وكتب مثل البنوك فيها كل أنواع العملات والتحويلات والمعاملات.. ولكن الانسان لا يستطيع أن يتعامل معها.. تماماً كما تمر على البنك المركزي وتنظر إليه وإلى الداخلين والخارجين وليس لك ورقة واحدة فيه..

والمؤرخون والنقاد ورجال الدين يحذرون الناس: من صاحب الكتاب الواحد.. أي الذي لم يؤلف سوى كتاب واحد، أو الذي لم يقرأ سوى كتاب واحد.. هذا الطراز من الناس يصعب الكلام معهم.. الجلوس إليهم.. إنهم على درجة خطرة من اليقين.. ولكن هذا اليقين محدود.. يمكن

أن يقال أن آفاقهم ضيقة. وأن هذه الآفاق قد انحصرت بين جلدتي كتاب واحد..

والكتب مثل الأطعمة: بعضها تشبع منه دون أن تأكلها، وبعضها تأكلها دون أن تشبع منها..

وهناك نوع غريب من الكتب أكثر الناس سمعوا بها، ولم يقربوها، ولأن هذه الكتب من معالم الفكر أو الثقافة، فمن الصعب على أي إنسان أن يتجاهلها.. فلا يمكن أن يقول واحد يحب السفر والرحلات مثلاً: لم أر الأهرام أو برج إيفل ولكنه يقول: رأيت واستمتعت ولم يعجبني الناس الذين يقفون حوله أو الذين يبيعون صوره. أو الغداء أو العشاء بالقرب منه أو تحته..

أي أنه رأى وله في ذلك آراء تدل على أنه لم يكتف بمجرد النظر ولكن له نظرية!

مثل هذه الكتب «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني الذي عاش في القرن العاشر الميلادي. هذا الكتاب موسوعة.. متحف.. دائرة معارف.. وهذا الرجل لم يؤلف سوى هذا الكتاب وأمضى فيه خمسين عاماً يجمع ويحقق ويسجل، ثم أهداه لسيف الدولة بن حمدان.

ولا يوجد من المثقفين واحد يجرؤ على أن يقول لك انه لم

يقرأ هذا الكتاب أو «في» هذا الكتاب أو «عن» هذا الكتاب. لأن تجاهل هذا الكتاب جهل شديد..

ولكن ما هذا الكتاب الذي صدر منه الجزء الثالث والعشرون منذ أيام؟ وهناك وعد بأن يصدر الجزء الرابع والعشرون والأخير.. ووعد آخر بأن الأجزاء سوف تكون ثلاثين وبعدها دراسة عن حياة المؤلف وفهرس لألوف الأسماء التي جاءت في هذا المحيط من الفن والعلاقات الغرامية والعشق والفسق والعفاف والتبذل.. والجنون والهوس والخبل والدعارة والفجور في ذلك الوقت!

ولم يحدث أن كتاباً قد كسب من ورائه الناشرون مئات الألوف من الجنيهات، مثل هذا الكتاب. وكل الناشرين يكسبون ويسرقون من المؤلفين الاحياء. فما بالك بكتاب مات صاحبه من تسعة قرون. ليس له ورثة. إنه في ذمة التاريخ وفي جيب الناشرين..

أما المؤلف فرجل صبور وذاكرته قوية وهو في كتابه هذا يحكي لنا قصص الأغاني المشهورة- أقصد التي كتبها وغناها ورواها مئات من الناس.. والكتاب يبدأ بأن هارون الرشيد طلب من المغنين والفنانين في زمانه أن يختاروا أحسن مائة أغنية فاختاروها.. ثم طلب أليهم أن يختاروا عشر أغنيات.. ثم أن يختاروا أحسنها جميعاً. وتختلف الآراء

والأذواق وهويروي ذلك كله .

وهذا العالم الغريب العجيب الذي يصوره الأصفهاني هو عالم الليل . . أو بنات الليل . . أو «لاس فيجاس» الجاهلية والإسلام . . أو ساحة الحمراء في بيروت أو في شارع الهرم في مصر أو عماد الدين زمان . فكل الذين يتحدث عنهم شعراء أو مجانين بالشعر . وكلهم يحب الأغاني في أية ساعة من ساعات الليل . . ويكفي أن يكون في مكان ما واحد يغني ، لتتجه إليه الإبل من أقصى الأرض ، ويتقدم الناس يسألون : أين المطرب وأين الشاعر؟ ويبدأ الليل والسهر . . والمراهنات على أجمل الأصوات ويختلف الرجال والنساء .

والشيء الغريب الذي يسجله كتاب «الأغاني» أن المرأة في ذلك الوقت كانت حرة تماماً في تصرفاتها . فهي تطارد الشعراء وهي تبعث بمن يأتي بهم . وكثيراً ما عاد الزوج إلى بيته فوجد زوجته تجلس إلى أحد الشعراء ولا يستنكر الرجل ذلك . . فهو يعرف أن الشعر قضاء وقدر . . وأن وجود شاعر ممتاز معناه انه لا قانون ولا تقاليد ولا حواجز . أليس شاعراً؟ هذا يكفي . .

وكثيراً ما وجدنا زوجات الخلفاء والأمراء يبعثن بالخادمة تبحث عن الشاعر وتأتي به متنكراً . ويقدمن له الشراب ويشجعنه على الرقص . فإذا رقص انهالت عليه الراقصات .

ثم يلقين به بعيداً عن الخيام التي يقمن فيها. ثم يعدن به في اليوم التالي..

والذي يقرأ مغامرات الشاعر اللعين عمر بن أبي ربيعة، يجد أنه ليس واحداً في هذا الفجور.. إنه شاعر ممتاز فاسق فاجر. فهو يذهب إلى الكعبة ويعاكس النساء اللاتي يطفن. ويطاردهن دون أن يستحي.. ودون أن يوقفه أحد. إنه شاعر. وهذه تأشيرة مرور فوق كل الحواجز الدينية والأخلاقية.

وكثيراً ما تنكر الشعراء في ملابس رجال آخرين أو ملابس النساء، لعلهم يدخلون مجالس النساء ويسمعون ويقولون ثم يخرجون يفضحون الجميع.. أن الشعراء إذاعات متنقلة بالفضائح في كل مكان.

ولكن ما الذي فعله أبو الفرج الأصفهاني بالضبط؟

إنه رجل «ابن حظ» وهو لا يرى من الدنيا إلا مجالس الأنس والطرب. وهذا هو الذي يهمه، فمن هذه الناحية سجل الدنيا من حوله. فهو يرضي ذوقه الخاص. وهو في نفس الوقت لا يريد أن تموت هذه الأعمال الفنية والأصوات الغنائية، ولا طريقة العزف على آلات العصر، دون أن يسجلها. أو «يخلدها» كما يقول.

وقد سجل العالم الذي حوله.. والذي في داخله

أيضاً. وقد عاش في زمن الأصفهاني فقهاء ومؤرخون ورجال نحو وصرف وسياسة وكل واحد كتب ما يراه. وكان الذي كتبوه شيئاً مختلفاً! كيف ذلك؟ لأنهم مختلفون.. ولأن كل واحد يرى من العالم ما يمتعه أو ما يهمه، أو ما يريد أن يمتع به الناس!

وهذا يذكرني بقصة «الجحيم» للكاتب الفرنسي هنري باربيس.. في هذه القصة وجدنا البطل ينظر من ثقب في أعلى الجدار، فنافذته على الدنيا هي هذا الثقب. وهذا الذي يبدو أمام الثقب فقط.. فالحياة جدار كبير. وكل واحد ينظر من خلال ثقب في هذا الحائط: صغير أو كبير.. واسع أو ضيق..

والفيلسوف الإغريقي أفلاطون صور لنا دنيانا فقال: إننا نشبه أناساً جلسوا في كهف. وجعلوا فتحة الكهف وراء ظهورهم. ثم راحوا ينظرون إلى ظلال الناس في داخل الكهف.. فعالمنا يجيء من فتحة الكهف.. بعضنا ينظر من فتحة الكهف وبعضنا ينظر إلى الظلال التي تجيء من فتحة الكهف!

أو عالمنا هو الذي تحدث عنه الأديب النمساوي ستيفان تسفايج في قصة «اللعبة الملكية» يقصد الشطرنج.. فالأنسان ينام في سجن.. وتجيء إليه الأصوات والظلال من النوافذ

وعليه أن يكتشف الدنيا من خلال القليل جداً الذي يصله . . وكل واحد يرى ما يقدر عليه أو ما يعجبه . . ثم ينقله إلى الناس . . أي أنه ينقل ذوقه ومزاجه . .

والذي فعله الأصفهاني هو أنه نقل ألينا ذوقه ومزاجه .

ولكن حدث خطأ فادح ليس مسؤولاً عنه فقد تصور القارىء أن عصر الأصفهاني هو هذا الانحلال الشديد . . مع أنه لم يصور إلا جانباً من المرح والسهر. فليس كل الناس كذلك ولكن بينهم عدداً كبيراً لا يشغلهم الفن . . وهذا يحدث في كل عصر فليس كل باريس حي البيجال . ولندن ليست هي البكاديللي . . والقاهرة ليست هي شارع الهرم. وإنما هناك شوارع أخرى وأحياء ومعالم ومقدسات . . ولكن الأصفهاني اختار من عالمه هذا الذي يعيش فيه ويعجبه ويمتعه . . وأراد كأي فنان أن ينقل متعته إلى كل الناس!

وقد حذرنا د. زكي مبارك من ثلاثين عاماً من الأصفهاني . لانه صاحب مزاج خاص . ولكن هذا التحذير لا معنى له . فمن الذي ليس له مزاج خاص . ود. زكي مبارك حين يرفض مزاج الأصفهاني يدعو إلى مزاجه هو- فهو أيضاً صاحب مزاج خاص! .

ولكن الأصفهاني في مقدمة الجزء الأول من كتابه يعرف جيداً ما الذي سوف يكتبه . ويؤكد انه يريد أن يسلي القارىء

وأن يذهب عنه الملل . . وهذا أمنية غاية في الطموح . . فليس سهلاً أن يفعل ذلك أحد . . ولكن الأصفهاني استطاع أن يكون مسلياً . وأن يكون ذلك بأي ثمن . وكثيراً ما كان الثمن هو الدقة في سرد الأحداث ، أو نقلها عن أناس آخرين .

ولا يزال هذا الكتاب متعة للقارىء . . أما الذين نشروا هذا الكتاب أو حققوه أو «هذبوه» فإنهم لم يساعدوا القارىء كثيراً على فهم ما فيه من كلمات غريبة وتراكيب عجيبة غامضة . . فلا يزال كتاب الأغاني يحتاج إلى خريطة . حتى لا يشبع منه الانسان مهما أكل وشرب ! .

«ياعيل»
وأكاذيب أخرى مضادة!

في نوفمبر سنة ١٩٤٣ التقى الزعماء تشرشل وروزفلت وستالين في طهران لكي يتفقوا على خطة سرية لإسقاط هتلر. الخطة من تأليف وإخراج تشرشل. اسم الخطة «ياعيل»- وهي كلمة عبرية معناها الماعز البرية أي الوعل!

والخطة تقوم على خداع الشعب الألماني والشعوب التي يحتلها هتلر.. وخداع أجهزة المخابرات الألمانية في كل مكان. وذلك عن طريق الشائعات والأكاذيب.. وفتافيت الأخبار يثيرونها هنا وهناك. فإذا قامت المخابرات الألمانية بجمعها وتركيبها وتحليلها انتهت إلى أن الحلفاء قرروا الهجوم على ألمانيا.. وفي أماكن مختلفة. فلا يعرف الألمان أين تكون الضربة القادمة..

وقد جندت المخابرات البريطانية بعض ضباط المخابرات الألمانية والجنرالات الذين ضاقوا بهتلر..

وبدأت بريطانيا وأمريكا معاً في تنفيذ هذه الخطة.. أو

هذه الحرب التي يخوضها المخبرون والجواسيس ضد الجواسيس والجاسوسية المضادة مستخدمين الأكاذيب والأكاذيب المضادة.. ضد العملاء والمرتزقة.. يخوضون الدماء بالفلوس ويخوضون الوحل بالذهب، بالعنف والجنس والمخدرات.. إنها حرب رهيبة لا يدري بها أحد، ولكنها في البيوت والحانات والشوارع وغرف النوم وزوجات الضباط وعشيقات الوزراء.. لا تهمد ولا تخمد ليلاً ونهاراً.. وكانت سيول المعلومات تتدفق على لندن من كل مدن وموانيء أوروبا..

أما اسم «ياعيل» فمأخوذ عن التوراة (سفر القضاة الاصحاح الرابع والخامس). فالتوراة تحدثنا عن المعارك بين اليهود وملك كنعان «سيسيرا». كانت عنده ٧٠٠ مركبة حديدية. ولم يكن لدى اليهود شيء وفي ذلك الوقت كانت عند اليهود نبية أسمها «دبورا» تقضي بينهم، وكانوا يذهبون إليها يسألونها النصح، فنصحت بأن يجمع القائد «باراق» عشرة آلاف من الجنود ويواجه الملك سيسيرا. وواجهه وقضى عليه. وهرب سيسيرا على قدميه ولجأ إلى خيمة تملكها ياعيل. طلب إليها الماء فقدمت له اللبن، طلب إليها أن ينام فجعلته ينام إلى الأبد. فقد دقت رأسه بوتد الخيمة ونادت ياعيل على القائد باراق أن يجيء ليرى عدوه ميتاً على الأرض عند قدميها وقدميه..

واحتفظت التوراة بأغنية النبية دبورا التي تقول فيها: تباركت ياعيل على كل النساء.. سيدة النساء.. لقد أراحت الأرض أربعين عاماً!

وكان أمل خطة «ياعيل» هو القضاء على هتلر في النهاية!

وإمعاناً في الخداع والتضليل اقترح تشرشل على روزفلت وستالين، تغيير اسم هذه الخطة إلى الحرس الخاص.. وتشرشل له عبارة بليغة تقول: في الحرب تكون الحقيقة غالية علناً، لدرجة أننا يجب أن نحرسها بجيش من الأكاذيب!

وقد بلغت الأكاذيب التي نسبت إلى تشرشل أثناء الحرب العالمية الثانية، في كل الجبهات ٣٥٠٠ أكذوبة!

***

وأنت في القاهرة مثلاً تلتف حولك دون أن تدري أنفاس وهمسات رجال مخابرات كل الدول يسجلون وينفثون الدخان والشائعات والنكت. وأنت لا تعرف من الذي يقول ولماذا ولصالح من؟

والجواب: إنهم هؤلاء الذين يتسترون على الحقيقة التي لا نعرفها، ومن أجلها يطلقون حولها سحباً من الفراشات والدبابير والآمال الكاذبة. وعلى أجهزة المخابرات المصرية أن تواجه كل ذلك بأكاذيب أخرى وحقائق وخدع.. ونحن

نتلقى كل ذلك كل يوم وتدور رؤوسنا ومعها أفكارنا وأوهامنا . .

فالحرب ليست هي أن تحمل سلاحك وتذهب إلى الجبهة . وإنما هناك حروب حقيقية لها أسلحة لا نراها ولا نعرفها . .

وهذه الحرب لا جبهة لها ولا صفارات إنذار ولا صواريخ . . وإنما هي الهواء الذي نعيش عليه ، نقياً أو ملوثاً ، وكما أنه لم يعد هناك هواء نقي ، فلا توجد كذلك حقائق لم تتلوث بأكاذيب الآخرين لا نعرفهم ولكن ما أكثرهم !

***

ومن أسابيع قامت ضجة في الصحف الأمريكية والعالمية . قالت صحف أمريكا إن الرئيس الأمريكي ريجان قد وافق على خطة لإسقاط الرئيس الليبي معمر القذافي .

وقامت الخطة على نشر الأكاذيب في الصحف العالمية لكي تنتقل إلى ليبيا ، تشكك في القذافي وعجزه عن مواجهة الهجوم الأمريكي القادم للقضاء عليه نهائياً ، ثم تشجيع الساخطين في الجيش والقوات المسلحة للإستيلاء على السلطة !

ومعنى ذلك أن الرئيس الأمريكي وافق على فبركة أخبار ليست صحيحة . والهدف زعزعة القذافي . وأنه هكذا خدع الصحف الأمريكية . وخدع الصحف الأوروبية أي أنه رجل مخادع كاذب !

وقال صحفيون أمريكان: أن هذه صفعة وشلوت للصحف العالمية.. وتشكيك في كل ما يصدر عن البيت الأبيض. إذ كيف نصدق الرئيس بعد ذلك!

وجاء الرد من البيت الأبيض هكذا: أما أننا نريد إسقاط القذافي فلا شك في ذلك.. وأما أننا نوافق على الكذب فلا.. وليست هذه إلا حيلة لجأنا إليها من أجل إسقاط القذافي!

وبنفس السرعة التي قامت بها الضجة اختفت. ولا بد أن يكون السبب هو الشعور بالهيافة والخجل. لأنه ليس معقولاً أن تكون هذه هي الأكذوبة الوحيدة التي اعتمدها الرئيس وأجهزة المخابرات.. فلا نهاية للأكاذيب الرسمية والأكاذيب المضادة للمخابرات السوفيتية. وإذا كانت هذه الأكذوبة قد انكشفت، فقد انطلقت أكذوبة أخرى لتغطيتها، وهي أن الرجل الذي وضع التقرير قد استقال بعد أن افتضح أمره. ولكن المعنى الذي أرادته أمريكا قد تحقق: إنها تريد إسقاط القذافي. وإنها تعمل على ذلك سراً وعلناً. وأن هذه الخطة إذا كانت قد عرفت، فهناك خطط أخرى لم نعرفها بعد!

***

ثم حكاية الرجل الإسرائيلي الذي ذهب إلى صحيفة التايمس البريطانية يبيعها أسرار القنبلة الذرية في إسرائيل.

الرجل أسمه عانونو من أصل مغربي. ذهب ومعه صور ومعلومات وبيانات. وقبل أن تنشر الصحيفة البريطانية هذا الخبر اتصلت بعدد من العلماء والخبراء، وبالسفارة الإسرائيلية. وعانونو هذا يريد مبلغاً من المال. ومما قاله الرجل أن لدى إسرائيل عشرين قنبلة ذرية.

وإنها تستطيع أن تستخدمها ضد العرب، إذا تأزمت الأوضاع.

ولا تجرؤ دولة في العالم على أن تعترض على ضرب العرب بالقنابل الذرية، فأمريكا ضربت اليابان. والعالم كله قد بارك هذا الانتقام النووي!

وأعلن أحد علماء الذرة الفرنسيين أن بلاده، كما ساعدت العراق على بناء المفاعل النووي، فقد ساعدت إسرائيل على بناء المفاعل النووي في ديمونه، بصحراء النقب. ولكن استطاعت إسرائيل بعلمائها ومساعدة أمريكا أن تذهب إلى ما هو أبعد من ذلك فصنعت عدداً من القنابل الذرية.

وقيل إن إسرائيل استخدمت في حرب ١٩٦٧ قنابل ذات رؤوس نووية عندما ضربت الطائرات على أرض المطارات صباح ٥ يونيو ١٩٦٧. فقد استخدمت صواريخ اسمها «الرؤوس الباحثة»، فقد كانت هذه الصواريخ تبحث عن الطائرات المعدنية وتترك الطائرات الهيكلية.. وقيل إنها

استخدمت «قنابل نظيفة»، أي أشعاعها النووي محدود جداً!

وأذكر أنني يوم ٤ يونيو سنة ١٩٦٧ كنت في العريش وسمعت من إذاعة إسرائيل أن أحد العلماء الإسرائيليين قد اخترع مادة بديلة عن البترول.. وأن هذه المادة سوف تجعل ثمن برميل البترول مليماً أي أن هذا الاكتشاف سوف يؤدي إلى خراب بيوت عرب البترول!

وأذكر أنني تناقشت مع الفريق أول مرتجى في هذا الخبر الغريب.. وأثناء عودتي في آخر طائرة من الجبهة مع الفريق أول صدقي محمود، ناقشته أيضاً. ولم يكن هذا الخبر إلا واحداً من سلسلة أكاذيب ضرورية للحرب وأثناءها. لتشكيك العرب في قدراتهم وفي مساندة الدول المستوردة للبترول.. ولا أظن أن هذا الخبر قد لقي ما يستحقه من الاهتمام. ولكنه خبر. حلقة في سلسلة الأكاذيب والخدع الإعلامية، لصالح الحرب..

وأذاع راديو إسرائيل من يومين أنه لا يستبعد أن تكون المخابرات الإسرائيلية قد سربت هذه المعلومات الذرية.. وأن هذا الرجل يعمل لحساب المخابرات. وأن الهدف هو تحذير سوريا وليبيا وإيران ومنظمة التحرير الفلسطينية.. وأذاع راديو إسرائيل أيضاً أن المخابرات قد حاصرت الرجل فاستدرجته فتاة جميلة إلى رحلة في البحر. وفي البحر هاجمه

البحارة واعتقلوه واعادوه إلى إسرائيل في محاكمة سرية . . أي أن أحداً لن يراه حياً أو ميتاً . . ويقال إن المخابرات خطفته . . ويقال قتلته . .

وتحتار أنت عند قراءة كل ذلك : هل صحيح؟ هل كذب؟ هل هو «طعم» ألقته المخابرات في البحر العربي أو هو ضحية؟

المهم أن الغرض من الخبر قد تحقق : أن إسرائيل لديها قنابل ذرية . أو ليس بعيداً أن يكون لديها . وأن فرنسا وأمريكا وبريطانيا قد ساعدتها على ذلك . ويستوى اعتراف إسرائيل بهذه الحقيقة أو نفيها تماماً . فالقنابل هناك . والذي يلومها يجب أن يلوم أمريكا أولاً ، والعالم كله الذي سكت على تكدس القنابل الذرية في الأرض أو في الأقمار قاتلة الصواريخ والتي تدور حول الأرض!

ومن النماذج الفريدة لتضارب المخابرات ما وقع في السفارة البريطانية في تركيا في أكتوبر سنة ١٩٤٣. فقد كان للسفير سير هيو خادم من أصل يوغوسلافي تركي . وكان السفير يطمئن لهذا الخادم وتسلل الخادم إلى خزانة السفير وفتحها . وراح يصور كل ما فيها من وثائق . وذهب إلى السفارة الألمانية يبيعها غالياً . ونقلها السفير الألماني فون باين إلى وزارة الخارجية ، إلى هتلر . وأرسلوا خبيراً يتحقق من صحة

هذه الوثائق وكيف تم تصويرها. وتشكك هتلر أول الأمر، ولكن وزارة الخارجية الألمانية لم تجد مانعاً من مسايرة هذا الخادم الجاسوس الذي نقل وثائق تفضح خطط الحلفاء في ضرب هتلر واستدراج تركيا إلى معسكر الحلفاء.

هذه الحملة ظهرت فيلماً على الشاشة باسم «عملية شيشيرون»ـ وبالعربية اسميناه «الأصابع الخمس». واستجابت وزارة الخارجية الألمانية إلى مطالب الخادم فدفعت له مئات الألوف من الجنيهات. وأحست الحكومة التركية بأن جنيهات كثيرة قد نزلت الأسواق وظلت تتابع مصدرها حتى اهتدت إلى الخادم بانزا. وفجأة اكتشف الخادم أن كل هذه الجنيهات مزورةـ طبعتها وزارة الخارجية الألمانية. وفجأة وجد هذا الخادم نفسه مفلساً. ومات سنة ١٩٧١ فقيراً، بعد أن خسر كل القضايا التي رفعها ضد الحكومة الألمانية!

وقد اعتبر ستالين «عملية شيشيرون» هذه من تلفيق المخابرات البريطانية. وعندما نشر السفير البريطاني مذكراته اعترف بخطورة الوثائق التي نقلها الخادم وأن الذي أنقذ هذه الوثائق أن أحداً لم يصدقها..

حتى روسيا وأمريكا وفرنسا اعتبرت هذه الوثائق أكذوبة. مع أنها كانت حقيقة.

ولكن أحداً لم يصدق أن هذا الخادم كان يعمل لحسابه وقيل إنه كان يعمل لحساب المخابرات البريطانية . . وأن عملية شيشيرون هذه كانت واحدة من التسعين عملية التي جاءت في خطة «ياعيل» !

ولما أيقنت المخابرات الأمريكية أن وثائق السفارة البريطانية صحيحة ، قامت بتضليل المخابرات الألمانية . . وعرضت على المخابرات البريطانية خطتها المضادة . ولكن المخابرات البريطانية التزمت الصمت ، وحاولت ألمانيا أن تعرف رد الفعل البريطاني فلم تعرف . وقد أربكها الصمت الإنجليزي المريب الرهيب !

وكانت عملية «شيشيرون» هذه نموذجاً لنجاح «خطة ياعيل» القائمة على الخداع والأكاذيب المضادة .

فبعد عام واحد ، لم يكن من الصعب على هتلر أن يعرف أين تكون ضربة الحلفاء . ولكن الحلفاء كانوا قد استعدوا تماماً . . وليست ياعيل وشيشيرون والترا وكناريس وفنديتا ولوليتا و م ٦ و ١١ ب د . . إلا بعض الأسماء الشفرية التي عرفناها أخيراً . . أما الذي لا نعرفه فألوف من مثل ذلك !

سيجارة مسمومة لعبد الناصر
لكنه مات بغيرها!

المخابرات جهاز ضخم في كل بلد لجمع المعلومات وتحليلها وتوقع ما سوف يحدث في البلاد الأخرى.. أو هو جهاز لنشر المعلومات، من أجل وقاية الدولة وحمايتها أيضاً. وهو يحصل على المعلومات عن طريق أشخاص كثيرين يجندهم لذلك.. هؤلاء الأشخاص عاديون أو في أعلى مراكز الدولة الإدارية والعلمية والسياسية أو يعملون في مخابرات أخرى.. ومن مهام المخابرات أيضاً: السيطرة على عقل العدو.. أو التحكم في رأيه العام.. أو قلبْ نظام الحكم أو اغتيال الرؤساء - هذا إن كانت المخابرات لدولة عظمى.. مثل وكالة المخابرات المركزية الأمريكية.. أو ك.ج.ب. السوفيتية وقد صدرت كتب كثيرة عن المخابرات الأمريكية، معها وضدها. ومن المؤكد أنها هي التي كتبت النوعين معاً، فهي تسيطر على كثير من الجامعات وشبكات التليفزيون وكبرى الصحف والمعامل والشركات والتوكيلات.

وقد صدر أخيراً كتاب «وكالة المخابرات المركزية» من

تأليف بريان فريمانتل، وهو صحفي إنجليزي التقى بمئات من الناس ليعرف أهم ما شاركت فيه المخابرات الأمريكية في السنوات العشرين الماضية، ابتداءً بمحاولة اغتيال الرئيس جمال عبد الناصر. وانتهاءً بما يحدث في أمريكا اللاتينية.

ويوم افتتح الرئيس الأمريكي كنيدي المركز الرئيسي للمخابرات قال: إذا نجحتم فلن يدري بكم أحد، وإذا فشلتم فالفضيحة لها جلاجل!

وكانت بداية فضائح المخابرات فشلها في معركة خليج الخنازير في عهد الرئيس كنيدي أيضاً. دبرت المخابرات غزواً لكوبا من قوات الهاربين من كوبا والمعارضين للرئيس كاسترو. وكان الفشل عظيماً. وقد أدى هذا الفشل إلى طرد رئيس المخابرات السيد الن دالاس، أخى وزير الخارجية العتيد فوستر دالاس. وقال كنيدي تعليقاً على ذلك: لو حدث هذا في بلد ديموقراطي لسقط رئيس الجمهورية. ولكن في أمريكا عندنا برلمان ديموقراطي ولكن الحكومة ليست ديموقراطية.

فالشعب يختار البرلمان، ولكن البرلمان لا يختار رئيس الجمهورية. وإنما يختاره الشعب. وهو الذي يختار وزراءه ومعاونيه، على مزاجه. ومن اختياراته رئيس المخابرات.. وأول فصول الكتاب عن محاولة اغتيال الرئيس جمال عبد

الناصر. وذلك بعد فشل العدوان الثلاثي على مصر. فقد دبرت بريطانيا مع فرنسا وإسرائيل عدواناً على مصر لأنها أممت قناة السويس. وأيدت أمريكا العدوان سراً، وعارضته علناً. بل إن أمريكا أدانت الدول الثلاث بأنها اعتدت على ميثاق الأمم المتحدة. وطالبتها بالانسحاب فوراً. وكان الانسحاب عاراً قومياً لبريطانيا ونهاية لحياة أنتوني إيدن ـ السياسية والصحية. وأصيب إيدن بجنون اسمه «اغتيال عبد الناصر». ووافق ايزنهاور على اغتياله، كما وافق قبل ذلك على اغتيال رؤساء آخرين. واستعجل إيدن هذا الإغتيال، قائلاً إن علاجه الوحيد من جميع أمراضه هو: موت عبد الناصر..

واجتمعت إدارات المخابرات الأمريكية يبحثون عن الطريقة التي سوف يغتالون بها عبد الناصر. وكان رجل المخابرات في مصر في ذلك الوقت هو ميلز كوبلاند الذي ألف كتاب «لعبة الأمم». وكان صديقاً للرئيس عبد الناصر، ويتردد على بيته في أي وقت، دون إذن سابق. وكانت جلسات طويلة مع كوبلاند ليعرفوا من هو وما هو وكيف هو عبد الناصر، آكلاً وشارباً ومدخناً. وأين نقاط الضعف فيه ـ أي المداخل إلى نهايته. وعرفوا أن جمال عبد الناصر يدخن كثيراً جداً. وأنه يفضل سجائر «كنت» الأمريكية. ووجدوا أن هذه هي البداية. وكلفوا رجلاً اسمه د. سيدني جوتليب بالمهمة

العاجلة. هذا الرجل هو «حاوي» المخابرات الأمريكية. فهو يدير معملاً كيميائياً ضخماً. يساعده مئات من العلماء والكيميائيين، ويشتغلون في إعداد السموم القاتلة. واهتدى د. سيدني جوتليب إلى صنع سجائر «كنت» مسمومة، إذا دخن عبد الناصر واحدة منها فسوف يموت بعد ساعة. وأعد علبة سجائر مغلقة لا يمكن أن يشك فيها حراس عبد الناصر إذا رأوا ضرورة تفتيش كوبلاند. وكان لا بد أن يفتحها ميلز كوبلاند أمامه وأن يدخن واحدة مسمومة. ولكن قبل أن يجيء للقاء عبد الناصر، لا بد أن يحقن نفسه بعقار مضاد لسموم السجائر. وسافر الجاسوس كوبلاند إلى القاهرة ولكنه أبرق بأن هذه الخطة لا يمكن تنفيذها..

وكانت هذه إحدى المحاولتين اللتين أعدتهما المخابرات المركزية، ولم يشعر أحد بعد بالأسباب التي جعلت اغتياله مستحيلاً..

وكما وصفت المخابرات بأنها «جراب الحاوي».. والحاوي هو الرئيس الأمريكي، لأنه يخرج من هذا الجراب كل اللعب والحيل القاتلة، فإن د. جوتليب قد وصف بأنه هو الحاوي رقم ٢. فهذا الرجل قد تفرغ تماماً لخدمة الجواسيس. فهو الذي يمدهم بالحبوب التي إذا ابتلعها أحد فأنه يطلق روائح كريهة تجعل الحاضرين يهربون منه جميعاً.

وهذه الحبوب تستخدم في إفساد العلاقات بين العشاق، لأن المخابرات لا تريد هذه العلاقة أو تريد أن تستخدم أحد العاشقين في أحداث أخرى.. أو الحبوب التي تجعل صاحبها يضحك بلا توقف.. أو الحبوب التي تجعل الإنسان يفقد النطق تماماً. ويكون في صمته أمان له، حتى تستولي عليه المخابرات.. وتعطيه حبوباً أخرى تجعله يذوب معلومات وأسراراً عن العدو أو عن الخصم..

وكانت هناك خطة لاغتيال الرئيس الأندونيسي أحمد سوكارنو. فهو قد اتجه كثيراً إلى السوفيت. ثم إنه لا يقاوم المد الشيوعي في بلاده. أما المساعدات التي يتلقاه من أمريكا فلبناء مجده الشخصي وعظمته الوطنية.. ولكنه لا يستخدم هذه المعونات في القضاء على الحزب الشيوعي أو الابتعاد عن السوفيت.. وقد لاحظوا أنه أقام مطاراً لإمداد الطائرات السوفيتية بالوقود، وذلك في إحدى الجزر النائية.

فاتجهت المخابرات الأمريكية إلى مساعدة الثوار.. أمدتهم بالسلاح والمال وأجهزة الإرسال. وأنزلت عليهم عدداً من المظليين والطيارين والمقاتلين. وهاجمهم سوكارنو بعنف. وردت القوات المتمردة بالقنابل والمدافع. ولما أخطأ أحد الجواسيس الأمريكان ونسف كنيسة بمن فيها، قتله زملاؤه من رجال المخابرات. واستطاع سوكارنو أن يستغل

هذا الموقف ببراعة، افتقدتها الحكومة الأمريكية. وحصل على كثير من المساعدات وخاصة لأنه لم يعلن صراحة ما الذي حدث.. وهكذا مضت هذه الكارثة دون أن تدري بها الصحف الأمريكية!

وكان لا بد من اغتيال سوكارنو. ونقطة الضعف عند سوكارنو: الجنس وكثرة الجميلات حوله. وعدلوا عن اغتياله في آخر لحظة. فقد اكتشفوا أن إحدى الجميلات كانت تعمل لحساب المخابرات. وأن رجل المخابرات في أندونيسيا لم يكن يعلم ذلك..

وأخيراً اهتدوا إلى أن إحدى نقاط الضعف هي: الأصدقاء، وكان جمال عبد الناصر صديقاً لسوكارنو. فاتجهت المخابرات إلى السيطرة على سوكارنو، أو تصحيح مساره السياسي، عن طريق جمال عبد الناصر.

ويقول الكتاب: وكانت وزارة الخارجية تبعث لجمال عبد الناصر بمضمون الخطب التي سوف يلقيها في مناسبات معينة. ومن بينها ذلك الخطاب الرائع الذي ألقاه في باندونغ. فقد جاء الخطاب مطابقاً لما أرادته الخارجية الأمريكية والمخابرات. وكان علي صبري وزير الدولة الذي تعلم في أمريكا هو الذي يترجم الوثائق التي ترد من الخارجية

الأمريكية . . ثم اكتشفت المخابرات الأمريكية أن علي صبري عميل سوفيتي!

* * *

ولم تنته المحاولات الأمريكية لاغتيال الرئيس الكوبي كاسترو. وقد حاولوا معه عن طريق السيجار المسموم. ويقال إن عميلاً أمريكياً قد أفلح في تقديم هذه السجائر إلى كاسترو ـ ولكن صحة كاسترو الجيدة أكبر تكذيب لادعاء هذا العميل!

ثم كانت «أزمة الصواريخ» في ١٤ أكتوبر سنة ١٩٦٢، وهذه الأزمة بين كنيدي وخروتشيف. وقد قضت هذه الأزمة على خروتشيف تماماً. فقد استطاعت طائرات التجسس الأمريكية الجديدة «يو ٢» تصوير قواعد الصواريخ والمعدات المساعدة لها. وقد اضطرت روسيا إلى سحبها . .

وظلت أمريكا تستخدم هذه الطائرات أربع سنوات من قواعد في تركيا، لتصوير كل قطعة معدنية على الأراضي السوفيتية . . حتى نجح السوفيت في تطوير أساليب التجسس المضادة وأسقطوا واحدة من هذه الطائرات في سنة ١٩٦٠، وحاكموا طيارها. وسجنوه. ثم بادلوا عليه بجاسوس آخر . .

* * *

وكل أجهزة المخابرات تتعاون وتترصد بعضها البعض.

وعيونها مفتوحة على كل اتجاه. وبقدر ما هناك من عداء وتنافس، فإن هناك رغبة في التعاون ضد العدو المشترك.

ففي سنة ١٩٥٦ استطاعت المخابرات الأمريكية أن تحصل على معنى الخطاب الشهير الذي ألقاه خروتشيف في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي.. وفي هذا الخطاب أدان ستالين وعدد مذابحه ووحشيته وطغيانه. واجتاحت الدول الشيوعية موجة عنيفة اقتلعت اسم وجسم وتماثيل ستالين في كل مكان. ومسح اسمه من كل كتاب!

ولكن المخابرات الأمريكية بعثت إلى عملائها بضرورة الحصول على النص كاملاً. واستطاعوا أن يحصلوا على أجزاء منه عن طريق المخابرات الألمانية.. ثم على النص الكامل عن طريق المخابرات الإسرائيلية. ثم نشرته المخابرات الأمريكية كاملاً في صحيفة «نيويورك تايمس» ثم أنكرت أن لها صلة بهذه الوثيقة.

ويقول المؤلف إن المخابرات الأمريكية تسيطر تماماً على مجلة «تايم» وعلى جامعة جورج تاون ومئات المعامل والمستشفيات والصيدليات وألوف من أساتذة وعلماء الجامعات في أمريكا وفي العالم.

وبعض المؤلفين الطيبين يتحدثون عن «أخلاقيات» المخابرات. أي يعيبون عليها أنها لا ترعى ديناً أو خلقاً!

وهي ملاحظات ساذجة، لأن الأخلاق والمبادىء والقيم لا تهم كثيراً إذا كان الهدف هو حماية الدولة من المخابرات السوفيتية. . ولذلك بالمخابرات الأمريكية لها خطة واضحة: السيطرة على عقل العدو والتحكم فيه لصالح الأمن القومي الأمريكي.

ثم إن المخابرات السوفيتية متقدمة كثيراً على المخابرات الأمريكية، لأن أحداً لا يحاكم رجالها أمام لجان الشؤون الخارجية والأمن القومي في مجلس الكونغرس. ولأن أحداً من العاملين فيها، لم يصدر كتاباً واحداً لفضح مناهج الحصول على معلومات، ولو على جثة الضحية أو العميل. المعلومات أولاً وأخيراً. فالحرب معلومات. والنصر معلومات أكثر. والهزيمة معلومات أقل. أو انعدام هذه المعلومات. .

أما لماذا هي تدوس الأخلاق وتضربها بالجزمة، بجزمة الحاكم عادة، فلأنها تقوم بتجربة كل أساليبها المميتة على الناس سراً. فهي تجرب المخدرات وحبوب الهلوسة والصدمات الكهربائية على عدد كبير من المواطنين والمجرمين والمرضى وأسرى حرب فيتنام، أو من الناس الذين يخطفونهم من أماكن بعيدة. وقد فضح كثير من رجال المخابرات هذه الأساليب الوحشية. وطبعاً أنكرت المخابرات ذلك. ولكن المعامل لا تكف عن استخدام كل الوسائل لاستخراج

المعلومات بالقوة: قوة المخدرات أو حبوب الهلوسة أو الصدمة الكهربية أو حبوب التخسيس أو المقويات الجنسية أو التنويم المغناطيسي.

وأكثر الذين يعملون في قراءة الكف والفنجان وضرب الرمل والكوتشينة والمندل واستحضار الجن، يعملون لحساب المخابرات في أي بلد ومباحث أمن الدولة. فأمام هؤلاء الناس يشعر المواطنون العاديون بشيء من الضعف والأمان أيضاً. فكل إنسان يريد أن يعرف ما سوف يحدث له. ولذلك فكثير من أبواب البخت والكلمات المتقاطعة في الصحف والمجلات تعمل لحساب المخابرات!

وكذلك معظم العيادات النفسية والمستشفيات العقلية تعمل لحساب المخابرات..

وقد أفلح السوفيت في دراسة ورصد وتطوير كل التجارب الخاصة بعلم النفس: القراءة من بعد.. و «التخاطر» أي توارد الخواطر، و «الاستشفاف» أي الرؤية من بعد.. وعقد ما لا نهاية له من المؤتمرات عن الحاسة السادسة.. وكذلك «غسيل المخ» أي تفريغ المخ من المعلومات ثم مسح الذاكرة تماماً.. وإعادة صياغة وتنسيق كل المعلومات في المخ من جديد.. فالمخابرات الأمريكية تفعل ذلك مع ضحاياها ومع عملائها أيضاً. وبذلك تأمن خطرهم إذا وقعوا في أيدي

المخابرات السوفيتية . . وقد قامت المخابرات الأمريكية بتجارب وحشية على جنود فيتنام. وأعلنت أنها لم تلجأ إلى ذلك مطلقاً. ولكن رجالها فضحوها ـ هل هم رجالها العاملون ضدها أو العاملون معها؟. المهم أن كل الكتب التي معها أو ضدها قد حققت هدفاً واحداً: تخويف الناس من قوتها وسلطانها وبطشها أيضاً!

وقد زودت المخابرات الأمريكية امبراطور إيران، بعد أن فشلت ثورة الزعيم مصدق بمساعدة السوفيت سنة ١٩٥٣، بجهازين لكشف الكذب. . لكي يعرف الأمبراطور أعداءه وأصدقاءه؟!

وأخطأت المخابرات الأمريكية كثيراً في الحساب. ومن أخطائها أنها تصورت أن في الإمكان رشوة الرئيس جمال عبد الناصر بستة ملايين دولار. جاءت إلى القاهرة في شنطة. وراح العميل الأمريكي يعدها ورقة ورقة، فوجد أنها تنقص ورقة واحدة من فئة عشرة دولارات، دفعها من جيبه. . فما كان من الرئيس عبد الناصر إلا أن أقام بها برج الجزيرة. وهذا البرج تسميه المخابرات الأمريكية «برج كرميت روزفلت» حفيد الرئيس الأمريكي روزفلت وعميلها في القاهرة ـ والحقيقة أنهم يطلقون على هذا البرج اسماً نابياً، لا يمكن ذكره!

* * *

حتى هذا الكتاب الذي أصدره صحفي بريطاني عاش طويلاً في أمريكا والشرق الأوسط، لم يكن إلا دفاعاً عن المخابرات وعن ضرورتها، وهذا طبيعي.. لأنها سلاح من أسلحة الأمن القومي. إنها تضايق الناس، وأحياناً تورط الدولة. ولكن لا بد.

يقول: إن المخابرات مثل الحقنة التي توجعك بعض الوقت. ولكن بغيرها لا علاج ولا شفاء.. ومن هنا كانت ضرورتها!

المبادرة المزعومة لعباس حلمي سنة ١٩٣٠ : السلام بين يهود وعرب فلسطين !

في سنة ١٩٨١ التقى خمسون من الباحثين بالقرب من مدينة القدس، وراحوا يفكرون في طبيعة العلاقات بين مصر وفلسطين في ألف عام، قبل الحكم العثماني وأثناءه، ثم في القرن العشرين. واختاروا فترة ما بين ٦٨٦ و ١٩٤٨ . ونشروا بعض هذه الأبحاث في كتاب صدر أخيراً بعنوان «مصر وفلسطين» أشرف عليه الأستاذان أمنون كوهين وجبريل يائير. والكتاب يستحق القراءة ففيه كثير من الآراء والاجتهادات المدهشة حقاً. وفيه أسرار تذاع لأول مرة من هذا المحيط المضطرب الأمواج السياسية والدينية والعنصرية والعسكرية . .

ومن بين الحوادث الغريبة والعجيبة أيضاً ما جاء في فصل بعنوان : «الحالمون والانتهازيون ومبادرة عباس حلمي بالسلام في فلسطين» . .

فعباس حلمي هو الخديوي الثالث في حكم مصر. فقد حكمها وهو في الثامنة عشرة من عمره، ولمدة ٢٢ عاماً. وانتهز الإنجليز سفره إلى اسطنبول وخلعوه. وأتوا بالسلطان حسين كامل وأجلسوه على عرش مصر المستعمرة العثمانية، والحماية البريطانية. وحاول عباس حلمي أن يسترد عرشه. ذهب إلى كل دول أوروبا الكبرى في ذلك الوقت. وأقام في سويسرا يتصل بكل الأطراف الصديقة والمعادية لبريطانيا لعله يعود أو لعلها تعوضه عن أملاكه الواسعة في مصر. وحصل على أموال من ألمانيا والنمسا، ودفع كثيراً للصحف الفرنسية لكي تتبنى قضيته وعودته. وأكد للإنجليز أنه صديق، ومن الممكن أن يكون أكثر صداقة وأقدر على حكم مصر لصالحها، وأن يتوسط بينها وبين الدول العربية الأخرى. ولكن الإنجليز لم يصدقوه. وفي نفس الوقت كان يساعد العناصر الوطنية في مصر وغيرها بالمال ويهرب إليها السلاح. وكان يمول صحيفتي «الوطن» و «واللواء»، ولكن أكثر أمواله كانت تذهب للصحف الفرنسية. وحاولت السلطنة العثمانية أن تستخدمه لحسابها ضد الإنجليز، وكذلك حاول الألمان..

ولما يئس من أن يعود إلى عرش مصر، أراد أن يثبت حسن نيته للإنجليز فوافق على تعيين السلطان حسين كامل، ووافق أيضاً على أن يفاوض في التعويضات عن أملاكه الكثيرة في مصر..

وطالب في نفس الوقت بأن يكون والياً على سوريا . . وأن يكون ملكاً على ألبانيا . .

وأن يكون خليفة على طرابلس ، بمساعدة آل السنوسي . .

ووعده «الباب العالي» العثماني بكثير من ذلك . . ولكنه خدعه . . ولم يكف عن النظر إلى كل ما يحدث في مصر ، لعله ولعلهم .

ويقال إنه لما مات في سنة ١٩٤٤ كانت آخر كلماته : ألم أكن أفضل من الملك فاروق . . إنهم مغفلون ! . .

ولم يحدد من هم المغفلين : الإنجليز أو المصريون أو الأتراك أو الألمان أو العرب أو اليهود ـ فقد كانوا جميعاً طرفاً في القضية الغريبة التي جاءت في الكتاب ؟ . .

ففي سنة ١٩٣٠ تلقى الزعيم الصهيوني حاييم فايتسمان رسالة عاجلة من صحفي يهودي يعيش في باريس هو «عبوديا قمحي» صاحب جريدة محدودة خاسرة اسمها «المنورة» يقول فيها : إن خديوي مصر السابق قد اتصل به ويريده أن يوسطه للقاء مع فايتسمان لعلهما معاً يحققان السلام بين اليهود والعرب في فلسطين ! . .

ولم يشأ أن يقول قمحي في خطابه أو مذكراته بعد ذلك ، لماذا اختاره الخديوي . . أو لماذا تحول الخديوي فجأة إلى

هذا الخط السياسي العجيب . . فهو مصري وطني وهو عربي مسلم . . ولم يكن قمحي هذا بالصحفي الذي له وزن ، ولا كان معروفاً بأنه موثوق به ، ولكنه مشهور بأنه في حالة إفلاس مادي ، وأنه كثيراً ما طلب أموالاً من الزعيم الصهيوني ، ولا بد أن يكون قد حصل على أموال من الخديوي السابق . .

ولم تكن الصهيونية - أو اليهودية العالمية - قوية لدرجة أن يحاول الخديوي استرضاءها أو الاعتماد عليها في تحقيق طموحه السياسي . . فقد كان العالم في ذلك الوقت يرتاب في الصهيونية تحت تأثير صورتها الرهيبة التي جاءت في كتاب «بروتوكولات حكماء صهيون» الذي ترجمه من الفرنسية إلى العربية سنة ١٩٢٠ الشيخ أنطون الخوري ، وهذه البروتوكولات تتحدث عن مخطط سري محكم لسيطرة اليهود على العالم كله . كما أن اليهود في ذلك الوقت لم تكن لهم هذه السيطرة الهائلة على الاقتصاد العالمي ، فما الذي جعل الخديوي يسعى إلى مثل هذا السلام بين العرب واليهود في فلسطين؟ . . .

ليس ذلك واضحاً ولكن حدث فعلاً أن تحمس الزعيم الصهيوني . فلم يكن اليهود في فلسطين قوة لها وزن ، فالعرب أغلبية ساحقة ، والمسلمون في الشرق الأوسط . فهذه المحاولة التي يقوم بها الخديوي هي حلم الأحلام ، وأمل

الآمال عند أي صهيوني. وسوف يلقى الصحفي قمحي ثمناً لذلك من اليهود في بريطانيا وفرنسا. . وكان الخديوي هو الآخر، رغم ثرائه الفادح، ورغم أنه يملك بنكاً في تركيا، ورغم أن ديونه في سويسرا قد بلغت خمسين ألفاً من الجنيهات قد سددت، فقد كان في حاجة إلى المال ليواصل الدعوة لتحقيق آماله على كل الساحات.

فالخديوي هو الآخر يحلم مفتوح العينين واليدين! . . وفي هذا الوقت كان الخديوي عباس حلمي قد فشل على كل الجبهات. فلم يتحقق له حلم واحد. أراد أن يكون سلطاناً في مصر أو نائباً للملك في سوريا أو خليفة في ليبيا، أو خليفة للمسلمين.

ولولا أن اثنين من الصحفيين قد أدركاه في آخر لحظة لأغلق تماماً باب الحديث في السلام في فلسطين.

الصحفيان هما: عبوديا قمحي ومحمود عزمي.

أما محمود عزمي فهو مصري تزوج سيدة روسية سببت له الكثير من المشاكل مع الحكومة المصرية. فقد كان لها نشاط شيوعي. ولذلك خرج محمود عزمي من مصر سنة ١٩٠٨. وواصل نشاطه الصحفي والسياسي. وعاد إلى مصر وبقي على رأس كل قائمة سوداء. ثم عمل محرراً في جريدة «السياسة» ثم رئيساً لتحريرها. ثم عاد إلى أوروبا والتقى

بالخديوي عباس حلمي الذي أوفده إلى الشرق. فكانت له علاقات شخصية واسعة وعميقة. وحاول أن يحقق للخديوي بعض آماله فلم يستطع هو الآخر. والتقى بالصحفي قمحي، ثم بالزعيم الصهيوني فايتسمان ورافقه في رحلته الفاشلة إلى فلسطين، ومعه خطاب توصية من الخديوي إلى أمير الأردن الذي رفض لقاءه. ولقي معارضة واستنكاراً من كل العرب في فلسطين وداخلها. وفي ذلك الوقت كان فايتسمان يعتقد أن العرب المعتدلين خارج فلسطين قادرون على الضغط على عرب فلسطين لتحقيق نوع من الوفاق بين الاثنين. ولم يحدث ذلك.

وفي زحمة الآمال والأحلام، كان الزعيم الصهيوني أكثر واقعية. فقد طلب شراء قطعة أرض في وادي زرقابالأردن مقابل أن يدفع مليون جنيه لمد خط حديدي بين بغداد وحيفا. ووعده الخديوي بأن يحقق له ذلك. فهذا أمر سهل جداً ـ على حد تعبيره، لأن له المكانة العظيمة عند كل أشقائه الأمراء والعرب ورجال الدين المسلمين والإخوة الفلسطينيين!! ولم يفز بشيء من ذلك.

وفي خطاب طويل من الصحفي قمحي إلى الزعيم الصهيوني يقول له إنه يريد أن يدعو إلى اتحاد كونفيدرالي على مراحل بين الدول العربية: بين العراق وفلسطين وبين

الحجاز واليمن، وبينها جميعاً ومصر! وفي هذا الكيان الدولي الجديد سوف ينعم ١٤ مليوناً من يهود العالم بالحياة في سلام. وهو اتحاد كالذي بين تركيا والعراق.

وعرفنا فيما بعد أن كل هذه الأفكار كانت من اجتهادات محمود عزمي. الذي كان ينادي بالفرعونية في وجه الإنجليز، ثم نادى بالوحدة العربية وبالخلافة الإسلامية بعد ذلك، ثم بالاتحاد الشامل بين العرب والوفاق بينهم وبين اليهود.

ورأى عبوديا قمحي، وكذلك محمود عزمي إصدار مجلة عربية يهودية لنشر هذه الدعوة.

ورشحا عدداً من الأسماء العالمية للأشراف عليها. فمن الجانب اليهودي اختارا العالم الفيزيائي أينشتين، والعالم النفسي فرويد، ومن الجانب العربي: لطفي السيد وطه حسين وعلي عبد الرازق ومصطفى المراغي وعبد الحميد البكري وأحمد شوقي واثنين من شعراء العراق هما: الرصافي والزهاوي.

وسافر محمود عزمي إلى البلاد العربية ليرى مدى استعداد العرب لقبول فكرة الوفاق بين العرب واليهود في فلسطين.

أما مذكرات قمحي فتقول إن العرب على أتم استعداد لذلك، لأن الخديوي يلقى عندهم عظيم الاحترام.

وفي سنة ١٩٣١ تلقى عباس حلمي دعوة من مفتي القدس بحضور المؤتمر الإسلامي. وفي المؤتمر تحمس ضد اليهود أعداء العرب والإسلام، أملاً في أن يختاروه خليفة للمسلمين. ولم يحدث. فاكتملت لديه كل عناصر اليأس في أن يجلس على أي عرش في أي مكان. ولذلك اتجه إلى مصر يفاوض حكومتها في تعويضه عن أملاكه التي صودرت.

وفي عهد الخديوي عباس حلمي ولدت مشكلة طابا سنة ١٩٠٦ نتيجة للمفاوضات بين الدولة العثمانية وبين سلطات الإحتلال البريطانية.

أما فكرة «السلام» أو «الوفاق» أو «التقارب» العربي اليهودي، والتي كانت «وسيلة» اتخذها الخديوي لإرضاء الإنجليز لعله يعود إلى مصر أو كانت مصيدة من صنع اثنين من الصحفيين.. ولقد صدقها الزعيم الصهيوني فايتسمان.

وهي لذلك دليل على «سذاجته السياسية» - فهو لم يدرك حجم الضغط العربي القوي على الحكومة البريطانية في ذلك الوقت لإعلان فلسطين دولة مستقلة!.

هو . .
وثوار يوليو ! !

الصحفي الكبير الأستاذ حلمي سلام رجل طيب . . عاطفي . . ولذلك فمن السهل أن تسيء فهمه . وهو المسؤول عن ذلك ابتداءً من عنوان كتابه الذي صدر أخيراً : «أنا . . وثوار يوليو» . والعنوان لا اعتراض عليه . ولكن الرجل ليس مغروراً كما يوهمك هذا العنوان ، بل هو إنسان متواضع ومسكين حقاً ، حمامة وديعة وسط هؤلاء الصقور والغربان . ومن الأفضل لو كان العنوان هكذا : أنا ضحية ثوار يوليو . .

لقد أعطوه إجازة مفتوحة ـ لأول مرة في تاريخ الصحافة . وأسعده أن ينفرد هو بهذه الصفة . . وأحالوه إلى المعاش وهو في الرابعة والأربعين . وقد وجد لهم أعذاراً مقبولة ـ هو الذي قبلها !

ثم إن عبارته القوية توهمك بأنه هو مثل أسلوبه : قوي طنان صلب . والحقيقة أنه رجل رقيق لا طاقة له على مواجهة القوة والعنف . ثم إنه لا يستطيع أن يكون كذلك . . وكثرة الجمل الاعتراضية ، تجعلك تتصور أنه رجل دقيق عقلاني

موضوعي. والحقيقة أنه إنسان حساس جداً. وأن هذه هي عقدة حياته. وأن عاطفته هي الجسر الملتهب الذي يعبره ذهاباً إلى الناس وإياباً. كان موظفاً في وزارة الحربية. أحب واحداً من روسائه. فغضب رئيس آخر..

وهو إذا صادق فعشرات، ولكن إذا أحب فواحد.. والفصل الأول من كتابه عن حبه وإعجابه الشديد لواحد من ثوار يوليو: محمد نجيب..

وهو يعلم علم اليقين أن محمد نجيب هو الواجهة وليس الوجه. فصانع ثورة يوليو هو جمال عبد الناصر. فليكن. إنه يحب محمد نجيب. وقد سأله جمال عبد الناصر عن هذا الحب، واستنكره. وطالبه صلاح سالم بأن يقطع صلته بمحمد نجيب. وهو يعلم أن محمد نجيب رجل طيب لا يكتم سراً. وإنما هو يشكو أمره إلى الله والناس. وحوله عيون وآذان تنقل إلى عبد الناصر ما قال وما لم يقل..

مثلاً: في يوم تلقى حلمي سلام دعوة للسينما من السيد وجيه أباظة، وكان مسؤولاً عن السينما. فذهب ليتفرج على فيلم «فيفا زاباتا» بطولة مارلون براندو. وفجأة تعالت الهتافات في السينما، فقد جاء محمد نجيب. وسأله جمال عبد الناصر إن كان هو الذي دبر هذه المظاهرة لمحمد نجيب، فالتقارير التي جاءت إلى عبد الناصر تقول ذلك. ولم يخطر على بال حلمي

سلام أن يكون عبد الناصر هو الذي دبر هذه الصدفة. ولا خطر على باله أن جمال عبد الناصر أراد أن يقول إنه يعرف ويستنكر. وإنه حكيم حليم.. وإنه لو كان يحاسب الناس على ما جاء في التقارير لسجن نصف سكان مصر. وإن عبد الناصر أراد أن يقول له: أنا أعرف وأحذرك..

ولكن حلمي سلام مضى في حبه لمحمد نجيب ولم ينظر بعيداً..

وكل الذي آمن به حلمي سلام هو أن محمد نجيب كان حامياً للثورة. وأن هذه الثورة لو فشلت لكان هو أولى ضحاياها.. أما هؤلاء الشبان فسوف يقال إنهم صغار، وقد جنى عليهم الضابط الكبير محمد نجيب!.

ولذلك كان خلافهم معه مبكراً. فهم إذن قد اتخذوا من نجيب ساتراً ترابياً، وحلمي سلام يراه حامياً حانياً نموذجاً رفيعاً للوطنية والصدق والتقوى. وقد دفعا الثمن فادحاً ـ محمد نجيب وحلمي سلام..

محمد نجيب حبسوه في قصر السيدة زينب الوكيل عشرين عاماً. وقرروا أن يجعلوه شبحاً. فأفرغوا البيت من محتواه من الأثاث، كما أفرغوه هو أيضاً من مضمونه كضابط ورئيس جمهورية وإنسان.. وتركوا له غرفة واحدة ينام ويأكل ويبكي فيها.. يعلق ملابسه على حبل، ويملأ سريره بالقطط التي

تحميه من هجمات الفئران . . ولما ماتت زوجته منعوه من أن يمشي في جنازتها ـ منتهى الوحشية ! .

ونسي الأستاذ حلمي سلام، لطيبة قلبه، أن الثورة تأكل بنيها . . وأن الثوار لأنهم ساسة جدد، لا خلاق لهم . فلا علاقة بين السياسة والأخلاق، فالسياسة هي فن السفالة الأنيقة . ولم يرحم هؤلاء الثوار واحداً آخر منهم جعلوه وصياً على عرش مصر . حاكموه وحبسوه وأدانوه . . ثم أفرجوا عنه صحياً : رشاد مهنا !

* * *

وأهم فصول الكتاب ما كتبه عن الرئيس جمال عبد الناصر . وهو معجب به جداً . . وقد وجد فيه كل الصفات التي ليست عنده هو . فهو رجل كثير الصمت كثير التساؤل . أعصابه من حديد . . وهو رجل عقلاني . عقله يتقدم عاطفته . وقد صبر على إهانات زملائه الضابط الأحرار . وأعطاهم جميعاً الحبال التي يشنقون بها أنفسهم ، واحداً واحداً .

وروى الأستاذ حلمي سلام واقعة مشهورة وهي أن عبد الناصر طلب إليهم أن يختاروا شكل الحكم ، في اقتراح سري ـ فكتبوا جميعاً أنهم يفضلون أن تحكم مصر دكتاتورياً لا ديموقراطياً . فغضب حمال عبد الناصر . واعتكف في بيته .

فذهبوا إليه يعتذرون عن هذا القرار الخاطىء. لأن القرار الصحيح هو: الديموقراطية!

ولكن الأستاذ حلمي سلام لم يتوقف عند هذا القرار. فالضباط الأحرار كانوا صادقين.. وكذب عبد الناصر. فهم اختاروا له الحكم الذي يريده، فضايقه أنهم كشفوه وأن أمره قد افتضح!

فهو لم يكن إلا دكتاتوراً. وهذا ما حدث بعد ذلك طوال ١٨ عاماً!

وبالمناسبة أذكر أن الرئيس السادات قال لي: إنه لم يندم في حياته إلا مرتين ـ المرة الأولى يوم اشترك في هذا الصراع واختار الحكم الكتاتوري. وقال لي: أنا اخترت بالضبط ما يريده عبد الناصر. ولو كذبت واخترت الحكم الديمقراطي لنجوت من غضبه بعض الوقت.

ولم يشأ السادات في مذكراته أن يعترف بالخطأ الثاني الذي ارتكبه.. ولكن عندما كنا في الرياض، وكنت الصحفي الوحيد المرافق له، سأله الأمير سلمان بن عبد العزيز أمير الرياض: يا فخامة الرئيس أنت لم تذكر لنا ما هو هذا الخطأ الثاني؟

فضحك السادات. ولم يقل.

وهمست أنا في أذن الأمير سلمان قائلاً: ولكن الرئيس لا يريد أن يجرح شعور أولاده!

والأستاذ حلمي سلام قد وجد للرئيس عبد الناصر أعذاراً كثيرة في مقدمتها: إنه لم يعد يسمع بأذنه ولكن بآذان الآخرين وعيونهم.. فلا وقت عنده لأن يتحقق من الأخطاء الكثيرة..

يقول: لقد كان لدى عبد الناصر الوقت والصبر لكي يسأل ويتحقق ويستبين.. ومن هنا ندرت أخطاؤه في حق الآخرين. لكن الظروف كلها فيما بعد تحالفت ضده فسرقت منه الوقت والصبر. وانتهت به إلى الاستسلام للأسوار العالية التي أقامها (الآخرون) من حوله.. فلم يعد يسمع إلا بآذانهم ولم يعد يرى إلا بعيونهم، ومن هنا كثرت الأخطاء التي وقع فيها والتي كان مستحيلاً أن يقع فيها لو لم يستسلم للآخرين.

ولكن الذي اندهش له الأستاذ حلمي سلام لا يدعو إلى الدهشة.. فهذه هي قاعدة السلطة.. فالحاكم يعلو ويعلو، وكلما ارتفع تضاءلت أحجام الناس وتلاشت أصواتهم. فهذه هي القمة الباردة الضيقة. باردة لأنها فوق، ضيقة لأنها لا تتسع لغير الحاكم المطلق.. وهو يفضل برودة القمة الخانقة على رحابة السفح الدافيء - هذا قانون!.

ولا يزال الحاكم يقوى ويقوى حتى يخيف كل الذين حوله. ولذلك لا ينقلون إليه إلا الذي يرضيه ويسعده.. ومن

هنا صدقت عبارة المؤرخ الإنجليزي الكبير لورد أكتون: القوة تفسد، والقوة المطلقة تفسد إطلاقاً!

وهذا ما حدث. وما سوف يحدث إلى يوم القيامة!

* * *

أما الفصل الذي أضحكني فهو ما كتبه عن أنور السادات وهو لم يقصد أن يجعله مضحكاً. ولكني تذكرت نوادر كثيرة مماثلة.. فهو قد تعرف بالسادات في المحكمة. وطلب إليه أن يكتب مذكراته في مجلة «المصور» فوافق السادات. وكان يدفع له عشرة جنيهات عن المقال. ولما خرج السادات من السجن ذهب إلى حلمي سلام ـ وكلهم كانوا يذهبون إلى مكتبه وإلى بيته أيضاً ـ وطلب إليه أن يساعده في الحصول على عمل في «المصور» وأفلح حلمي سلام في إقناع أصحاب دار الهلال ووافقوا على أن يعمل السادات مراجعاً بخمسين جنيهاً..

ولكن عندما أشار السادات إلى هذه الواقعة في كتابه «البحث عن الذات» وفي مذكراته التي نشرها في مجلة «أكتوبر» لم يذكر اسم حلمي سلام. وإنما كان يذكر دائماً اسم إحسان عبد القدوس.. ولم يقل إنه عمل مراجعاً وإنما كاتباً إلى جانب إحسان عبد القدوس وفكري أباظة!..

واندهش حلمي سلام جداً كيف أن السادات يتحدث كثيراً

عن «الوفاء والحب» وهو الذي لم يكن وفيّاً لعبد الناصر فقد حذف اسمه من قاعة الاحتفالات الكبرى ومن بحيرة السد العالي. . إلخ. .

* * *

أما الفصل الذي كتبه عن صلاح سالم، فهو صورة لرجل شديد الذكاء ملتهبّ الغضب. . رجل بلا فرامل. اصطدم بجمال عبد الناصر كثيراً، وأساء فهم جمال عبد الناصر، وكيف أنه أحنى رأسه للعاصفة لكي تمر.

ولكن جمال عبد الناصر كما يقول حلمي سلام: مثل «الجمل» يصبر ثم لا يفوته أن ينتقم وبعنف!.

وانتقم وأجلس صلاح سالم في بيته يعد نجوم السماء. . ويبحث عن اسمه في كل ورقة مطبوعة فلا يجده. . حتى ابنته جاءت يوماً تقول إنها لم تجد اسمه في الكتب المدرسية التي تتحدث عن مفاوضات الجلاء. .

وزاره حلمي سلام وطيب خاطره. وفي اليوم التالي قدم له نسخة من كتاب عبد الرحمن الرافعي عن ثورة يوليو. وفي الكتاب اسم صلاح سالم. .

ونسى حلمي سلام أنه قد اكتوى بغضب وحماقة وكذب صلاح سالم!

وبقية قصص الكتاب عن عبد اللطيف البغدادي وحسن إبراهيم وعن معروف الحضري . .

* * *

وواضح من هذا الكتاب الممتع أن الأستاذ حلمي سلام مغامر خاسر. فهو يضع كل فلوسه على الحصان ، الذي يستحيل أن يكسب في هذا السباق : محمد نجيب ومعروف الحضري ورشاد مهنا . .

والأستاذ حلمي سلام قد عرف أكثر ثوار يوليو. وأسعده ذلك . ولكنه لم يذهب إلى ما هو أبعد. فلأنه ليس سياسياً ، لم يلعب دوراً ، ولم يشارك في السلطة ، ولا كسب موقفاً ولا جاهاً. وقد أساء فهم العلاقة التي بينه وبينهم . لقد توهم أن الاقتراب معناه القربى ، وإنما هم قربوه إليهم كأداة من أدوات النشر. . فأنت تضع المسدس في جيبك الذي بجوار قلبك ، وليس ذلك دليلاً على عشق للمسدس . . وأنت تضع الملعقة والشوكة بين شفتيك . . وتلصق التليفون بفمك . وليس لكل ذلك أي معنى عاطفي . . وإنما كلها أدوات تستخدمها . فقط أدوات . مصلحة . منفعة .

ولذلك ظهر حول الثوار آخرون مثل أسماك القرش أكلوا وشربوا ونهبوا وتسلقوا وحكموا مصر، لمجرد أنهم كانوا

قريبين من الحــاكم . . أدوات . . مطــايا . . أحــذية للسيد المطلق . .

فالأستاذ حلمي سلام أشبه بالذي انفتحت له «طاقة القدر» فانبهر ونسى أن يطلب لنفسه شيئاً .

•

ويجتمع الحزن واليأس في إهداء هذا الكتاب إلى المفكر الإسلامي خالد محمد خالد : إلى الكاتب الذي نذر نفسه بكل عمق الإيمان ، وبكل صدق العزيمة ! ! لله . . والحرية فأعطى الحرف والكلمة من خلال ما نذر نفسه له ، طعمـاً «جـديداً» ولوناً جديداً . وأضفى على الحرف والكلمة شرفـاً ليس بعـده شرف ، إلى الكاتـب الحـر في غير زهـو ، والمناضـل في غير خيلاء .

ويذكر الأستـاذ حلمـي سلام أن عبـد الناصـر كان يحـب الاستمــاع إلــى موسيقــى شهــر زاد للموسيقــار رمســكي كورساكوف . ويقول إنه لم يكن رومانسياً ، رغم إعجابه بهذه الموسيقى . بل هو واقعي . أي أنه واقعي في كل شيء ، إلا في حب هذه الموسيقى !

ولكني أرى أنه واقعي جداً بسبب حبه لموسيقى شهرزاد . . وهي بطلة «ألف ليلة وليلة» التي تروي كل ليلة حكاية لشهريار الملك . . ولـم يستطـع الأستـاذ حلمـي سلام أن يقـوم بدور شهرزاد لشهريار عبد الناصر . ولكن استطاع آخرون أن يقوموا

بدور شهرزاد فلا ينام الملك إلا على أصواتهم وحكاياتهم . . ولا تزال شهرزاد تروي الحكايات والخرافات كأن عبد الناصر ما زال حيّاً!

ويوم نشرت الصحف صورة للرئيس عبد الناصر يلعب الشطرنج ، كان المعنى: أنه قادر على الحرب والمعارك ووضع الخطط. هم الذين قالوا . . ولكن التاريخ لم يحتفظ لنا بمعركة واحدة انتصر فيها ولا خطة واحدة . لا في اليمن ولا في القناة ولا في سوريا ولا نكسة ١٩٦٧ .

ولكن عبد الناصر أحب لعبة الشطرنج لأنها اللعبة التي تنتهي بموت الملك . . ولأنها اللعبة التي يكون فيها الجنود قطعاً من الخشب يحركها ثم يلقي بها في الصندوق!

ومن أول صفحة في كتاب الأستاذ حلمي سلام تدرك مسار الكتاب وأنك أمام تفسير أخلاقي للتاريخ . فهو مؤلف طيب القلب .

فهو يعيد ما سبق أن نشره يوم١٨ يناير سنة ١٩٥٢ في مجلة المصور. يقول: يرهق الناس أعصابهم بحثاً عن صداقة خالصة وأصدقاء خلصاء ويطلقون عبارة: صداقة العيش والملح ، على كل صداقة متينة تقوم بينهم . ولكن اللواء محمد نجيب الذي يتحدث عنه الناس هذا الأسبوع بمناسبة انتخابه رئيساً لنادي الضباط، يسمي صداقته لبعض زملائه: صداقة

العيش والدم . . ولن نستغرب من هذه التسمية عندما نعرف أن دم محمد نجيب قد سال ثلاث مرات في جبهة القتال بفلسطين ، وأن هؤلاء الزملاء كانوا على استعداد لأن يمنحوه بعض دمائهم أو كثيراً من دمائهم ، لكيلا تهرب من صدره الحياة . .

وفي هذه السطور دليل على سلامة نية محمد نجيب وحلمي سلام .

وقد توقعت أن يعود الأستاذ حلمي سلام في نهاية الكتاب فيعدل من هذه العبارة فيقول : إن محمد نجيب لم يسل دمه بعد ذلك . . فقد أحرقته الثورة ونشفوا دمه . . أو يقول إنها فعلاً صداقة العيش والدم . . أو صداقة الدم بلا عيش ـ دم محمد نجيب وحلمي سلام .

ولكن الأستاذ حلمي سلام لم يقل .

والذي قاله في الكتاب يمتعك ويحزنك على ما أصاب رجلاً أراد أن يكون مخلصاً على طريقته هو ، فرفضوا إخلاصه إلا على طريقتهم !

الشرباصي :
ذلك الفلاح الشجاع !

ومن الذي لايعرف المهندس أحمد عبده الشرباصي، أو كان يحب أن يعرفه، أو فاته أن يعرفه؟

زرته قبل وفاته وكنت في حالة من الخجل. فقد كنت أعرف مالم يكن يعرف: أنه سوف يموت. قال الدكاترة وأكدوا ذلك. كأنني ذهبت أتحدث إليه على أنه رجل حي، وهو يتحدث على أنه رجل سوف يعيش وأن الذي أصابه شدة تزول. وقد مررت بهذه التجربة كثيراً: أبي وأمي وأختي وخالي وخالتي وعمتي. . .

وكان لا بد أن أتحدث إليه كأنني لا أعرف، وكأنه هو أيضاً لا يعرف أنني أعرف. وتناول الحديث كل شيء في السياسة والأدب والفن والتصوف والشيخ الباقوري أعز أصدقائه، والمهندس عبد القوي أحمد باشا مثله الأعلى في الادارة والعلاقات الانسانية.

وتحيرت بين أن أبقى معه طويلاً، فالرجل ممتع الحديث، والبقاء طويلاً يدل على أنني لا أشعر بخطورة مرضه وبين أن

تكون الزيارة خفيفة ، بما يؤكد أنه مريض وإن تظاهرت أنا وتظاهر هو بأنه ليس كذلك . والمهندس أحمد عبده الشرباصي مهندس ووزير ونائب رئيس وزراء وعضو مجلس الرياسة ولكن صفاته كلها تجتمع في هاتين الكلمتين : فلاح شجاع . .

وقد صدر أخيراً كتاب من تأليف د . فرج الشرباصي بعنوان «مع المهندس أحمد الشرباصي قبل الرحيل» من مطبوعات الهيئة العامة للكتاب في ٣٠٠ صفحة . وكنت قد رأيت هذا الكتاب قبل الطبع ، وتمنيت أن يلقى ما يستحقه من الحفاوة به . دليلاً على اهتمامنا بالرجل العظيم المهندس الشرباصي .

والشرباصي فلاح عنده كل صفات الفلاحين من العلاقات الاجتماعية المتشابكة الباقية ، وهو يعرف كل قرى مصر وعائلاتها ، ومن الذي تزوج بنت فلان الذي تزوج أخت فلان من قرية كذا مركز كذا محافظة كذا . . تماماً كما يعرف القنوات والترع والكباري . .

وبيته مثل بيوت الفلاحين : مفتوح لكل الناس ، وفي أي وقت ولأي سبب . وهو متمسك بكل أخلاقيات القرية التي هي الترابط والتضامن والشعور بالآخرين وكل المجاملات الاجتماعية . ولذلك كنت تجد المهندس الشرباصي يمشي في جنازات كثيرة .

ولذلك فهو فلاح ينتمي إلى مصر وأرض مصر . ويرى ان

المصري زراعي فلاح مشدود إلى الأرض. وحريص على ذلك. وهويعبد كل من يمكنه من البقاء على أرضه ومن أجلها. والآلهة الفراعنة هم كبار الفلاحين في نظره.

وقد قدسهم وخلع عليهم كل القدرات هذه القدرات قد ادخرها عندهم لكي يهبوه الحياة على الأرض المصرية. وأن تكون حياته أبدية. وهو مستعد أن يبوس القدم من أجل أن يبقى. و «النفاق» المصري ليس نفاقاً للأقوى والأكبر من أجل أن يبقى شجرة في أرضه وعلى أرضه والنفاق يسميه الشرباصي «مكر الفلاحين» ويرى ذلك طبيعياً؟!

وهو رجل شجاع لا يخاف أحداً. وقد أبدى رأيه في كل الظروف. ففي أيام الثورة وكان وزيراً امتدح المهندس حسين سري باشا ووصفه «بالمهندس الأول» والدافع الأول لكل مشروعات الري والطاقات الكهربائية.. ومنخفض القطارة، وكل المشروعات التي ضاعفت طاقة مصر وثروتها الزراعية.. وهو مدرسة في تشجيع الشبان والأخذ بيدهم.

ينطبق عليه قول الشاعر القديم:

صارم العزم حاضر الحزم ساري
الفكر ثبت المقام صلب العود
مستريح الأحشاء مع كل ضغن
بارد الصدر من غليل الحقود

وهو أيضاً معجب بشجاعة الوزير مصطفى مرعي الذي استقال من حكومة حسين سري. واحتفظ الشرباصي بهذه الاستقالة ضمن مذكراته.. يقول مصطفى مرعي مهاجماً حسين سري: «فإنك تعلم كما يعلم غيرك أنني إنما اشتركت في حكومتك على أمل فيك: إن لك غاية هي جمع الكلمة وتوحيد الصفوف. وإن لك هدفاً هو الاستعانة بالقوى المؤتلفة على مواجهة الخطر من مشاكلنا الخارجية والداخلية.. وقد تبين أنك لا تعبأ بهذه الغاية ولا تتوسل بوسائلها.. بل إنك لتبدو كما لو كنت مسلطاً لتجعل من كل حزب حزبين، ومن كل فرقة فرقتين، وقد رأيتك بنفسي ترى الرأي للحق، وتنقض الرأي للباطل، وتقول الكلمة وتنكرها».

أما لفظك وأما عبارتك وأما أسلوبك في إدارة مناقشات مجلس الوزراء، فقد أصبح مضرب الأمثال وموضع التقدير في كل مكان.

وعلى الرغم من أن رأي مصطفى مرعي يخالف رأي الشرباصي في حسين سري، فإن الشرباصي معجب بالرجل الشجاع الذي يضع استقالته في جيبه، وعلى استعداد لأن يقدمها في أي وقت إذا ما استشعر الإهانة ـ هكذا يجب أن يكون الرجال. لا خوف من أحد في أي وقت.

وعندما غضب الرئيس عبد الناصر على الشيخ الباقوري كان

الشرباصي يتردد عليه يومياً حتى آخذه عبد الناصر.

ولكن لا شيء يحجبه أو يصده عن الصداقة والوفاء.

ولما طلب إليه الرئيس عبد الناصر أن يعود إلى الحكم اعتذر.. وروى لأصدقائه هذه الحكاية التاريخية- نقلاً عن كتاب د. فرج الشرباصي: كتب المنصور العباسي إلى أبي عبدالله جعفر الصادق قال: لم لا تغشانا كما يغشانا الناس؟

فأجابه: ليس لنا من الدنيا ما نخافك عليه، ولا عندك من الآخرة ما نرجوك له. ولا أنت في نعمة نهنئك بها، ولا في نقمة فنعزيك فيها.

فرد عليه المنصور: تصحبنا لتنصحنا.

فأجابه أبو عبد الله: من يطلب الدنيا لا ينصحك، ومن يطلب الآخرة لا يصحبك!

وأعجب المهندس الشرباصي بالأستاذ عباس العقاد. وكان لا يحب أن يقرأ له لأن العقاد كان سليط اللسان قاسياً في عبارته عنيفاً في تناوله للناس. ولكن صديقاً نصح المهندس الشرباصي بأن يقرأ كتبه، لا مقالاته السياسية.. وقرأ الشرباصي كتاب العقاد «مطالعات في الكتب سنة ١٩٣٣. فلم يفته كتاب واحد بعد ذلك حتى قال: إن الشرق كله لم ينجب إلا عقاداً واحداً!

وأعجبه في العقاد شجاعة الرأي واحترامه لنفسه واحترام الناس أيضاً.

وأعجب الشرباصي برجل في غاية الشجاعة: سلطان العلماء العز بن عبد السلام الذي وقف في وجه السلطان. وطالب ببيع كل المماليك لأنهم ليسوا أحراراً، ولا يحق للعبد المملوك أن يحكم الأحرار من المصريين.. وأنزلهم السوق ونادى عليهم وباعهم وأودع ثمنهم خزانة الدولة، وحاول السلطان أن يمنعه ولكنه رفض.

وطلب المهندس الشرباصي من وزير الأوقاف د. عبد الحليم محمود أن يطلق اسم سلطان العلماء على مسجد في قرية أبو ذكري وهي القرية التي ولد بها المهندس الشرباصي. وجاء في خطابه لوزير الأوقاف: حتى يكون في ذلك إثارة للشوق في نفوس الشبان فيدرسوا تاريخ آبائهم الذين أثاروا العالم بحضارة كانت المثل الأعلى للإنسانية الرفيعة. وليعلم الشبان أن افتتانهم بالزعامة والزعماء، ذائبة أمام قوة الروح مهما أوتيت من القوة والسلطان.

وكان المهندس الشرباصي يتمثل بعبارة الرصافي الشهيرة: «لاخير في وطن يكون السيف عند جبانه، والمال عند بخيله، والرأي عند طريده، والفكر عند شريده، والحكم عند دخيله».

وفي سنة ١٩٧٣ كتب هو العريضة الشهيرة التي قدمها، بتوقيعه مع كثير من الوزراء إلى الرئيس السادات يطالبه بعمل شيء من أجل إنقاذ مصر من وهدة النكسة والهزيمة الكبيرة العميقة. تقول العريضة التي صاغها بقلمه وكتبها بيده.

«لقد ولدت هزيمة يونيو في حضن استبداد الفرد بالسلطة، وصورية التنظيم الشعبي والمؤسسات الدستورية، وغيبة القانون وغلبة التشريعات الاستثنائية وامتهان الكلمة الحرة، وشيوع الخوف والنفاق فالهوى فالهوان».

إن البناء الداخلي يوشك أن ينقض».

فإن هزيمة يونيو، بأسبابها، وأحداثها، وعواقبها، قد زلزلت البناء الوطني، فكشفت فيه صدوعاً وأحدثت صدعاً.

ولقد وعى الشعب درس الهزيمة ولن ينساه..

إن طريق النصر لا يمكن بحال أن يكون طريق الهزيمة..

***

وقد أجرى د. فرج الشرباصي محاورات ممتعة مع المهندس الشرباصي في كل القضايا السياسية والاقتصادية والإنسانية.. وتنقل معه إلى لجنة تصفية الإقطاع التي كان يرأسها.

وكيف كان يقف إلى جانب المظلوم، وكيف اتهموه ظلماً بأنه حامي حمى الإقطاع، وكيف أن الرئيس جمال عبد الناصر كان

يقف إلى جانب المظلوم بينما أعضاء اللجنة والمشير عبد الحكيم عامر، كانوا غير ذلك. . وتحدث أيضاً عن اللغة العربية والتاريخ الإسلامي وعن التصوف. . وعن التعليم الأزهري، وضرورة أن يكون الأزهري طبيباً ومهندساً أيضاً، حتى يجد عملاً يعيش منه في مصر وخارجها. . وعن السد العالي، ولم يشأ أن يقول رأياً فهناك كثيرون قد تخصصوا في ذلك وأقاموه وأدانوه ولكنه تابع كل الأبحاث ولم يتعمق كل الدراسات، ولذلك أمسك عن أن يقول مخالفاً أو موافقاً.

***

ومن المذكرات القليلة التي كتبها المهندس الشرباصي:

١ـ قال هيرودوت: إن مصر هبة النيل. . وما نطق عن الهوى. إن هي إلا قولة الحق. مرقت من فمه فأفصحت عن الحقيقة الجامعة لنظام مصر الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والحياتين العلمية والأدبية، فضلاً عن نظامها الاقتصادي.

أول صورة تنبعث في أذهاننا لتلك الصيغة الخالدة. . تلك الديباجة السوداء التي خلقها النهر من آلاف السنين والتي غناها شوقي بقوله:

تسود ديباجاً إذا فارقتها فإذا حضرت اخضوضر الاستبرق

٢ـ يقول العقاد: كل عظيم قدير.. ولكن ليس كل قدير بالعظيم.

العظمة قدرة وزيادة، أما القدرة فليس من اللازم أن تكون عظمة، فضلاً عن أن تكون عظمة وزيادة.

إن القيمة الحقيقية للإنسان العظيم هي في حجم العطاء الذي يعطيه لغيره وكلما عظمت الأعمال التي تدخل في مقاييس العطاء، عظم قدر القائم بها.. والشعوب لا تحترم في النهاية إلا من أعطاها بسخاء.. إذ أن الشعوب لا تأتي بحكامها لكي يتمرغوا في خيرات الأوطان أو يصبحوا فئة متميزة تأخذ من شعوبها وتنعم بعيش الأباطرة.

***

٣ـ عندما نبدأ عملاً ذا خطر نسمع من أنفسنا صوتين: أحدهما صوت المنفعة يقول لنا: هذا هو ما يفيدك، الراحة والأمن والثروة والمجد والسلطان.

وثانيهما وهو ما يسميه الناس صوت الواجب يقول لنا: انس نفسك.. خاطر بها.. ضح بها.. إن المعنى الواسع للأخلاق لا وجود له بدون الحرية.

ويجب ألا تعرف الحرية بأنها القدرة على العمل أو عدمه، بل هي القدرة على الارادة وعدمها. فإذا سئلنا: هل

نحن أحرار؟ فإنما يراد بذلك: هل عزمنا على العمل أو تركه خاضع لأنفسنا أو لا؟ فإذا نزعنا يقيننا بالحرية، انهدم بناء المجتمع.

***

ثم هذه الكلمات التي أعجب بها المهندس الشرباصي:

أروع مميزات الإنسان قدرته على تحويل السالب إلى موجب..

***

الجوع هو المهذب الأول.

***

الكرامة هي الحافز الأقوى لكل عمل صالح!

***

الحوادث لا تغير أحداً، وإنما هو تفسيرنا لها..

***

هذا الفلاح الشجاع، لم يتسع وقته لكي يسكت عن الكلام ومجاملة الناس وتوجيههم، فيجلس إلى مكتبه ويمسك قلماً وورقاً ويسجل لنا تاريخاً طويلاً يمتد من أعالي النيل إلى دلتا مصر، مهندساً ووزيراً وصديقاً وأباً وأخاً لكل الناس.

لقد كان الشرباصي مثل نهر النيل يتدفق في كل مكان. ويذوب في كل الناس. فالذي تركه كثير، ولكن هذا الكثير في آذان الناس.. صدى مات عندها ومعها. فهو الذي اختار - إذن - أن يكون الرجل الأسطورة.. أن يكون حديث الناس اليوم، وأن يكون خرافة غداً.. ليقال عنه إن كل الناس سمعوه وسمعوا عنه ولكن أحداً لم يره.

ولكن لمن يريد أن يعرفه، فليقرأ له، وعن الذين أعجب بهم إنهم رجال شجعان. قالوا وما خافوا. وعاشوا واقفين وماتوا كذلك - شخص مات وقيمته باقية!

بعد النكسة :
دعوة جادة إلى تصحيح
مسار كلمات سيئة السمعة !

- ١ -

إذن فلن يكون الأستاذ أحمد بهاء الدين أديباً . فهو يطالب نفسه بأن يكون دقيقاً . وأن تتخذ الدقة شكل عدادات النور والبنزين والسرعة ، وأن يكون للكلمات وزن وطول وعرض وعمق . والأدباء لا يفعلون ذلك ولا الفنانون حين يستخدمون الكلمات والخطوط . . إنهم يسجلون انطباعاتهم ويستسلمون لغموض النشوة ورعشة القلق . ولكن الأستاذ أحمد بهاء الدين ، لأنه درس القانون ففي داخله «ترموستات» - أي منظم لدرجة حرارته وحرارة الكلمات .

فهو لا بد أن يحدد معاني الألفاظ ، ويوزع عليها بطاقاتها الشخصية ، وأن يوقفها طابوراً يستدعيها بالاسم والرسْم . . وهو بذلك أقرب إلى الفكر الفلسفي ، وأبعد عن التدفق النفسي والحرارة الوجدانية غير المحدودة . وهذا هو أسلوبه ، وتلك طبيعته . وهي مهمة شاقة لأنها البداية الصعبة لكل فكر

فلسفي. وكان أستاذنا العظيم سقراط يبدأ بالحوار مع تلاميذه بالتعريف: أي بالبحث عن معاني الكلمات التي يستخدمونها، فلو قال له أحد صباح الخير لكان رده: وما هو معنى الخير؟

وهي ميزة منهجية يتسم بها التفكير السياسي للكاتب الكبير أحمد بهاء الدين، فهو مفكر جاد. ولذلك يتعمق الألفاظ ويحسن عرضها والإقناع بها، ولذلك فحين نقرأ له يجب أن نتفرغ تماماً، وإذا أنت فرغت من أحد فصول الكتاب كان لا بد أن ترفع رأسك بعيداً، وأن تعود به إلى الوراء.. كأنك تريد من المعاني أن تستقر في أعماقك.. ثم إنك راض عنه، وعن نفسك بعد ذلك.

وكتابه الأخير «شرعية السلطة في العالم العربي» نموذج لتفكيره وحرصه على صورته - حرصه على الذي يريد أن يبدو منه، وعلى الذي يريد أن يخفيه فيهرب منه، وعندما يهرب الأستاذ بهاء الدين فهي الفرصة الوحيدة لأن تبتسم. فمثلاً عندما تحدث عن طبيعته القانونية وعن أن القانون مغروس في أعماقه، فلا حيلة له في الحرص والدقة والخوف وسوء الظن، ثم كيف رأى والتقى برجل القانون العظيم د. عبد الرزاق السنهوري.. ثم استطرد في سطور من الترجمة الذاتية: كيف كان، وبماذا كان يحلم. وهي لحظة مثيرة وممتعة واستراحة مفاجئة للقاريء الذي يعصر دماغه بيديه، فقد أحس

أنه اقترب من الحياة الخاصة للكاتب الذي أحاط نفسه بسياج الكتروني والغام زمنية حتى لا يتسلل إليه أحد. . ولكن بسرعة تجده قد اعتذر أو توارى خجلاً من الحديث عن نفسه إلى العودة إلى «سياق» القضية. مع أن حديثه عن نفسه وعن حياته، وعن «الورشة» التي يصنع فيها أفكاره، مما يهم القاريء أيضاً. ولكنه ضبط نفسه متلبساً بالحديث عن نفسه. . وعن الشباب والمشاعر والاعتراف، ولأنها كلمات غير دقيقة، ولأنها كلمات لم يسجل عليها أرقامها المسلسلة وأوزانها، فإنه يسحبها من التداول. . بين القاريء والكاتب؟!

ومرة أخرى تكتشف أن الأستاذ أحمد بهاء الدين ليس حديدياً ولا جليدياً كما يحب أن يصور نفسه. إنما هو يفلت من قيوده أحياناً، ويقفز فوق سدوده، وترتفع حرارته، والزئبق يغلي ويحطم الترمومتر الزجاجي. . ففي حالة من الغضب الغامض عند القاريء يهاجم «الكتبة» الذين ليسوا «كتاباً» والذين يتسلقون الحاكم وينافقونه و «ينافقون أنفسهم»، ويشغلهم النقل عن العقل. ويعاوده الشعور بأنه قد خرج عن الإطار الحديدي الذي وضعه لنفسه فيقول معتذراً أو مبرراً أو مفسراً ـ إن الإنسان يضطر أحياناً قبل الكتابة «أن يهش الذباب» عن وجهه. . أي يدفع عن نفسه، وهو يكتب أي انفعال شخصي، أو أي شكل من أشكال الحياة ولو كان ذبابة!

مع ان الأستاذ أحمد بهاء الدين كانت له محاولات أدبية في مطلع حياته. بل له صفحات تكاد تكون شعراً رومانسياً في رحلته ذاهباً وعائداً من الاتحاد السوفيتي . . .

ولكنه انطوى على نفسه، وعلى المكاييل والموازين يرفعها في وجه الفوضى الفكرية والهيصة اللغوية في العالم العربي، محاولاً أن يعيد الاعتبار لبعض الكلمات التي ساءت سمعتها، مثل: الوحدة والديموقراطية والموضوعية والعلمانية . .

وهو موقف تصحيحي واعتراضي وإيجابي في نفس الوقت. وهو لا يرضي السلطة، ولا يرضي الغوغائية التي انتشرت أقلامها واتسعت الأبواب أمامها دخولاً وخروجاً من السلطة والصحف. ولكن لا يهم . . «حتى لو انطلق الرصاص على الكاتب من الجانبين في وقت واحد». فلا بد أن يمضي في مواجهة التيار القوي للتهريج والإرهاب الفكري - وهي غضبة نبيلة عظيمة الاحترام . .

والفصل الأول من الكتاب أعز وأهم ما سوف تقرأ، وهو عن الشرعية والقانونية - أي عن الفرق بين الوضع الشرعي والوضع القانوني فالوضع القانوني من الممكن أن يكون بوضع اليد. أي بالقوة، فهو قانوني لأن القوة تحميه . . كالاحتلال مثلاً . . فهو وضع تحميه قوة، ولكن لا حق مشروعاً لهؤلاء المحتلين. لأن الشعب يرفضه . . والوضع

الشرعي هو الذي يرتضيه الناس ويفرضونه، حتى لو لم يكن قوياً . .

ومثل هذه التعريفات الاصطلاحية وغيرها قد نشرها الكاتب الكبير، وإليه الفضل في كثير من ذلك. كما أنه هو الذي طالب يوماً بالعدول عن تسمية «الاتحاد القومي» إلى «الاتحاد الاشتراكي»ـ فالاتحاد القومي يحمل ظلالاً من النازية الألمانية والفاشية الإيطالية.

وهو يلفت النظر بقوة إلى أن المسلمين قد تخلفوا كثيراً عن الإسلام. فقواعد الإسلام والمباديء التي بشر بها وطبقها قد تخاذل عنها المسلمون وتراجعوا حتى تخلفوا عن الإسلام ألف عام. فالاستبداد قد خنق حرية التفكير، وكذلك العصبيات الإقليمية والعائلية، مما أدى إلى الانغلاق. ولا أمل في إنقاذ المسلمين إلا بصحوة طويلة. ونهضات متوالية. فليس التقدم والانطلاق أمراً سهلاً. ولا هو يتم في عام أو عشرين. ولذلك يجب التطلع إلى الأمام والكف عن النظر إلى الوراء واستخراج قضايا الماضي الفكرية واحيائها والاستغراق فيها . .

وقضية هامة أخرى يعرضها المؤلف، وهي كتابة التاريخ الإسلامي ومن يكتبه، وهي مناسبة أخرى لضبط الألفاظ والقواعد وإحصاء المخاوف والشكوك لدى القاريء. من

الذي يكتب التاريخ؟ الحكومة؟ لا أحد يثق بالحكومات، لأنها سوف تفرض التاريخ على مزاج الحاكم. وسوف تغيره وتبدله.. وهويدعو إلى أن نساهم جميعاً في كتابة التاريخ. بقوة وصدق وحرية. حتى نساعدِ المسلم على أن يعرف حقوقه التي أتى بها الإسلام..

إننا نفتقر إلى مثل هذه الروح الجادة، وإلى هذه الدقة وهذه الموضوعية العلمية.. وإلى ضبط العدسات.. وإلى غطاء ذهبي لهذه العملات الورقية التي تضخمت بها الأسواق السياسية والفكرية.

إن كتاب الأستاذ أحمد بهاء الدين متعة عقلية.

فإذا أنت فرغت منه ووجدت من الضروري أن تتنهد وأن تأخذ نفساً عميقاً، فلأنه قد حبسك في مصنعه. ولأنه قد ضايقك عندما فضحك أمام نفسك بأنك أنت الآخر تستخدم كلمات لا معنى لها، ومن الواجب أن يكون لها معنى مادمت انساناً مسؤولاً عن صدق ما تقول..

-٢-

وأنتقل من كتاب أحببته إلى كتاب أحببته كثيراً. فليس غريباً على عقلي أن ينشغل كثيراً وطويلاً وعميقاً بوضع الحدود والسدود والعلامات في ملاعب الكلمات.. فقد تدربت على ذلك طويلاً، وإن كان هروبي أطول! أما الكتاب الثاني فهو

في صميم الفلسفة. بل هو تصحيح لمفردات الفلسفات المعاصرة. والكتاب اسمه «نظرات حول الإنسان» للمفكر الفرنسي الماركسي سابقاً المسلم أخيراً: روجيه جارودي.. ترجمة د. يحيى هويدي.

فإن كان هذا الكتاب بحراً، فقد تعلمت السباحة فيه على الظهر وعلى الصدر.. وتعلمت الغوص تحت الماء، أحبس أنفاسي سنوات، وأطفو سنوات.. تعلمت حياة كالموت، وموتاً هو الحياة.. وحبست نفسي في قصوره الذهبية وقلاعه الرملية. وتجرأت على تمزيق ستائر الكون، والتهجم على قدس الأقداس وخرجت بطلاً ـ أو متوهماً ذلك ـ فالإنسان هو أعظم المخلوقات.. وإذا كانت المسيحية تقول: إن الله قد خلق الإنسان على صورته، فالفلسفة الإغريقية والوجودية ترى أن الإنسان هو الذي خلق الله على صورته.. وأن الكون من صنعي أنا، ومن تصوري أنا.. فأنا صانع الكون؛ كوني أنا على الأقل!.

ومن ٣٤ عاماً صدر في مصر كتاب عن «الوجودية» أول كتاب في استطاعة أي قاريء غير دارس للفلسفة أن يقرأه.. واختفت منه أربعون ألف نسخة في يوم واحد! وكنت صاحب هذا الكتاب. وصدرت كتب فلسفية مترجمة وملخصة عن الفلسفةالوجودية. وأكثر هذه الكتب لم يلق ما يستحقه من

الاهتمام، وإن كان قد لقي الاهتمام فلم يلق الاحترام، وإن لقي الاحترام فاحترام قلة من الأساتذة تمرسوا على إخفاء مشاعرهم واعتقالها في تخشيبة التحفظ. . أو ألقوا بها في سجن يوسف عليه السلام، نموذجاً للمبالاة ودعوة إلى دفنها . .

وفي ثلاثة أيام قرأت كتاب «نظرات حول الإنسان» الذي ظهرت طبعته الأولى من ٢٥ عاماً . . وعنوانه كان من الأفضل أن يكون : أبعاد الإنسان . . أو رؤى إنسانية . . فالكتاب لا يطلب منك أن تنظر حولك، إنما أن تنظر إليك . . وأن تعيرني وأن أعيرك عيني وعيون الآخرين، لكي تنظر إلى أعمق أعماقك . .

والكاتب الفرنسي الكبير كان ماركسياً متعصباً . ثم انصرف عن الماركسية، لنفس الأسباب التي يطالب بها القاريء بالعدول عن الوجودية الملحدة والوجودية المؤمنة، وعن الظاهريانية والبنائية والشخصانية- وكلها مذاهب فلسفية معاصرة . . وعن التفريعات الفلسفية على هذه المذاهب التي كانت سائدة أو سيدة للتفكير الألماني والفرنسي في خمسينات وستينات هذا القرن . لماذا؟ .

يرى روجيه جارودي - رجاء جارودي وهو أسمه بعد أن أسلم -أن الماركسية تجمدت . أصبحت قوالب حديدية . أو

أغلالاً عقلية. إنها تعوق طموحه السياسي. وتوقف نموه الفكري. وكان أمله أن تستوعب كل المذاهب الأخرى. وأن تطحنها في داخلها وأن تمضي بها لخلاص الإنسان من عذاب الحاكم الفرد.. الرأي الواحد.. المذهب الواحد.. التعصب الديني والفلسفي والسياسي.. ولكنها تحولت إلى نوع من «الكهانة».. إلى الرموز والطلاسم والمحرمات.. انغلقت فاختفت وخنقت، فكان لا بد من الخروج منها والخروج عليها.

ومثل جارودي أدباء آخرون: الكاتب الفرنسي أندريه جيد والكاتب الإيطالي أنياسو سيلونه والكاتب الأمريكي الزنجي ريتشرد رايت والكاتب الإنجليزي المجري الأصل أرتور كوستلر والشاعر الإنجليزي أسبندر وغيرهم.. وهم جميعاً أصدروا كتباً عن «الإله الذي هوى».. أو عن المعبود الذي أسقطوه من حسابهم، وينادون بأن تسقطه البشرية أيضاً. حتى الرسام بيكاسو، وكان شيوعياً مقدساً قد رسم لوحة مشهورة لستالين جعله كالمسيح ـ أي أنه قد أصبح معبوداً! ولذلك أوجب الكفر به.. والدعوة إلى ذلك. وجارودي كفر بربه. ويدعونا إلى الكفران بكل ما هو وثن. بكل ما هو حجر: المباديء والقوالب والاختناق الفلسفي، وتعليق المشانق المذهبية لكل رأي حر..

ولنفس الأسباب عرض علينا جارودي الفلسفة الوجودية. وعندما يفعل ذلك، فهو خبير بدقائق الفلسفة عموماً، والفلسفات الوجودية خصوصاً. فقد أطال النظر واقترب منها وتعمقها. وكان هذا التعمق نوعاً من التسلل في قلب «حصان طروادة». . نفذ إليها وهاجمها من داخلها وكان في قمة اللياقة العقلية ومثلاً عالياً في روعة الأداء، وكل ما تحتاج إليه أنت لكي تطيل هذه المتعة. . هو بعض الفهم الفلسفي وكثير من الصبر على المؤلف والمترجم أحياناً. .

فالمؤلف أشار إلى أن الوجودية قد نقلها الروس من ألمانيا إلى فرنسا. كان أول الروس هو الفيلسوف الوجودي الأرثوذكسي برديائف. ففي سنة ١٩٢٤ ذهب إلى باريس يحدثهم بإيمان عن فلسفة مارتن هيدجر آخر الفلاسفة الألمان العظام، ومن حديثه عن هيدجر وزميله باسبرز تأثر الفيلسوف المؤمن جبريل مارسيل والفيلسوف الملحد جان بول سارتر. فما الذي نقله الروس؟. لقد نقلوا خيبة الأمل الكبرى بعد الحرب العالمية الأولى. ونقلوا المذابح الفكرية للماركسية اللينينية، ونقلوا أيضاً مرارة الهزيمة الألمانية في فلسفة هيدجر؟. . فما الذي قاله هيدجر: لا شيء أكثر من الضياع بعد الهزيمة العسكرية التي أدت إلى انهيارات معنوية وأخلاقية واجتماعية. . فسادت روح اليأس والشعور

بالعدم. . الإنسان: عدم. . وأخلاقه: ندم. . فلم يعد قادراً على أن يفعل شيئاً إلا أن يستسلم. واستسلم لهتلر. استسلم للأسطورة والخرافة والضباب. . واستسلم للغرائز الحيوانية. . فكانت لذته الكبرى أن يلف حبلاً حول عنقه ويمشي وراء «الراعي الذئب» أو الراعي المستبد. . وكان راعي كل الأغنام الألمانية والإيطالية: أودلف هتلر! وحتى عندما سقط الإنسان في شباك هتلر، فما الذي كان يفعله؟ لا شيء. فالحياة اليومية سقوط يومي خراب يومي. . هي جمود على عادات وقواعد. فلم يعد الإنسان إلا حلقة في سلسلة. . حماراً في قطيع. . مسماراً في مصنع. . نحلة في خلية. .

فهو مثل أي شيء آخر: لا شيء. .

وحياته مثل كل نشاط: غريزية. .

وهو مثل كل إنسان: بلا مستقبل. .

أي أنه إنسان بلا إنسانية. .

وعندما ظهرت مؤلفات الفيلسوف الوجودي سارتر في الرواية والقصة والمسرحية، كانت هذه المعاني الفلسفية قد استولت عليه تماماً. ولكنه كان أقدر وأبرع على نشرها. فقد استعان بالفن الجميل على الميتافيزيقيا، واستعان بأصابعه الرقيقة البارعة، فصنع كفناً متيناً لدفن الإنسان بكامل حريته،

فلـم تعـد للإنسـان إرادة إلا إرادة المـوت . . فقـد صادروا حياته . وهتكوا عرضـه ، فهـو في ظل الاحتـلال النـازي بلا شرف . وما دام بلا شرف فهو حر أن يفعل ما يشـاء ، ولا لوم عليه . . فإننا لا نصف العريان بأنـه قليل الحياء . . وأنـت لا تعير الميت بأنه عاجز عن الكلام ! . .

وأبشع ما اهتدى إليه الفيلسـوف سارتـر هو هذا «القـرف» الذي هو طعم الحياة على ألسنة الناس . . فالذي يقـرف من الاشياء هو الذي لا يستطيع أن يفضل بعضها علـى بعض . . فوجودها وعدمـه : سيان . . وقربهـا وبعدهـا : سيان . . فمـا دامـت الأشياء بلا معنـى فلا معنـى للأفـكار والمشاعـر والعلاقات . . فالمقعد لا معنى له ، لأن القعود لا معنى له . . والسيارة لا معنى لها ، لأن الحركة بلا معنى ، والحركة لا معنى لها . . لأن الهـدف بلا معنـى . . والهـدف لا معنـى له ، لأن حريتي في أن أذهب هنا أو هناك لا معنى لها . . فالقـرف أو الغثيان هو الرغبة في أن تعيد إلى العالم الخارجي ما أخذتـه منه . . أو أن يسترد العالم الخارجي ما أعطـاه لك . . فأنـت ترفض ما حولك ، وما حولك يرفضك . .

ورغـم أن سارتـر حاول أن يعقـد «زواجـاً سعيداً» بين الوجـودية والمـاركسية باعتبـار المـاركسية واقعـاً لا يمـكن إنكاره ، فقد حمل الماركسية كل أعباء الـزواج والزفـاف . .

فهي التي دفعت المهر، وهي التي اشترت خاتم الزواج، وهي التي أتت بمن يعقد على العروسين، وهي التي دعت كل الضيوف، وهي التي شاءت أن تجعل الزفاف في أحد المقاهي، وأن يكون المدعوون من العمال، وأن يكون القس الذي يعقد الزواج ملحداً . .

فالماركسية قامت بكل العمل . . أما الوجودية فقد أجلسها سارتر في «الكوشة» . . وكان الزوج هكذا تقليدياً . أو يبدو كذلك . . والحقيقة أنه غير ذلك . . فالوجودية قد فرضت نفسها على الماركسية . ومن أجل ذلك قررت تعطيل إرادة الزوج، وجعلت العصمة بيد الزوجة . .

ولهذا السبب كان لا بد أن يعترض جارودي على كل الفلسفات الوجودية، التي استعارت كل ما في قاموس التعصب الديني واللاديني . فهي قد جردت الماركسية والمسيحية من أسلحتها، ثم سددتها إليها . . إنها ـ إذن ـ قد وقعت في نفس الغلطة . .

وإذا كانت الماركسية تعد العمال بالحياة العادلة وبالجنة في نهاية الحياة، وذلك حين ينعدم الصراع بين الطبقات، فالفلسفة الوجودية قد وعدت المثقفين والعمال بنفس الشيء : بانعدام الصراع بين الماركسية والوجودية وسيطرة الوجودية على كل شيء بعد ذلك ! .

ولن يتوقف القاريء وهو يقرأ الكتاب المشرق العبارة البارع الحجة، إلا عدداً قليلاً من المرات عند بعض الفقرات الغامضة.. أو التراكيب الفلسفية التي تحتاج من المترجم إلى توضيح. ومن المؤكد أن د. يحيى هويدي كان في استطاعته ذلك، فهو أستاذ متمكن لولا أنه خشي من تضخم الكتاب. وهويعلم مقدماً أن مثل هذه الكتب الفلسفية، ليس لها إلا جمهور قليل.. ولذلك فمؤلف الكتب الفلسفية، والمترجم لها يقنع عادة بلذة إصدار الكتاب ورؤيته في نوافذ المكتبات.. ولا يتهور في خياله إلى أن يراه في أيدي الناس، أو مذكوراً في الصحف!.

ولكن الكثير من الأفكار الوجودية الأنيقة الفخمة هي ما يمكن أن يستعان بها لوصف حالتنا المنهارة بعد نكستنا العسكرية وهزيمتنا النفسية وانهيارنا العقلي بعد سنة ١٩٦٧.. وهذه النكسة المعنوية هي التي تغمرنا بالضباب والغموض والخرافات واليأس والمرارة واللامبالاة والسخط والتمرد على ذلك، أو الانشقاق والانفلات والتكفير والتهجير..

وهي أيضاً مصدر فزع للذين يخافون على مستقبل الثقافة المصرية والحضارة العربية.. إذا نحن لم نقم بحملة تفتيش واسعة النطاق بضبط الألفاظ المتداولة التي تجاوزت عمرها الافتراضي فأشاعت الفوضى اللغوية والشوشرة الفكرية..!

لغز سجين القلعة
ردولف هيس والملكة فاطمة !

منتصف ليلة ١٠ مايو سنة ١٩٤١ هبط مجهول بالمظلة . . وترك طائرته الحربية تتحطم وتحترق . . لم يكن خبيراً في الهبوط . . ولكنها محاولته الأولى والأخيرة . .

لقد ظن أن في استطاعته إنقاذ السلام العالمي . . فشل . . واستمرت الحرب بين ألمانيا والدول الأوروبية . . وأمريكا أيضاً . .

وفي تلك اللحظة بدأ السجن الانفرادي الذي استغرق ١٦ ألف يوم . .

ذلك المجهول الذي نزل وحده في الظلام هو رودلف هيس نائب أدولف هتلر في الحزب النازي ووزير الدولة وأقرب الناس إليه . .

وهو الآن سجين وحيد في سجن شبنداو وعمره ٩٢ عاماً !

وقد أصدر أخيراً ابنه فولف هيس كتاباً بعنوان «والدي رودلف هيس» . . وقد حاول الابن أن يعرض قضية ألمانيا كلها وهو يتحدث عن عذاب والده ووحشية الحلفاء . . فليس لهم إلا هدف واحد: تحطيم الشعب الألماني، الذي جعلوه مسؤولاً وحده عن الحرب العالمية الأولى والثانية . . وحتى لا تكون حرب ثالثة، كان لا بد من تمزيق ألمانيا أرضاً وشعباً . . وكان لا بد من تعميق الشعور بالذنب عند كل الأجيال حتى لا يقف ألماني مرة أخرى أو يحمل السلاح دفاعاً عن أرضه . . ولا تزال ألمانيا دولة محتلة حتى اليوم. ولم تفلح كل الحكومات وكل الهيئات الإنسانية من التوسط للإفراج عن السجين المريض: رودلف هيس، رغم أنه بريء من كل التهم التي وجهت إلى أقطاب النازية الذين حوكموا وأعدموا أو سجنوا في أغرب محاكمة في التاريخ ـ محكمة نصبها المنتصر المهزوم!

ولِدَر ودولف هيس بأبي قير يوم ٢٦ أبريل سنة ١٨٩٦ . وكان أبوه تاجراً غنياً. وقد كان المصريون يعتقدون أنه يهودي متعصب، فأكثر الذين يعملون في شركته من اليهود الألمان. واليهود المصريين أيضاً. والحقيقة أنه لا يحبهم ولكنه يستفيد من خبرتهم في إدارة الأعمال وتسويق البضائع .

والذين عرفوا رودلف هيس في الاسكندرية لم يلحظوا عليه

شيئاً غير عادي. إنه طفل أبيض اللون غليظ الحاجبين كثيف الشعر عميق العينين الزرقاوين قليل الكلام.

زميل له في الدراسة هو الذي حدثنا عن غرامياته. أحب فتاة مصرية. كانت تتكلم الألمانية بطلاقة وتحب الموسيقى. تنظم الشعر. مسلمة. حاولت إقناعه بأن يصير مسلماً. لا نعرف إلا اسمها: فاطمة. ولا نعرف من هو أبوها وأخوتها.. لا نعرف.. فقط زميل لها في الدراسة كتب قصة لقائهما معاً. عنوان القصة: «فاطمة هيس ـ ملكة ألمانيا». والمؤلف هو الشاعر الإيطالي فرناندو أكواريني، ظهرت هذه القصة يوم أدخلوا رودلف هيس السجن مدى الحياة. وتخيل الأديب الإيطالي أن هيس سوف يخلف هتلر على عرش ألمانيا، وأنه سوف يعين نفسه ملكاً على ألمانيا وتكون فاطمة أول ملكة مصرية على عرش ألمانيا..

وتبدأ القصة بأن يلتقي الصديقان في سويسرا في بيت فاطمة على بحيرة لوتسرن. ولا نعرف كيف التقى الاثنان. ولا كيف جاءت فاطمة بفستان رقيق مشقوق من كتفيها حتى قدميها.. وراحت ترقص على موسيقى غربية وشرقية.. وكأنها وحدها. كأنها ترقص أثناء النوم.. ثم تغير فاطمة فستاناً بعد فستان.. إنها سعيدة بأن تراقص الموسيقى أو تعانقها أو تقبّلها.. ثم تغير ملابسها.. وفي كل مرة يكون الفستان أقصر.. وتنطفيء

الأنوار. . أو تكاد. . وترقص فاطمة عارية. . إنها نشوة سحرية موسيقية غنائية خرافية!!

وهل أغمي على رودولف هيس؟. . هل جاء أحد ونقل الاثنين إلى المستشفى. . إن فاطمة لا تتوقف عن الرقص. . هل هي موجة في بحر. . وقد أصبحت لها ساقان جميلتان. . هل هي نغمة موسيقية لحماً ودماً وساقين وذراعين وابتسامة صافية وعينين واسعتين جميلتين. . لمن ترقص فاطمة؟ لمن ترقص صاحبة الجلالة؟! له. .

هذه هي اللوحة الفنية النبيلة الوحيدة في كل حياة رودلف هيس. .

وبعد ذلك لا شيء إلا السياسة وأحلام الفتى الألماني أن يكون قادراً على الانتقام من الحلفاء الذين أذلوا ألمانيا بمعاهدة فرساي والذين يريدون دفن الألمان أحياء ـ لا لشيء إلا حقداً على الشعب الألماني وخوفاً من القوة الألمانية. . ولذلك تحطمت ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى. وانهزمت في كل ميدان : في الحرب والاقتصاد والسياسة والصناعة. ولذلك فالشعب الألماني يريد أن ينتقم. وأن يعاقب الذين أهانوه ومسحوا به أرض أوروبا ولطخوه بالطين والعار في كتب التاريخ وعلى شاشة السينما. . ولا بد أن يجيء أحد من صميم الشعب الألماني ينتقم له، وينتصر به. .

ولكن هيس لم يقل لصديقه كيف؟ ولا متى؟ ولكن إذا ظهر هذا الشخص المجهول فسوف يلتف حوله الشعب الألماني ويمشي وراءه ولو كان ذلك إلى الموت . .

وهذا ما حدث . فقد ساروا جميعاً وراء هتلر.

وقد التقى رودلف هيس بهتلر صدفة . استمع إليه يخطب . ونظر إلى وجه الرجل وتعمق عينيه وتلمس أثر صوته في قلبه فقال في نفسه : هذا هو الرجل . هذا هو الأمل!

وكان هيس قد اشترك في الحرب العالمية الأولى . وحارب متطوعاً في معارك كثيرة على الجبهة الفرنسية . وأثبت شجاعةً وبطولةً . وكانوا يسمونه المتطوع الأول . . فلا يكاد رؤساؤه يطلبون من أحد يتطوع يعمل على الجبهة ووراء خطوط الأعداء ، حتى يكون رودلف هيس أسرع من يستجيب!

ويحكي لنا ابنه فولف أن والده عندما هبط بالمظلة في اسكتلندا كان في الثالثة من عمره . ولا يعرف من هو أبوه ولا مكانه في ألمانيا . حتى أن أحد التلاميذ الصغار كان يعيره بقوله : أبوك نازي . فكان يرد عليه : وأبوك أنت أيضاً . ويقول له الطفل : ولكن أبوك نازي أكبر!

ولما كبر فولف ابن رودلف هيس أخذ يدرك بالتدريج حقيقة والده . . وقصة هبوطه ثم محاكمته وإدانته . . وإيمانه المطلق

بأن والده بريء . . لقد أراد السلام فحاكموه بتهمة أنه مجرم حرب!

ووقف حياته كلها على الدعوة لاطلاق سراح والده . .

وفي سنة ١٩٥٩ كان لا بد أن يلتحق فولف بالجيش الألماني ولكنه رفض . طلب من الدولة أن تلقي القبض عليه وتجنده بالقوة . فقانون التجنيد هذا قد وضعه أبوه وأدين بسببه ، فكيف يفرضونه على ابنه؟!

وكان موضوعاً مثيراً في كل الصحف الألمانية . ولم تجرؤ الدولة على استدعائه!

* * *

كانت الحرب مشتعلة من ١٨ شهراً قبل أن يهبط رودلف هيس بطائرته في اسكتلندا .

هذه الطائرة قد أعدت له وفقاً لمواصفات وضعها هو . فهو طيار قديم . فقد ذهب رودلف هيس إلى مصانع مستر شميت وطلب طائرة مقاتلة قاذفة قنابل بمقعدين وفضل أن تكون بمقعد واحد . . وقال إنه يريد أن ينتقل بها سراً بين المدن الألمانية وملاحقة هتلر في أي مكان . وكانت الطائرة التاريخية من طراز (مي - ١١٠ أي - ١ - ٢) مداها ٤٢٠٠ كيلومتر أو عشر ساعات طيران وقوة محركها ١٤٠٠ حصان وسرعتها ٤٢٠ كيلو

متراً في الساعة. أي إنها سوف تقطع الرحلة إلى اسكتلندا في حوالي أربع ساعات.

وفي اليوم السابق على سفره بعث برسائل شخصية لهتلر وعدد من الزعماء الألمان.. وزاره في بيته فيلسوف النازية الفريد روزنبرج. ولكن أحداً لم يعرف سبب هذا اللقاء.. وكان رودلف هيس يتلقى نشرة الأرصاد الجوية عن شمال ألمانيا وبحر الشمال والجزر البريطانية. وهذه النشرة من أسرار الحرب. ولكن كان رودلف هيس يملك أن يصدر قرارات من أي نوع وفي أي وقت وواجبة التنفيذ - لأن مكانته معروفة في الحزب.

وقد لوحظ أنه في الأيام السابقة على رحلته الغامضة لا يتناول الطعام. وإنما فقط بعد الغروب.. وكأنه في رمضان. هل صحيح أن فاطمة المصرية قد سافرت إليه؟ هل أطلعها على مهمته السرية؟ هل طلبت إليه أن يصوم ثلاثة أيام - على طريقة المسلمين؟ هل كانت تصلي من أجله؟ هل كان هو يصلي؟ وقد وجدوا عنده مصحفاً! هل كان الضابط الذي لم يكشف عن وجهه ولا يعرف أحد اسمه وقف إلى جواره عند ركوب الطائرة هو فاطمة. وقد تنكرت في ملابس رجل؟ هل فشلت في إقناعه أن ترافقه إلى اسكتلندا؟ هل وضعت في جيبه شيئاً عندما ودعها ليركب الطائرة ليبدأ أعقد وأغرب المهمات

العسكرية والسياسية في التاريخ الحديث!

عندما رأته زوجته قد ارتدى زي الطيران دون أن يعلق النياشين سألته: متى ستعود؟ قال: ربما غداً أو بعد غد!

فخرج ولم يعد حتى الآن.

انطلقت الطائرة متجهة إلى الشمال.. ارتفعت فوق السحاب. السماء صافية تماماً. لم تكن له دراية بقيادة مثل هذه الطائرة. ولكن الذي في رأسه وفي قلبه وأمامه شيء جليل ـ أنه يريد السلام. إنه وطائرته غصن زيتون تقدمه ألمانيا لبريطانيا حتى لا تستمر الحرب تأكل الأبرياء في أوروبا وإفريقيا وآسيا..

اتجهت الطائرة إلى بحر الشمال.. الطائرة وحدها.. والطيار وحده وعندما التقى رودلف هيس بابنه بعد ذلك قال له: لم يكن في رأسي شيء سوى الهدف.. أحسست أنني قذيفة موجهة!

وبالقرب من الشواطىء البريطانية انطلقت وراءه طائرتان.. وكان هو أسرع من الطائرتين. وتابعتاه بعض الوقت. ثم اختفت الطائرتان. ولا بد أن شبكات الرادار الإنجليزية قد رصدته.. ولكن لم تنطلق عليه قذيفة واحدة.. ثم اتجه إلى الغرب إلى ساحل اسكتلندا.. ولا بد أن يكون لهذه الطائرة الوحيدة في السماء هدير عنيف.. ثم استدار

يميناً وشمالاً . . وعرف المكان الذي سوف يهبط فيه . . وقفز هو بالمظلة . وترك الطائرة تسقط وتحترق . وعندما هبط اصطدم ببعض الأشجار فانكسرت ذراعه . . ولكنه أفلح في أن يتخلص من المظلة . ولم يجد أحداً في انتظاره . فظل ملقياً على الأرض . حتى جاء رجل وابنه ومعهما كلب . فقال الأب لابنه : لعله رودلف هيس!

ولكن الابن لم يدرك بوضوح ما الذي قاله أبوه . ثم التفت الأب لابنه يقول : كأنك لم تسمع شيئاً . فهذا الذي قلته لك سر تماماً!

ثم أخذ الأب يبحث بجوار الطائرة التي تحطمت عن قائدها . وأخيراً اهتدى إلى مكانه . ونقله إلى أحد المستشفيات فبادره هيس قائلاً : أنا الكابتن هورن . . جئت في مهمة سرية هامة جداً . . وأريد أن التقي بالكابتن هاملتون فوراً فليس عندنا وقت نضيعه .

وبسرعة جاءت قوات الشرطة العسكرية وتولوا حراسته في الطريق إلى المستشفى . وبسرعة فتشوه . فلم يجدوا معه سلاحاً . وإنما فقط بعض العقاقير والصور العائلية وكاميرا . ونسى أن يأتي معه بفرشاة أسنان ـ فقد اعتقد أن مهمته سوف تستغرق يوماً أو بعض الأيام . وبعدها يعود إلى ألمانيا .

وجاءه الكابتن هاملتون . قائد هذه المنطقة العسكرية

والمسؤول عن الدفاع الجوي. وكان قد التقى به قبل ذلك أثناء الدورة الأوليمبية في برلين سنة ١٩٣٦. وكانا قد تناقشا في ذلك الوقت عن إمكانية الصلح أو السلام مع بريطانيا ضد روسيا عن طريق لقاء سري في سويسرا.. أما الذي جمع بينهما فهو أستاذ له في الجامعة يؤمن بالسلام ويتمنى لو تحقق ذلك دون حرب..

ثم أن رودولف هيس قد بعث إليه برسائل عديدة قبل رحلته هذه يسأله إن كان ما يزال يرى إمكانية السلام. وكان الجواب أن هذا ممكن.

ولم يشأ رودلف هيس أن يقوم برحلته هذه وبريطانيا منتصرة في شمال إفريقيا، حتى لا يقال إن ألمانيا تطلب السلام من موقع الهزيمة والضعف وإنما انتظر روميل حتى يسحق قوات الحلفاء في إفريقيا وفي أوروبا أيضاً ـ لقد أراد أن يطلب السلام من موقع القوة.

وبسرعة اتصل هاملتون برئاسة الوزراء وطلب أن يتحدث إلى تشرشل شخصياً. فرد عليه سكرتير تشرشل وقال له: هل نزل أحد في اسكتلندا؟ فأجابه: نعم.

فسأله: رودلف هيس؟

قال: نعم..

ولكن تشرشل رفض أن يتحدث إليه وقال لسكرتيره أريد أن أرى فيلماً هزلياً سواء كان الذي هبط هو هيس أو هو هتلر!

وصدرت التعليمات باستجواب هيس ومعرفة الأسباب التي جاء من أجلها . . ومعرفة موقف ألمانيا من بريطانيا ومن الحرب ومن محاصرتها ، وإن كان هتلر يريد غزو روسيا ، كما تقول الشائعات . وما هي الاقتراحات التي يتقدم بها هيس .

ولم يصدق تشرشل أول الأمر، أن يوفد هتلر نائبه . . ولا بد إنها خدعة . . وإن الذي هبط هو واحد شبيه بهيس . ولذلك طلب بالبحث عن شخص يعرفه تماماً . فوجدوا السير كيركباتريك الذي كان مستشاراً في السفارة البريطانية ببرلين والذي يعرفه جيداً . . وعثروا عليه وبعثوا به للقاء رودلف هيس . .

وذهب إليه . . وبسرعة دارت المناقشة بين اثنين يعرفان الواحد الآخر تماماً . وانسحب كيركباتريك ليؤكد لتشرشل أنه هو: رودلف هيس!

وبسرعة أصدر تشرشل توجيهاته بالتحقيق المستمر مع هيس ، وإثبات أنه رجل ساذج مجنون . . وعدم ذكر شيء عن رحلته هذه . .

ولم يجدوا عند رودلف هيس أية معلومات عن غزو ألمانيا لروسيا . .

ونفى أن يكون هتلر يريد تجويع بريطانيا ومحاصرتهـا. وإنما يريد السلام معها والتحالف ضد الروس..

يقـول ابـن هيس: إن تشرشـل لم يتحمس للسـلام. فهـو بريطاني نصف أمريكي.. وأباؤه وأجداده هم الـذين أقامـوا الامبراطورية البريطانية. وهو أيضاً استعماري متغطرس يريد القضاء على ألمانيا والشعب الألماني ولا يريد السلام معها قبل تحطيمها. ولذلك لا يريد أن تتوقف الحـرب.. فهـو ينتظـر دخول أمـريكا الحـرب، فإذا دخلـت، فسـوف يكون أسعـد إنسان في الدنيا. ودخلت أمريكا الحرب بعد الهجوم الياباني على أسطولها في بيرل هاربور.. فألقت أمريكا قنبلتها الذرية على اليابـان، ودخلـت الحـرب في أوروبـا ضد ألمـانيا.. ويومها أقفل تشرشل الباب وقال: دعوني! الآن أستـطيع أن أنام بعمق!

وانتهز تشرشل هذه الفرصة وألقى خطابه الشهير الذي وجهه إلى هتلر: إذن هي الحرب حتى النصر!

وأعارت بريطانيا سبع قواعد لأمريكا لمدة ٩٩ عاماً.

ورفض تشرشل أن يقدم لأمـريكا أية معلومـات عن رحلـة هيس.. ومنع سفر كل الذين اتصلوا بهيس حتى لا ينقلوا ما لديهـم من معلومـات إلـى الحكومـة الأمـريكية أو الصـحف

الأمـريكية . وأنـزل على هيس ستائـر من الـكتمان والسرية التامة . وأعلنت ألمانيا أن هيس قد اختفى في ظروف غامضة .

هل كان هتلر يعرف تفاصيل هذه الرحلة؟

هل لأنها فشلت تنصل منها؟

هل لو نجحت كان يتنصل منها هتلر وجوبلز وزير الدعاية وهملر رئيس الجستابو؟ هل كان هتلر يعرف عن إقدام هيس على هذه المغامرة ، ولـكن هيس فاجـأه باختياره هو للمـكان والزمان . .

هل أراد هيس أن يقدم لسيده وبطلـه ومثلـه الأعلـى هذه الهدية وسط حشود الحرب والدمار في كل مكان؟

ومن الذي أكد لهيس أن هذه رحلة مضمونة؟

هل كانت المخابرات الروسية أيضاً وراء هذه المغامرة؟ . هل كان هيس يمثل «المعارضة» الألمانية ضد هتلر؟ . هل كان هيس يريد أن يفضح هتلر ويسقطه؟ .

من المؤكد أن هيس كان عابداً لهتلر. ولذلك يستحيل أن يقوم بدور الخائن له . . فهل اتفقت المخابـرات البريطـانية والجستابو على استدراج هيس والتخلص منه . . كيف تصيده الإنجليز . . ثم حبسـوه . . ولـم يستخدمه تشرشـل موضوعــاً للدعاية ضد ألمانيا . . وإنما اكتفى بوجوده عندهم ، دون أن

يجعلوه قضية يتناولها مجلس العموم والصحف . . إن تشرشل لا يريد أن ينشغل لحظة واحدة عن الحرب ومن التحالف مع الشيطان ضد هتلر . . وكان الشيطان هو ستالين . . ولا يريد أيضاً أن يحدث أي شيء يباعد بين أمريكا وإعلانها الحرب على ألمانيا واليابان .

ولذلك اخترع تشرشل نظرية من عنده هي : أن رودلف هيس يعاني من «عقدة نقص» ـ فقد أحكم أقطاب النازية الحصار حول هتلر، ولم يستطع هو أن يواجههم . فهو يعتمد على حب هتلر له وإعجابه به . . ولذلك قرر أن يقوم بعمل خرافي صارخ، لايقدر عليه أحد سواه : الصلح مع بريطانيا . . . السلام!

ثم دارت حرب الدعاية البريطانية ـ تنفيذاً لتعاليم تشرشل ـ بأن رودلف هيس رجل مجنون . وإنه قد استقر في أحد المستشفيات العقلية . ومعنى ذلك حذف اسمه تماماً، فليس له دور سياسي ولا أهمية عسكرية!

وأعلنت ألمانيا أن هيس قام بمبادرة شخصية منه وسافر إلى بريطانيا . وإنه ضحية المخابرات البريطانية . .

وفجأة زحفت القوات الألمانية وغزت روسيا . .

وفي لقاء بين ستالين وتشرشل في موسكو وقف ستالين

قائلاً: فلنشرب نخب المخابرات البريطانية!

يقصد أن المخابرات البريطانية هي التي استدرجت رودلف هيس..

والذين عرفوا هتلر في ذلك الوقت وجدوه حزيناً على الذي فعله هيس. وكل المذكرات العسكرية تشير إلى ذلك..

ولما مات أبو رودلف هيس في أكتوبر سنة ١٩٤١ بعث هتلر ببرقية تعزية طويلة وأوفد مندوباً عنه في الجنازة.

وموقف تشرشل من رودلف هيس يدل على ما سوف يلقاه زعماء النازية بعد الحرب فقد كانت الحراسة على رودلف هيس عسكرية. ثم إنهم أودعوه أحد السجون ـ أي أنه مجرم حرب!

ثم نقلوه إلى بيت قريب من لندن في حراسة مشددة. وسمحوا له ببعض الكتب. وبعض الصحف التي تتحدث عن انهيار الأسطول الألماني. ومنعوه من الاستماع إلى الراديو ـ مع استمرار الاستجواب ليلاً ونهاراً. ولم يكن لرودلف هيس إلا مطلب واحد أن يأتوه بجزء من حطام الطائرة التي تحطمت، كذكرى يحتفظ بها عندما يعود إلى ألمانيا؟!

ولما سئل هيس عن موقف ألمانيا في الشرق الأوسط قال: إن ألمانيا لن تتخلى عن العراق الذي ثار على الحكم

البريطاني . . فالعراق له مكانة خاصة . فهو طريق البترول بين الخليج والبحر الأبيض المتوسط. وألمانيا ملتزمة بالدفاع عن العراق . .

إذن ألمانيا لها خطط توسعية في الشرق والغرب وليست كما يقول هيس تريد السلام في داخل حدودها!

أما التقرير النهائي أمام تشرشل والخاص برحلة رودلف هيس فيتلخص:

أولاً: إن رودلف هيس قد جاء بمبادرة منه وحده . فهتلر لا يعلم .

ثانياً: إن أحداً من أقطاب النازية لا يعرف ذلك . بل كان حريصاً على أن تظل رحلته سراً تماماً .

ثالثاً: إنه لا يمثل أحداً من الأجنحة النازية المتضاربة .

رابعاً: ليست لديه أية معلومات عن أسرار القتال . . وهو لا يدري تماماً إن كان في نية هتلر غزو روسيا . .

أما تعليق تشرشل على ذلك فهو في غاية الوضوح: يجب ألا نسرف في أهمية هذه المغامرة . ويجب ألا ننسى أنه شريك في المسؤولية عن هذه الحرب .

وبهذه العبارة تحدد مصير رودلف هيس نهائياً!

* * *

ونقـل رودلف هيس إلـى جوار زملائـه أقطـاب النـازية لمحاكمته في «محكمة نورنبرج» الشهيرة. . وعندما نقـل من بريطانيا إلى ألمانيا، رأى الدمـار والخـراب من الجـو وفـي الشوارع . .

وقـد تشكلـت المحكمـة من ستـة من القضـاة الإنجليز والفرنسيين والروس. أما الحراسة فقد كانت للبوليس الحربي الأمـريكي. وكان في المحكمـة وكلاء النيابـة والمحامـون والمتهمون الأربعة والعشرون والصحفيون من جميع أنحـاء العالم.

في الجلسة الأولى كان عدد الحاضـرين ٣٠٠ واستغرقـت المحاكمة ٢١٦ يوماً. وبعدها أدين الجميع، رغم اعترافهـم بأنهم أبرياء.

وأقيمـت هذه المحكمـة تطبيقـاً للمـادة ٢٢٧ من معاهـدة فرساي التي اتهمت الألمان وحدهم بإشعال الحرب العـالمية الأولى.

وفي الساعة العاشرة من صباح يوم ٢٠ نوفمبر سنـة ١٩٤٦ دخل ضابط طويل عريض وصرخ: محكمة!

فـوقف الحاضـرون جميعـاً: وكلاء النيابـة و ٢٢ محـامياً ومثلهم من السكرتارية والمساعدين والمختزلين والمتـرجمين والصحفيين.

وكان رودلف هيس قد ادعى فقدان الذاكرة، فقد أرهقته الاستجوابات ولذلك أعلن في المحكمة أنه يستطيع أن يجيب عن أي سؤال وأنه مسؤول تماماً عن كل قرار اتخذه. وأنه لن يأسف على ذلك.. ولكنه بريء تماماً من كل ويلات الحرب، ثم أنه حاول أن يتوسط للسلام.

وصدر الحكم على المتهمين جميعاً يوم ١٨ يوليو سنة١٩٤٧:

١ - هيس - السجن مدى الحياة.

٢ - جورنج بالإعدام ولكنه انتحر.

٣ - رينبتروب بالإعدام.

٤ - لاي - انتحر قبل محاكمته.

٥ - كايتل بالإعدام.

٦ - كالتنبرونر بالإعدام.

٧ - روزنبرج بالإعدام.

٨ - فرانك بالإعدام.

٩ - فريك بالإعدام.

١٠ - شترايخر بالإعدام.

١١ - فونك بالسجن مدى الحياة، ولكنه أفرج عنه في ١٦ مايو سنة ١٩٥٧.

١٢ ـ شاخت أطلق سراحه .

١٣ ـ كروب أطلق سراحه .

١٤ ـ دنتس بعشر سنوات .

١٥ ـ ريدر بالسجن مدى الحياة ولكن أطلق سراحه يوم ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٥٥ .

١٦ ـ شيراخ بالسجن عشرين عاماً ، ولكنهم أطلقوا سراحه أول أكتوبر سنة ١٩٦٦ .

١٧ ـ ساوكل بالإعدام .

١٨ ـ يودل بالإعدام .

١٩ ـ بورمان بالإعدام غيابياً .

٢٠ ـ بابن ـ بالبراءة .

٢١ ـ سايس ـ نكفارت بالإعدام .

٢٢ ـ اشبير بالسجن عشرين عاماً وأطلق سراحه أول أكتوبر سنة ١٩٦٦ .

٢٣ ـ نويرات بالسجن ١٥ عاماً وأطلق سراحه يوم ٦ نوفمبر سنة ١٩٦٦ .

٢٤ ـ فريتشه بالبراءة .

* * *

فظل هيس هو السجين الوحيد في قلعة ضخمة طوال العشرين عاماً الماضية . في زنزانة يحرسها ١٢٨ من ضباط الحلفاء ـ ٣٢ من كل دولة . والسجن في برلين محاط بأسلاك كهربية .

أما تعليمات السجن فواضحة . وقدموها لرودلف هيس من اللحظة الأولى . يجب أن يقف تحية للجنود والضباط وأن يخلع غطاء الرأس . وأن يستسلم لكل الاجراءات دون مناقشة ودون تردد . وأن يجيب على كل الأسئلة أياً كانت . . وعليه أن يخلع ملابسه تماماً كل صباح ليقوم الضباط بتفتيشه تفتيشاً دقيقاً عميقاً أيضاً ، خوفاً من أن يكون قد أخفى سلاحاً ينتحر به . والمناداة عليه برقمه : السجين رقم سبعة ، رغم أنه السجين الوحيد . ولا ينادى عليه بالاسم . وعليه عندما يصحو أن يرتب فراشه بنفسه وأن يغتسل وأن يغسل أسنانه . وألا يحدث أي ضوضاء وألا يتكلم بصوت مرتفع حتى لو كان وحده . . وألا يقترب من النافذة التي ترتفع عن الأرض ثلاثة أمتار ! وأن يبعث لأهله خطاباً كل شهر . وأن يكون الخطاب واضحاً ، وألا يكتب ملاحظات في الهوامش ، وألا يشطب كلمة واحدة !

هذا يحدث كل يوم ويأخذون نظارته كل ليلة ، ويعيدونها في اليوم التالي ، حتى لا يستخدمها في محاولة الانتحار !

ومن حق الضابط المكلف بحراسته أن يقتحم الزنزانة وأن يوقظه ليُتأكد إن كان حياً، أو كان قد حاول الانتحار ـ ولا يحق للسجين أن يستنكر ذلك وإلا وقع تحت طائلة قوانين صارمة!

وأمام زنزانة رودلف هيس يوجد كُفن احتياطي!

* * *

الويل للمغلوب ـ عبارة ألمانية شهيرة. وليس بين دول العالم ولا بين شعوبه من يعرف مدى بشاعة هذه العبارة مثل الألمان اليوم، الذين احتلتهم أمريكا وبريطانيا وفرنسا. والذين يعمقون لديهم الشعور بالهوان والإثم، في الكتب وفي السينما.. ويقاومون كل النزعات التي تريد طرد المحتلين الذين أهانوا المغلوب بكل الوسائل.. وفي ألمانيا نزعات فردية عنيفة، ونزعات معادية لأمريكا وللحلفاء.. وهذه النزعات ليست إلا نوعاً من رد الفعل والرغبة في الانتقام.. ثم إن هناك نظريات في السياسة والفلسفة تؤمن بأن ألمانيا لم تكن مجرمة حرب.. وإنما هي لجأت إلى الحرب دفعاً للشيوعية والصهيونية.

وهناك نظريات تؤكد أن النازية والصهيونية كانتا على وفاق ضد الشيوعية.. وإن الذين أدخلوا غرف الغاز لم يكونوا كلهم من اليهود المعارضين لهتلر، وإنما كان هناك خصوم لألمانيا أيضاً.. وأن هتلر كان على علم باليهود الذين هاجروا

من ألمانيا إلى فلسطين ـ وإنه تقاضى ثمناً مادياً لذلك من الأموال والمعلومات . .

وقد حاول فولف رودلف هيس أن يحصل لأبيه على الإفراج الصحي ، فلم يستطع . فلا تزال دول الاحتلال ترى أن يظل هذا الرجل سجيناً حتى الموت . . حتى يموت ومعه كل أسرار ألمانيا ، وكل أسرار الدعوة للسلام . . ولن تسمح قوات الاحتلال بنشر الوثائق الخاصة بالمحاكمة والخاصة برودلف هيس إلا سنة ٢٠١٧ ؟ !

. فهم حريصون على موت هيس في السجن ، لأنه الرجل الوحيد الذي يعرف أكثر ، ولأنهم لا يريدون أن يفضحهم ـ فهم لم يريدوا السلام ، وإنما يريدون الاستسلام بعد القضاء على ألمانيا العسكرية والشعبية . . فرودلف هيس ليس مواطناً ألمانياً عظيم المستوى ، ولكنه رمز للشعب الألماني الذي يجب أن يبقى سجيناً محصوراً مغلولاً حتى الموت ـ إن أمكن ذلك !

* * *

وفي نهاية قصة الأديب الإيطالي فرناندو أكواراني ، وبعد أن أصبح رودلف هيس ملكاً على ألمانيا ، ينفرد الملك هيس بالملكة فاطمة . ويقول لها :

ـ هل تذكرين ؟

ـ نعم . . كل شيء .

ـ هل تعرفين ما الذي أقصد .

ـ أعرف تماماً أنت تريدني أن أعيد إليك تلك الليلة . . تلك الليالي . . يوم كنا وحدنا . . أنت نصف عريان . . وأنا عريانة . . أنت ترقبني وأنا أرقص حالمة . . غارقة في الموسيقى . . أنا لا أستطيع أن أنسى .

ـ ولا أنا . . لم أعد أرى إلا صورتك مع كل موسيقى . . لم أعد أسمع الموسيقى إلا إذا رأيتك . . وإذا رأيتك لم أعد أراك إلا عارية . . نصف عارية . . ما هذا يا فاطمة . . سحر . . أنت ساحرة .

ـ بل أنت الساحر . .

ـ بل نحن مسحوران . . هل تعرفين الذي أتمناه الآن . .

ـ أعرف . .

ـ أريد . .

ـ تريد أن تراني أرقص حتى الموت . موتي وموتك . . وتنهض أنت أيضاً ترقص . . ما هذا؟ ما الذي تسميه؟ هل نحن وثنيان . . هل نحن من عباد النار . . هل نحن . .

ـ بل نحن الموسيقى والرقص . . الجمال والحب والحياة . الغناء . . الذوبان . . التوحيد . الوحدة . . الشرق

والغرب. . القمة الواحدة لكل ما في الكون من جمال وكمال. . هل تذكرين الصمت. . لم نكن نتكلم. . لا حاجة إلى الكلام. . أنت تدخلين عيني وأذني وقلبي. . واستطيع أن أغمض عيني فأراك وأسمعك. . ما هذا يا فاطمة. .

ـ هذا؟ هذا. . إنه الذي لا يوصف. . إنه الذي لا نجد له اسماً. . هذا هو هذا. . أحبك. . أحببتك وسوف أظل أحبك. . وأنت؟

ـ ليس عندي كلام يكفي لما أشعر به. .

ـ أهو الحب؟

ـ الحب كلمة أصغر من أن توصف. . الحب مثل كف طفل صغير، يريد أن يحتوي جبال الألب!

ـ هل تريدين شيئاً؟

ـ نعم. . أن تعود إلى الإسكندرية! ويضحك ويقترب منها ويعانقها. . ويذوب في شفتيها. . في عينيها. . ولا يقول شيئاً. فهو يريد أن يبقى ملكاً عاشقاً. . وأن يظل ملكاً. وأن يحلم مع فاطمة من حين إلى حين، بكورنيش الإسكندرية حيث ولد بالقرب من موقعة أبي قير البحرية. . يوم أغرق نلسون أسطول نابليون!

سر الفلاشا:
«عملية موسى»
لترحيلهم إلى إسرائيل

«الفلاشا» كلمة أمهرية معناها: الغرباء.. الأجانب.. أو الملعونون! إنهم يهود الحبشة.. ولذلك فهؤلاء اليهود الأحباش يكرهون هذه الكلمة. وقد ألقوا هذه الكلمة مع ملابسهم الممزقة عندما وصلوا إلى إسرائيل وقبل أن يصل الفلاشا إلى إسرائيل، سراً وعلناً، بحراً من السودان وكينيا إلى ميناء إيلات ومن الخرطوم إلى بروكسل ومن الخرطوم إلى بير سبع، كان يهود إسرائيل على خلاف شديد. جماعة يقولون أنهم ليسوا يهوداً. وإسرائيل ليست في حاجة إلى مزيد من وجع القلب. يكفيها ما لديها من يهود مصر القرائين ويهود الهند بنو إسرائيل ويهود المغرب «الملح» أن يكفي هذا العدد الكبير من اليهود الشرقيين: السفرديهم..

وهؤلاء اليهود الأحباش قد انعزلوا أكثر من ألف سنة عن يهود فلسطين، ولذلك فهم لا يعرفون الديانة اليهودية معرفة تامة.. ثم انهم أدخلوا عليها تعديلات بسبب عزلتهم

جعلنها بعيدة عن الديانة اليهودية . . ثم أنهم سود . .

وآخرون قالوا : بل يهود . . من نسل الملك سليمان . . وأمهم الأولى هي بلقيس ملكة سبأ . . وهم القبيلة الضالة لقد جاءوا إلى الحبشة عن طريق اليمن . . أو عن طريق السودان . . أو أنهم خرجوا مع موسى عليه السلام من مصر في القرن الثاني عشر قبل الميلاد . . أحفاد قبيلة «دان» الضالة . . فهم يهود في جميع الأحوال . ولذلك يجب مساعدتهم واحتوائهم حتى لا يتحولوا إلى المسيحية فراراً من العذاب الذي يلقونه في عهد المسيحيين أيام الأمبراطور هيلاسلاسي ، وأيام الماركسيين في عهد الرئيس منجستو.

والذين يصفون الفلاشا بأنهم يهود ٧٠٪ يرون أنه من السهل تحويلهم إلى اليهودية : يكفي أن يعلن الواحد منهم أنه سوف يتمسك بالوصايا العشر أي تجديد العهد مع الله . .

وكان بن جوريون مؤسس دولة إسرائيل يقول : يكفي أن يعلن أي إنسان أنه يهودي ، ليصبح يهودياً !

وابن بن جوريون هذا عمل جندياً في الجيش البريطاني في الحرب العالمية الثانية . وتزوج فتاة مسيحية تحولت إلى الديانة اليهودية . فلم يعترض على ذلك أحد . .

ولما سئل مناحم بيجين إن كان الفلاشا يهوداً شرقيين قال

إنه على يقين من أنهم ليسوا يهوداً غربيين!

ولكن لم يتوقف لحظة عن البحث عن وسائل إيوائهم في إسرائيل.

وأول خبر نشرته مجلة عربية عن تهجير الفلاشا من أثيوبيا عن طريق الخرطوم، جاء في مجلة «أكتوبر».. فقد كتبت هذا الخبر بعناية وحذر شديد.. لأن معناه أن السودان يساعد على تهجير اليهود إلى إسرائيل تدعيماً لقدرتها على البقاء والحرب..

وتناقلت الخبر وكالات الأنباء ونشرته صحف إسرائيل حرفياً دون إضافة. ورأت في ذلك الخبر اعترافاً رسمياً من مصر ومباركة كاملة لتهجير اليهود من الخرطوم إلى إسرائيل.

ورأت هذه الصحف أنني لا بد أن أكون قد استأذنت الرئيس حسني مبارك في نشره. وأنه وافق. ولا بد أن يكون الرئيس مبارك قد اتصل بالرئيس نميري وأن اتفاقاً بينهما قد تم على النشر. وربطت هذه الصحف بين نشر الخبر وسفري إلى الخرطوم ومقابلتي للرئيس نميري.. مع أنني كنت قد سافرت إلى الخرطوم بتعليمات من الرئيس مبارك لكي اطلع الرئيس السوداني على شكل مجلة «وادي النيل» التي تشرفت برياسة تحريرها، ولكي أعرف منه الوقت الذي يراه مناسباً للصدور.

ولم يكد الخبر ينتقل في العالم حتى جاءني تكذيب رسمي

من وزارة الخارجية السودانية. وكان لا بد من نشره.

وفي لقاء مع السيد أبو بكر عثمان أمين عام التكامل قال لي: أن الرئيس نميري قد غضب من نشر هذا الخبر الكاذب!

ونشرت التكذيب هكذا: جاءنا من وزارة الخارجية السودانية انه ليس صحيحاً مطلقاً ما نشرته إحدى المجلات من أن الفلاشا يستقلون طائرات من الخرطوم إلى إسرائيل.. وأن حكومة السودان تستنكر هذا الخبر الذي يسيء إلى العلاقات المصرية السوذانية والعلاقات السودانية العربية. وأن موقف السودان من إسرائيل والصهيونية العالمية معروف للعالم كله.. الخ..

وكنت على يقين من صحة هذا الخبر وعلى يقين من بداية عمليات التهجير من أثيوبيا عبر الحدود السودانية، وعبر البحر الأحمر، وعبر أراضي كينيا..

وفي يوم زارني دكتور داود قمحي مدير الخارجية الإسرائيلية ومعه السفير الإسرائيلي موسى ساسون والملحق الصحفي إسحاق بارموشيه وكان الحديث عن مشكلة «طابا».. وعن العلاقات الخفية بين كثير من العرب وإسرائيل.

فقلت: إن أحدثها كانت في نيروبي، ولم يصدق داود قمحي أنني أعرف شيئاً عن هذا اللقاء فقال دون أن يتحدث عن طبيعة هذا اللقاء: أن قليلين جداً في إسرائيل يعرفون شيئاً عن ذلك.

وسألني: كيف كان رد الفعل؟

فقلت: كانت مفاجأة كبرى.

ولم يشأ أن يقول من الذي قابل من وكيف. فقلت: لعلك لا تريد أن تفصح عن أن هذا اللقاء قد تم في قصر تاجر السلاح السعودي عدنان خاشقجي في نيروبي بين شارون وبين الرئيس نميري..

وقد كان هذا اللقاء بتدبير من المليونير السعودي خاشقجي الذي تربطه بالرئيس نميري صداقة قوية، وكذلك زوجته السابقة. والذي اشترك أيضاً في مشاريع تعمير أراضي السودان واستنباط البترول في جنوب السودان..

وبينما نحن نتحدث في تفاصيل هذا اللقاء انفتح الباب ودخل عالم الفضاء المصري الدكتور فاروق الباز وصافح الضيوف ولم استطع أن أقدم أحداً لأحد. واتجه الدكتور الباز إلى جانب من الغرفة وجلس بينما التقط أحد المصورين صورة لهذا اللقاء السريع.

قال لي الدكتور الباز: جئت أودعك قبل سفري إلى السعودية.

ثم راح يحدثني عن مشاريعه في الخليج وفي الهند وفي الصين، ثم عودته إلى الأردن للاشتراك في الندوة العلمية

وسفره إلى لندن . . وأملنا في أن نلتقي. ثم لاحظ أنني لا أتوقف عن الضحك فقال: ما الذي يضحكك . . هل أقول تخريفاً . لماذا تضحك؟

فقلت : عندك فلوس في البنك؟

فقال : لماذا؟

عندك فلوس أريد أن أعرف فوراً؟

قال : ملاليم . . .

قلت : إذن ماذا أعمل الآن؟

قال : لا أفهم . .

قلت : بصراحة كم تدفع حتى لا أنشر الصورة التي التقطت لك!

ولم يكن يعرف الضيوف ولما عرف فزع .

قائلاً : إن هذه الصورة تكفي لنسف هذه الرحلة وكل رحلة أخرى . .

قلت : يا أخي أنت صافحتهم باعتبارك أمريكياً ، واستنكرت ذلك بأعتبارك مصرياً!

هاها . . هاها ـ هو الذي يضحك قائلاً : تعال معي اقنعهم بذلك!

ثم نشرت تفاصيل هذه المقابلة في مكتبي ومقابلة الرئيس نميري وشارون وخاشقجي في نيروبي في مقال بمجلة «وادي النيل». وبسرعة صدر تكذيب من الدكتور قمحي في تل أبيب يقول: أنه ليس صحيحاً أن هذا اللقاء له علاقة بهجرة الفلاشا!

ولكنه لم ينف هذا اللقاء!

وأصدر السيد خاشقجي تكذيباً في كل صحف العالم، وفي مصر أيضاً، وتهديداً برفع أمري إلى القضاء إن لم أنشر تكذيباً. ولم أنشر. ولم يذهب هو إلى أبعد من ذلك.. ولكنه في نفس الوقت حاول عن طريق اخته المرحومة سميرة خاشقجي أن يكون لنا لقاء في مصر أو في أي مكان في العالم لتوضيح الأمر.. والتقت المرحومة سميرة خاشقجي بصديق لنا يسأل إن كان ممكناً أن نلتقي. وأجبت لا مانع مطلقاً. ثم بعثت هي مع صحفي عظيم الشأن أن أثبت حسن نيتي بنشر تكذيب للقاء وزير الدفاع الإسرائيلي والرئيس نميري في قصر أخيها في نيبروبي وكان ردي: ولكن الخبر صحيح مائة في المائة.

ولولا أن تفاصيل هذا النبأ سوف تؤدي إلى نسف العلاقات المصرية السودانية لفعلت.. وكان الرئيس نميري قد تدحرج إلى كثير من القرارات السياسية والدينية.. وربما كان الغرض

من التطرف الديني، هو أن يضع غطاء كثيفاً مزوراً لتورطه في تهجير الفلاشا من الخرطوم وتغطية الفساد الذي أدى بعدد كبير من رجال الأمن في السودان والوزراء إلى قبول رشوة بالملايين لتدبير أتوبيسات وجوازات سفرمزورة للفلاشا . .

وعندما ذهبت إلى الخرطوم بعد الانتفاضة الكبرى ضد الرئيس نميري التقيت بعدد من الوزراء والاصدقاء. وكانت دهشتهم عظيمة أن أجهزة أمن الدولة في السودان قد تسترت تماماً على ذلك. قال لي صديقي الدكتور علي شمو وزير الثقافة والشباب في حكومة الرئيس نميري: إنني لم أعرف شيئاً عن هذه العملية إلا بعد أن كتبت أنت. .

وهذا يدل على أنها تمت بسرية تامة وبإحكام شديد!

***

وأول تقرير عن عملية التهجير جاء في كتاب بعنوان «عملية موسى - قصة تذاع لأول مرة عن خروج الفلاشا من أثيوبيا» تأليف تيودور بارفيت، ومدرس اللغة العبرية في مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية التابعة لجامعةلندن. فقد سافر إلى السودان وإلى أثيوبيا، ورأى معسكرات الفلاشا ورأى حياتهم وويلاتهم وكيف يتساقطون جوعاً وعطشاً ومرضاً. والتقى بعدد كبير من مندوبي مخابرات إسرائيل والمخابرات المركزية الأمريكية ورجال الأعمال الأوروبيين والأمريكان

الذين تعاونوا بدقة على نقل عشرات الألوف من الفلاشا إلى إسرائيل . .

وهؤلاء الفلاشا كانوا يعيشون في عزلة تامة على هضاب وجبال حول بحيرة تانا ، أحد منابع نهر النيل ، وقد نسوا العالم الخارجي . والعالم قد نسيهم تماماً وإن كان بعض الرحالة اليهود قد كتبوا عنهم ، بل أن المؤرخ العظيم جيبون في كتابه «انحلال وسقوط الأمبراطورية الرومانية» قال : أن هؤلاء الفلاشا ناموا عن الدنيا ألف عام ، وعندما صحوا لم يدر بهم أحد . .

ولم يسمع العالم الخارجي عن هؤلاء الفلاشا إلا في القرن الثاني عشر . . ثم في القرن الثامن عشر . . ولكن أحداً لم يساعدهم في محنتهم . وفي أوائل هذا القرن التقى بهم رحالة فرنسي ولفت الأنظار إليهم . ولكن أحداً لم يساعدهم . .

وقبل قيام دولة إسرائيل نشطت الجماعات اليهودية والأوروبية، وادخلت عدداً منهم الجماعات ليعودوا زعماء يوجهون ويجمعون صفوفهم تمهيداً لنقلهم لإسرائيل . . وبدأت محاولات تهريبهم من أثيوبيا عبر البحر الأحمر إلى سيناء التي كانت إسرائيل تحتلها وبعد انسحاب إسرائيل من سيناء كان الفلاشا يهربون إلى إيلات فبعضهم كان يعمل على ظهر السفن اليونانية ، فإذا توقفت السفن في ميناء إيلات هربوا

منها ولجأوا إلى إسرائيل. ولكن لم يعرف الفلاشا الهجرة المنظمة إلا في السبعينات.

وحاولت إسرائيل أن تقايض على هؤلاء اليهود مع الرئيس منجستو ولم تفلح تماماً..

وعندما ذهب بيجين لعقد اتفاقيات كامب ديفيد مع الرئيس السادات طلب إليه منجستو أن يتوسط للحصول على معونات عسكرية أمريكية لكي تتمكن أثيوبيا من مواجهة الصومال الذي تسانده روسيا في منطقة الأوجادين. ولم يفلح بيجين. كما رفض الرئيس كارتر. فسارع السوفيت إلى مساعدته. وتوقف مشروع هجرة اليهود من أثيوبيا..

واستطاعت المخابرات الإسرائيلية تنظيم شبكة محكمة بين أثيوبيا والسودان وكينيا لتنظيم هجرة اليهود. وجمعهم أول الأمر في معسكرات اللاجئين في منطقة القضارف وتيواوا ثم شحنهم براً إلى الخرطوم وتهريبهم من الخرطوم إلى كينيا ومنها إلى إسرائيل. ولكن الفلاشا في حالة من الخوف والرعب. وليسوا على يقين من صدق أحد.. فهم بسبب العذاب والجوع والمرض والاضطهاد لا يثقون في أحد. ويوم نقلوهم أول الأمر إلى الخرطوم راحوا يقبلون الأرض والأبواب والأسلاك الشائكة ظناً منهم إنهم قد وصلوا القدس. ولما علموا أنها الخرطوم

راحوا يبكون ويتمرغون على الأرض.. وبعضهم مات من شدة الخوف..

وقد طلبت إسرائيل وساطة الرئيس السادات عند الرئيس نميري في تيسير هذه المهمة. ولكن الرئيس نميري كان في حالة فزع خوفاً من الدول العربية..

ولكنه وعد بأن يغمض عينيه بشرط:

أولاً: ألا تظهر إسرائيل في هذه العمليات كلها.

ثانياً: الا تتجه الطائرات الخارجة من الخرطوم إلى إسرائيل مباشرة..

ثالثاً: أن يتم ذلك في سرية تامة..

وبعد اعتيال الرئيس السادات في أكتوبر سنة ١٩٨١، ازداد الرئيس نميري تردداً. ولكن كانت الحكومة الأمريكية قد تدخلت وابدت استعداداً واضحاً لتحمل هذه المسؤولية، والمساعدة المادية أيضاً..

وقد وجدت المخابرات الإسرائيلية رجلاً يهودياً بلجيكياً يملك عدداً من الطائرات من كل حجم ولون. وهذا الرجل كان يعمل مع القوات الأمريكية في أوروبا وعلى استعداد لأن يعمل أي شيء من أجل اليهود في العالم..

وكانت الخطة أن تجيء هذه الطائرات المدنية وتهبط في

مكان بعيد من مطار الخرطوم وتنتقل من الخرطوم إلى مطار بروكسل على انها طائرات ترانزيت ـ عبور فقط. . أي تتزود بالوقود قبل أن تسافر إلى إسرائيل والرحلة كلها تستغرق ١٢ ساعة. ونقلت هذه الطائرات في ٣٥ رحلة عشرة آلاف من الفلاشا كانوا يجيئون في أوتوبيسات بعد منتصف الليل من منطقة القضارف ويبيتون في معسكرات اللاجئين في الخرطوم ثم يسافرون سراً إلى بلجيكا. .

الرجل البلجيكي اسمه جوتلمان وهو يؤمن بعبارة قالها الفيلسوف اليهودي موسى بن ميمون تقول: ليس أعظم من أن تطلق سراح أسير!

وحتى لا تقع بلجيكا في مشكلة مع أثيوبيا والعرب اتفق مع وزير العدل وهو يهودي أيضاً على الدخول والخروج والسرية في مطار بروكسل.

هذه العملية اسمها «عملية موسى» وقد بدأت يوم ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٨٤ وانتهت فجأة في الأسبوع الأول من يناير سنة ١٩٨٥. .

أما لماذا توقفت «عملية موسى» فجأة فلأن أخباراً عنها قد تسربت إلى وكالات الأنباء والصحف الأمريكية وإلى إسرائيل. . ففزعت حكومة السودان وتضايقت حكومة أثيوبيا كما أن بعض الجماعات اليهودية قد رفضت أيضاً دخول

الفلاشا إسرائيل . . مما يؤكد أن اليهود عنصريون ـ أي يميزون بين البيض والسود حتى في الدين اليهودي!

وكانت الأمم المتحدة قد اتخذت قراراً سنة ١٩٧٤ أن الصهيونية دعوة عنصرية!

وقد فزع كثير من اليهود بظهور النزعات المعادية من اليهود البيض ضد اليهود السود . .

وفي نفس الوقت بدأ استيعاب هؤلاء اليهود وتعليمهم اللغة العبرية، والأكل والشرب واللبس ومبادىء الديانة اليهودية. وضحكت إسرائيل على اليهود الجدد الذين يضعون الأحذية في الثلاجة، كما ضحكوا قبل ذلك على يهود اليمن الذين كانوا يضعون الشوك والسكاكين في الحزام، وينامون تحت السرير وليس فوقه!

وقد رفض عمدة إيلات قبول هؤلاء اليهود السود إلا إذا كانت لديهم القدرة على الرقص والغناء ترفيهاً للسياح!

ولكن تصلب حاخامات إسرائيل على موقف واحد: أنهم ليسوا يهوداً أو أنهم يهود ولكن ينقصهم أن يجددوا العهد بأن يعلنوا أنهم يهود، وأنهم يحترمون الوصايا العشر. . وحتى لو كانوا قد تطهروا، فلا بد من إعادة التطهر. . ولو بصورة رمزية، كأن تسيل منهم قطرة دم واحدة!

ولا بد من «الغسل» أو «الغطاس» قبل الزواج!!

قال كاتب يهودي كبير: شيء عجيب أن نتهم هؤلاء اليهود بأنهم بدائيون، بينما نحرص على إسالة دمائهم بمجرد وصولهم إلى إسرائيل!

***

وبقي بضعة ألوف من الفلاشا في المعسكرات في انتظار نقلهم إلى إسرائيل..

فانتهت المهمة الرسمية وبدأت مهمة رسمية للمخابرات الأمريكية..

فكانت عملية جديدة اسمها «عملية سبأ» يوم ١٨ مارس سنة ١٩٨٥.. وذلك بنقل الفلاشا بطائرات أمريكية حربية. وكانت هذه العملية أكثر دقة. وجاءت الطائرات الحربية الأمريكية من ألمانيا إلى شرقي السودان لنقل ما تبقى من الفلاشا إلى إسرائيل. وكان الحاخامان الأكبران في إسرائيل قد أعترفا بأن الفلاشا يهود..

واشترط الرئيس نميري على الأمريكان أن يتم النقل ولكن بشرط ألا يتجهوا مباشرة إلى إسرائيل. ولكن الطائرات اتجهت إلى مطارات حربية في النقب!

ولكن لتغطية موقف الرئيس نميري، فإنهم قد حصلوا

للفلاشا على تأشيرات دخول بعض الدول الأوروبية، ولم يدخلوها!

ولما هاجمت الصحف العربية حكومة إسرائيل العنصرية العدوانية التوسعية ألقى رئيس الدولة هرتسوج خطاباً قال فيه: إن إسرائيل لم تفعل إلا واجبها. فأين هو واجب الدول العربية من الشعب الفلسطيني.. إن دخل يوم واحد من البترول ينقذ الشعب الفلسطيني وينعشه سنوات؟!

***

وبدأ الهمس عن توقف الفلاشا في مطار القاهرة عبوراً إلى إسرائيل وليس ذلك صحيحاً وإن كانت الطائرات التي اتجهت من الخرطوم إلى بلجيكا قد مرت بالأجواء المصرية..

ولأن عدداً من الفلاشا قد دفعه الخوف إلى أن يعلن أنه مسيحي حتى يستطيع أن يعيش فيأكل ويشرب، فقد اختفى بعض الفلاشا وسط المسيحيين.. ويقال أن بعضهم قد هرب إلى البلاد العربية على أنهم من أرتريا أو من جنوب السودان..

***

وانتهت بدقة وبأموال كثيرة أكبر عملية إنقاذ لليهود في العصر الحديث. لا تقل خطورة عن إنقاذ اليهود من أفران

الغاز النازية وأكثر تكلفة ولكنها أكثر دقة فقد تعاونت المخابرات وكل الهيئات الصهيونية والإنسانية الأمريكية والأوروبية في العالم لجمع شتات اليهود الضاليز في القارة السوداء . .

«ما ظنك بإثنين الله ثالثهما»

كان الرسول عليه الصلاة والسلام يختلي في كل سنة شهراً مع أهل بيته في غار حراء بقرب مكة. فيتعبد الليالي ذوات العدد- الأثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس . يفكر في صمت ليلاً ونهاراً. حتى جاءه الوحي في الأربعين من عمره وجاء الوحي أول الأمر على شكل رؤيا صادقة في النوم فكان الذي يراه واضحاً في نومه ، فإذا صحا تحقق كل ما رأى ، هذه هي مقدمة الوحي ويقال استغرقت ستة شهور فلما تمرن على ذلك في نومه ، جاءه جبريل في يقظته ثم فتر الوحي ثلاث سنين ليذهب عنه الخوف والشدة وليمتليء شوقاً إلى ذلك .

وأولى الآيات التي نزلت: إقرأ باسم ربك . . وهي بداية النبوة .

أما بداية الرسالة فهي قوله تعالى: يا أيها المدثر قم فأنذر- بداية النذارة والبشارة والتشريع . . والاقتصار على الإنذار في هذه الآية مع أن الله بعثه مبشراً أيضاً . . وكان ذلك في أول

الإسلام فلما أطاعه بعض الناس من مكة نزل قوله تعالى: إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً. .

وأول من أسلم من الرجال: أبو بكر ومن الصبيان: علي (١١ سنة) ومن النساء خديجة ومن الموالي: زيد بن حارثة وكان قد تبناه الرسول عليه السلام وأول من أسلم من العبيد الباقين على الرق: المؤذن بلال.

واتسع الإسلام بعد أن أسلم أبو بكر، فأسلم عثمان بن عفان، وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص - هؤلاء الخمسة دعاهم أبو بكر فأجابوا.

وأول ما وجب الإنذار والدعاء إلى الله بالتوحيد في قوله تعالى: يا أيها المدثر قم فأنذر. بعدها ظل رسول الله ثلاث سنين يدعو سراً فلم يتلق أمراً من الله بالإعلان وكان لا يظهر دعوته إلا لمن يثق به. وتبعه ضعفاء كثيرون من الرجال والنساء. وفي ذلك يقول الرسول: إن هذا الدين بدأ غريباً وسيعود كما بدأ.

فإذا حضرته الصلاة ذهب إلى خارج مكة وخرج معه علي بن أبي طالب هرباً من عمه أبي طالب ومن جميع أعمامه وسائر قومه، فيصليان. وعندما عثر عليهما أبو طالب يوماً فقال لرسول الله: يا ابن أخي ما هو الدين الذي أراك تدين به؟ قال الرسول: هذا دين الله ودين ملائكته ورسله ودين أبينا

إبراهيم، بعثني الله رسولاً إلى العباد وأنت أحق من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى وأحق من أجابني إليه وأعانني عليه فقال أبو طالب يا ابن أخي لا استطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه.

وبقي الرسول عليه الصلاة والسلام ثلاث عشرة سنة في مكة يدعو إلى الإسلام سراً ثلاث سنوات ثم جهر بذلك عندما نزل عليه قوله تعالى.. (فأصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) فجاهر عليه الصلاة والسلام بالدعوة والعداوة لقريش، واشتد الأذى عليه وعلى المسلمين.

ولما نزل قوله تعالى: وانذر عشيرتك الأقربين. دعا الرسول علي بن أبي طالب وطلب إليه أن يصنع بعضاً من لحم ولبن وأن يجمع بني المطلب حتى يكلمهم ويبلغهم ما أمره الله به. ففعل ودعا أربعين رجلاً منهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس. وأكلوا حتى شبعوا وتكلم عمه أبو لهب فقال: سحركم محمد صاحبكم!

فتفرقوا ولم يكلمهم الرسول عليه الصلاة والسلام.

وقال الرسول لعلي: يا علي قد رأيت كيف سبقني هذا الرجل إلى الكلام فاصنع لنا غداً كما صنعت اليوم واجمعهم ثانياً.

فلما أكلوا وشبعوا قال لهم الرسول عليه الصلاة والسلام:

ما أعلم أنساناً في العرب جاء قومه بأفضل ما جئتكم به جئتكم بخير الدنيا والآخرة . .وقد أمرني الله أن أدعوكم عليه ، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر ويكون أخي وحبيبي وخليفتي فيكم؟

فلم يرد أحد فقال علي : إني أحدثهم سناً ، وأعظمهم بطناً وأحمشهم ساقاً . . أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليهم .

فأخذ الرسول برقبته وقال : إن هذا أخي وحبيبي وخليفتي فيكم فاسمعوا وأطيعوا . .

فقاموا يضحكون ويقولون لأبي طالب : قد أمرك أن تسمع وتطيع ابنك!

وأخذ الرسول عليه الصلاة والسلام يدعو للدين . ويسفه الأصنام والأوثان ويتهم آل قريش بالكفر والضلال ، وذهبوا إلى أبي طالب يحذرونه وينذرونه ويهددونه بالقتال إن لم يسكت محمد عليه السلام عن تحقير معتقداتهم .

ووعده عمه أبو طالب بأن يحميه .

ولما أسلم عمه حمزة قبل أذى الكفار للرسول وكان إسلام حمزة قبل إسلام عمر بن الخطاب بثلاثة أيام .

قال حمزة عندما أسلم :

حمدت الله خين هدى فؤادي   إلى الإسلام والدين الحنيف

لدين جاء من رب عزيز خبير بالعباد بهم لطيف
إذا تليت رسائله علينا تحدر دمع ذي اللب الخفيف
رسائل جاء أحمد من هداها بآيات مبينة الحروف
فلا والله نسلمه لقوم ولما نقض فيهم السيوف!

وقد أذن الرسول للمسلمين بأن يهاجروا إلى الحبشة فهاجروا وقال لهم: أن بها ملكاً لا يظلم الناس فاذهبوا حتى يأتيكم الله بالفرج.

فهاجر اثنا عشر رجلاً وأربع نسوة. وكان منهم عثمان بن عفان ومعه زوجته رقية بنت رسول الله. ثم عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

قال ابن عباس لما اسلم عمر بن الخطاب قال جبريل للنبي عليه السلام: يا محمد لقد استبشر أهل السماء بإسلام عمر.

وأنزل الله تعالى قوله: يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين.

وكان إسلام عمر استجابة لدعوة النبي عليه السلام بقوله: اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك: عمر بن الخطاب أو بعمرو بن هشام (أبي جهل) فكان أحبهما إليه عمر بن الخطاب فكان عز الإسلام بعمر.

قال ابن مسعود: ما كنا نقدر أن نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر رضي الله عنه.

وقال أيضاً: كان إسلامه فخراً وهجرته نصراً، وإمامته رحمة.

واشتد العذاب على المسلمين فأذن لهم الرسول أن يهاجروا مرة ثانية إلى الحبشة وكانت هذه الهجرة أكثر مشقة بعد أن تعرضت لهم قريش وآذتهم.

قال عثمان بن عفان: يا رسول الله فهجرتنا الأولى وهذه الآخرة ولست معنا؟ فقال عليه السلام: أنتم مهاجرون إلى الله وإلي، لكم هاتان الهجرتان جميعاً.

قال عثمان: فحسبنا يا رسول الله.

ولما استقر المهاجرون في الحبشة تضايقت قريش وتضايقت أكثر عندما علموا أنهم يلقون ترحيباً هناك. فبعثوا عمرو بن العاص وآخرين يفسدون على المهاجرين حياتهم ويدسون لهم عند الملك فلم يفلحوا.

ثم هاجر الرسول عليه السلام إلى الطائف وهو مكروب مشوش الخاطر مما لقي من قريش ومن قرابته وعشيرته خصوصاً من أبي لهب وزوجته حمالة الحطب، من الهجوم والسب والتكذيب وضربه بالحجارة حتى لجأ إلى بستان فلما

رآه صاحبا البستان أشفقا عليه وبعثا له بعنقود من العنب مع غلام نصراني. فذهب إلى الرسول فمد يده إلى العنب وقال: باسم الله.

فنظر إليه الغلام وقال: إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد فسأله الرسول: من أي البلاد أنت! وما دينك؟

فقال الغلام: أنا نصراني من مدينة نينوى.

فقال الرسول: أنت من مدينة الرجل الصالح يونس ابن متى.

فقال الغلام: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فإني خرجت والله من نينوى وما فيها عشرة يعرفون من هو. فمن أين عرفت هذا وأنت أمي وفي أُمة أُمية؟ فقال الرسول: ذلك أخي كان نبياً وأنا نبي أُمي.

فقام الغلام يقبل رأس الرسول ويديه وقدميه فقال له صاحبا البستان: ما لك تقبل رأس الرجل ويديه وقدميه؟ قال الغلام: يا سيدي ما في الأرض شيء خير من هذا لقد أعلمني بأمر لا يعلمه إلا نبي!

وكانت هجرة الرسول إلى الطائف أربعين يوماً، لم يدع أحداً إلا دعاه إلى دين الله فلم يجبه أحد.

وأمر الرسول أصحابه بالهجرة إلى المدينة وهذه بداية

التاريخ الإسلامي. وبقي هو وأبو بكر في مكة. ثم خرجا سراً. ولم تعثر لهما قريش على أثر فبعثت بمن يبحث عنهما في كل مكان.

ولما خرج الرسول وأبو بكر متجهين إلى الغار كان أبو بكر تارة يمشي أمامه وتارة وراءه وإلى يمينه وإلى يساره خوفاً عليه. فقال له الرسول: لا بأس عليك يا أبا بكر الله معنا.

وكان الرسول عليه السلام حافياً وكانت الحجارة تؤذي قدميه فلم يتعود أن يمشي حافياً، وقد حمله أبو بكر على كاهله حتى انتهى إلى الغار فلما أراد النبي أن يدخل قال أبو بكر: والذي بعثك بالحق نبياً لا تدخله حتى ادخله فأسبره قبلك. فدخل أبو بكر فجعل يتحسس الغار بيديه فلما لم يجد شيئاً دخله رسول الله فلدغته حشرة فنزلت دموعه على خد رسول الله الذي كان قد نام في حجر أبي بكر فقال: ما هذا؟ قال أبو بكر: لدغت. فتفل عليه فذهب الألم.

وباتا في الغار ونسج العنكبوت على فم الغار وجاءت حمامتان فعششتا وباضتا قال الشاعر:

وخافت عليك العنكبوت من العدا
فأرخت بباب الغار مكراً بها ستراً
ووافقتها في الذود عنك حمائم
أتين سراعاً فابتنين به وكراً

فلمـا أتـى الكفـار طرن خديعة
فحيا الحيا تلك الخديعة والمكرا

واقبل فتيان قريش بسهامهم وسيوفهم ورماحهم وجميعهم يعرف الأثر ووجدوا أثر أقدام الرسول وأبي بكر توقفت عنـد مدخل الغار قال واحد منهم: لندخل الغار.

قال آخر: إن على الغار عنكبوتاً من قبل أن يولد محمد!

وقال ثالث: لو دخلا الغار لتكسر بيض الحمام وتفسخ بيت العنكبوت.

قال البوصري:

وما حوى الغار من خير ومن كرم
وكل طرف من الكفار عنه عمي
ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على
خير البرية لم تنسـج ولـم تحم
وقـاية الله أغنـت عن مضاعفة
من الدروع وعن عال من الأطم

(والأطم معناها الحصون وجمعها آطام)

وقال آخر:

والعنكبوت أجادت حول حلتها
فمـا تخـال النسـج من خلل

وقال ابن النقيب الشاعر الدمشقي:

ودود القـز إن نسجـت حريراً يجمـل لبسـه في كل شـي
فإن العنكبـوت أجـل منها بما نسجت على رأس النبي

قال أبو بكر رضي الله عنه للرسول عليه السلام: إن تصب اليوم ذهب دين الله: فقال عليه الصلاة والسلام: ما ظنك بإثنين الله ثالثهما؟

وقال حسان بن ثابت:

وثاني اثنين في الغار المنيف وقد
طاف العدو به إذ صاعد الجبلا
وكان حب رسول الله قد علموا
من الخلائق لم يعدل به بدلا

ويقال أن الرسول عليه السلام وأبا بكر قد مكثا في الغار عشرة أيام.

قال أبو بكر للرسول عليه السلام: إن قتلت أنا فإنما أنا رجل واحد، وإن قتلت أنت هلكت الأمة فقال الرسول: لا تحزن إن الله معنا.

قال علي بن أبي طالب: ما علمت أحداً هاجر إلا مختفياً، إلا عمر بن الخطاب فإنه لما اهتم بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه وانتضى في يده سهماً، فطاف سبعاً، ثم صلى ركعتين عند المقام ثم أتى خلفهم وقال: من أراد أن تثكله أمه وييتم ولده وترمل زوجته، فليلقني وراء هذا الوادي.

فما سار وراءه أحد!

وصبر الرسول عليه السلام على إيذاء العرب بمكة واليهود بالمدينة له ولأصحابه وقد وعده الله بالنصر. وأمره بالقتال لمن قاتله بقوله تعالى:

(أذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا)

ولما نزلت هذه الآية قال عليه السلام:

امرت أن اقاتل الناس حتى يقولوا:

لا إله إلا الله. فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله تعالى.

قيل له: وما حقها؟

قال: زنا بعد احصان، وكفر بعد إسلام، أو قتل نفس.

قال الطهطاوي: وهي الكلمة العالية، والشريعة الغالية،

من استمسك بها فقد سلم ومن يعصمها فقد عصم .

وأول آية نزلت في شأن القتال هي :

«اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وأن الله على نصرهم لقدير» . حيث أبيح القتال لكن في غير الأشهر الحرم التي هي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ، لقوله تعالى : فإذا انسلخ الأشهر الحرم فأقتلوا المشركين .

ثم أمر بالقتال بعد فتح مكة من غير قيد ولا شرط قال تعالى : وقاتلوا المشركين كافة .

ومن المدينة بدأ القتال في سبيل الله .

ففي السنة الأولى من الهجرة كانت غزوة الأبواء .

وفي السنة الثانية كانت غزوة بواط وغزوة ذي العشيرة وغزوة بدر الكبرى وغزوة بني قينقاع (اليهود) وغزوة السويق وغزوة بني سليم .

وفي الثالثة كانت غزوة غطفان وغزوة أحد وغزوة حمراء الأسد .

وفي السنة الرابعة غزوة بني النفير وغزوة ذات الرقاع وغزوة بدر وغزوة الخندق وغزوة بني قريظة (اليهود) .

وفي السنة الخامسة غزوة دومة الجندل وغزوة بني لحيان من هذيل بن مدركة .

وفي السنة السادسة غزوة بني قرد وغزوة بنـي المصطلـق وغزوة الحديبية وغزوة خيبر وفتح فدك وفتح وادي القرى .

وفي السنة الثامنة غزوة مؤتة وفتح مكة وغزوة حنين وغزوة الطائف .

وفي السنة التاسعة غزوة تبوك ثم وبعـث رسـول الله عليه السلام خالد بن الوليد إلى نجران وما حولها فأسلم الناس . . وفي هذه السنة حجة الوداع وسميت حجة الإسلام.

وكانت أولى غزواته صلى الله عليه وسلم غزوة «الأبواء» ويقال ان اسمها غزوة ودان وهي قرية كبيرة بينها وبين الأبواء ثمانية أميال أما الأبواء فهي بين مكة والمدينة .

وقد خرج الرسول عليه السلام ومعه سبعون رجلاً يعترضون قوافل قريش . . وفي هذه الغزوة صالح قتلة بني حمزة وعقد صلحـاً مع سيدهـم الا يغزوهـم ولا يغزونـه . ولا يعين عليه عدواً . وكتب بينه وبينهم كتاباً هذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، لبني حمزة بأنهم آمنون على أموالهـم

وأنفسهم وأن لهم النصرة على إلا يحاربوا في دين الله أو يحرضوا عليه ـ وأن النبي صلى الله عليه وسلم إذا دعاهم لنصرة أجابوه، عليهم بذلك ذمة الله وذمة رسوله.

وكان العلم الذي يحمله رجال رسول الله أبيض اللون مكتوب عليه: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وكان العلم يحمله عمه حمزة.

وغاب عن المدينة خمس عشرة ليلة.

وغزوة بواط سببها أن الرسول عليه السلام بلغه أن قافلة من قريش بها ألفان وخمسمائة بعير ومائة رجل في طريقها إلى مكة فخرج الرسول بمائتين من أصحابه وحمل العلم سعد بن أبي وقاص فلم يحاربه أحد من قريش فرجع إلى المدينة دون حرب..

وغزوة ذي العشيرة أراد الرسول عليه السلام أن يدرك قافلة قريش المتجهة إلى الشام فقد جمعت قريش كل أموالها فلم يبق في مكة قرشي واحد ولا قريشية إلا بعث بأمواله في هذه القافلة. ويقال هذه القافلة حملت خمسين ألف دينار وألف بعير وكان قائدها أبا سفيان وكان معه سبعة وعشرون رجلاً من بينهم عمرو بن العاص.

وهي نفس العير التي تعرض لها رسول الله وهي عائدة من الشام. فكانت سبباً في معركة بدر الكبرى.

وقد خرج رسول الله في مائتين من المهاجرين حتى بلغ «العشيرة» وحمل العلم عمه حمزة بن عبد المطلب وقد خرجوا على ظهر ثلاثين بعيراً يتبعون قافلة قريش فوجدوها قد مضت قبل ذلك بأيام فرجع ولم يحارب.

وفي السنة الأولى من الهجرة عاهد اليهود على دينهم وأموالهم واشترط عليهم وشرط لهم.

وفي السنة الثانية من الهجرة تحولت القبلة من صخرة القدس إلى المسجد الحرام.

قال ابن عباس: أول ما نسخ من القرآن: القبلة.

فكان الرسول واصحابه يصلون بمكة متجهين إلى الكعبة فلما هاجروا إلى المدينة أمره الله أن يصلي نحو صخرة القدس ليكون أدعى إلى تصديق اليهود اياه. إذا صلى إلى قبلتهم. وبعد الهجرة إلى المدينة صلى الرسول سبعة عشر شهراً متجهاً إلى القدس، وكان يحب أن يتجه إلى الكعبة لأنها كانت قبلة إبراهيم عليه السلام. فأنزل الله تعالى قوله:

(قد نرى تقلب وجهك في السماء، فلنولينك قبلة

ترضاها. فول وجهك شطر المسجد الحرام. وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره).

***

وترقب رسول الله قافلة قريش التي تعود من الشام وخرج الرسول في ٣١٣ رجلاً وكان المشركون ألف رجل ومائة فارس و ٧٠٠ بعير.

ومعركة بدر هذه أعظم معارك الرسول وافضلها ونال شهداؤها المنزلة الرفيعة في الدنيا والآخرة. ولا تفوقها في الفضل إلا غزوة الحديبية حيث حيث كانت بيعة الرضوان، ويقال أنها بدر القتال ويقال بدر الفرقان لأن الله تعالى فرق فيها ما بين الحق والباطل واظهر بها الدين وقتل فيها عظماء قريش..

وقبل المعركة بعث أبو سفيان رجاله يتحسسون الأخبار خوفاً من الرسول. فعرف أنه قد استعد فبعث بمن ينبيء قريشا أن تهب جميعاً لقتاله.

وخرج الرسول يتقدمه من يحمل العلم الأبيض واثنان يحملان علمين أسودين.

وقال الرسول لرجاله: إن القوم قد خرجوا من مكة فماذا تقولون؟..

قالت طائفة: العير أحب إلينا من قتال العدو. . وتضايق الرسول لهذا الرأي.

فخطب واحد من رجال الرسول قائلاً:

يا رسول الله إمض لما امرك الله به فنحن معك. فوالله لا نقول لك كما قال قوم موسى له: اذهب أنت وربك فقاتلا، إنًا ههنا قاعدون ولكنا نقول: إنًا معكما مقاتلون!

فابتهج رسول الله لذلك. .

ثم عاد يقول: اشيروا على

فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله انها قريش، والله ما ذلت من عز، ولا أمنت من كفر، والله لتقاتلنا فتأهب لذلك اهبته واعد لذلك عدته.

ثم قال الرسول مرة ثالثة: اشيروا عليَّ أيها الناس.

فقال له سعد بن معاذ سيد الأوس: لعلك تريدنا معاشر الأنصار يا رسول الله، فقال الرسول: أجل، قال سعد بن معاذ: فقد آمنّا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق واعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة وإني أقول عن الأنصار واجيب عنهم فاقطع حبل من شئت وسالم من شئت وعاد من شئت وخذ من أموالنا ما شئت، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت، وما أمرت فيه من أمرنا

تبع لأمرك ، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك والذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا . . لعل الله أن يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله فنحن عن يمينك وعن شمالك وبين يديك ومن خلفك .

فابتهج رسول الله ثم ارتحل حتى نزل بوادي بدر ، وبعث الرسول بعلي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وآخرين يجمعون معلومات عن جيش قريش فوجد غلامين ينقلان الماء إلى قبيلة قريش فأتيا بهما رسول الله وكان يصلي فقال لهما : لمن أنتما؟ قالا : لقريش فضربوهما واوجعوهما ضرباً فقالا : بل نحن لأبي سفيان فتركوهما . فقال رسول الله : ضربتوهما عندما صدقا وخليتموهما عندما كذبا . . والله إنهما لقريش اخبراني عن قريش كم القوم؟

قالا : هم والله كثير عددهم شديد بأسهم

قال : ما عدتهم؟

قالا : لا ندري .

قال : كم ينحرون كل يوم؟

قالا : يوماً تسعا ويوماً عشرا

فقال عليه الصلاة والسلام: القوم ما بين تسعمائة وألف من فيهم من أشراف قريش.

وكان فيهم عدد كبير قال الرسول: هذه مكة قد القت اليكم أفلاذ أكبادها!

وأصاب المسلمين في تلك الليلة نعاس شديد. وبات النبي عليه السلام يصلي تحت شجرة فلما أن طلع الفجر نادى الرسول: الصلاة عباد الله فجاء الناس من تحت الشجرة فصلى بهم رسول الله وحرضهم على القتال في خطبة فقال بعد أن حمد الله واثنى عليه: أما بعد فإني أحثكم على ما أحثكم الله عليه.. إلى أن قال: إن الصبر في مواطن البأس حتى يفرج الله به الهم، وينجي به من الغم.

ولما رأى رسول الله قريشاً وقد أقبلت بالدروع السائرة، والجموع الوافرة والأسلحة البارقة قال: اللهم إن هذه قريشا قد اقبلت بخيلائها تجادلك وتخالف أمرك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني به انجزه، اللهم أمرتني بالثبات وأنك لا تخلف الميعاد..

وحين رأى المسلمون نار القتال راحوا يضجون بالدعاء فأنزل الله تعالى قوله: «إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم. إني ممدكم بألف من الملائكة مردفين أي متتابعين ونزل قوله

أيضاً: بلى أن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة ألاف من الملائكة مسومين.

واستشهد من المسلمين أربعة عشر رجلاً وقتل من المشركين سبعون وأسر سبعون وانهزم الباقون وغنم عليه الصلاة والسلام متاعهم. وكان عمه العباس من الأسرى.

ولما انقضى القتال أمر النبي عليه السلام بسحب القتلى إلى منطقة القليب وكانوا أربعة وعشرين رجلاً من عظماء قريش.

فقذفوهم في جوف القليب ثم وقف رسول الله فقال: يا أهل القليب بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم كذبتموني وصدقني الناس واخرجتموني وأواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس يا أهل القليب هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً، فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً.

فقال له اصحابه: اتكلم قوماً موتى؟

قال: لقد علموا ما وعدهم ربهم حق!

وبعد أن انتصر المسلمون في غزوة بدر ضاق به اليهود من بني قينقاع وراحوا يجاهرون بالحقد عليه والحسد له.. وكان الرسول قد عاهدهم ألا يتعرضوا له أو للمسلمين وألا يناصروا أعداءه.. فكانوا أول من غدر. فجمعهم الرسول عليه السلام

وقال: يا معشر يهود احذروا من الله أن يصيب عليكم مثل ما نزل بقريش من النقمة. . اسلموا فانكم قد عرفتم أني مرسل، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله تعالى اليكم.

فقالوا: يا محمد إنك تظننا مثل قومك، ولا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب، إنا والله إن حاربناك لتعلمن أنك لم تقاتل مثلنا.

ونزلت الآية: قل للذين كفروا ستغلبون.

وحدث أن ذهبت إحدى المسلمات إلى دكان رجل يهودي يبيع الذهب فاقترب واحد من اليهود ومزق ثوبها من الخلف دون أن تدري فلما نهضت انكشفت فقتله واحد من المسلمين، وتكاثروا على المسلم فقتلوه!

وتحصنوا في حصونهم فسار إليهم الرسول ومعه عمه حمزة بن عبد المطلب وحاصرهم خمسة عشر يوماً وكانوا سبعمائة.

فطلبوا إلى رسول الله أن يخلي سبيلهم على أن يتركوا المدينة ولم يمهلهم ساعة واحدة فخرجوا فوراً.

ولم يمض عام واحد حتى هلكوا جميعاً فقد دعا عليهم رسول الله لا بارك الله فيهم.

ووجد الرسول في منازلهم سلاحاً كثيراً. . أخذ منها القوس الكتوم التي لا يسمع لها صوت إذا رمى بها. . وقد استخدمها

في موقعة أُحد. . وأخذ درعاً كانت لداود عليه السلام. .

* * *

وأخذ ثلاثة أرماح وثلاثة أسياف. وتركوا ذهباً كثيراً فلم يكن من عادتهم أن يملكوا أرضاً.

وتتوالى معارك المسلمين وانتصاراتهم على أنفسهم وعلى أعدائهم، في بلادهم وفي كل أرض وكل عصر. . .

يا مُقلب القلوب . .
ثبت قلبي على دينك

يصبح تمثالاً من الملح من ينظر وراءه ـ كان ذلك تحذيراً لزوجة لوط عليه السلام. وتحولت إلى ذلك التمثال. فقد كان من الصعب أن تسمع رعداً وترى برقاً وتهتز الأرض تحتها ولا تتلفت. وأحس هذا الأزهري اللامع أنه سوف يموت إن فعل. فأقسم وهو في طريقه إلى باريس، أن ينظر أمامه وأن يشد مصر والعالم العربي وراءه. . قرناً بعد قرن حتى تعايش الحضارة الفرنسية. إنه واحد من أعظم شباب الأزهر في زمانه وزماننا. . إنه رفاعة رافع الطهطاوي (١٨٠١ ـ ١٨٧٣). تخرج في الأزهر. ودرس فيه. وبعث به محمد علي مع البعثة المتجهة إلى فرنسا و ٣٤ طالباً نصفهم من المصريين ليكون واعظاً وإماماً. ولكنه تفوق عليهم فكان إمامهم في القرآن والكتابة والترجمة.

عندما سافر إلى فرنسا وهو في الخامسة والعشرين حزنت أمه وأقفلت بابها عليها وأضربت عن الطعام. وأمام بكاء الأقارب والأهل كانت تفتح الباب مرة كل أسبوع لتتزود بالماء

والخبز. فقد خرج ابنها ولم يعد. . ولن يعود. ولما رجع جعل يدق الباب. وهي لا ترد. ويبكي وهي ترفض أن تصدقه. وانفتح بابها. فأغمي عليها عندما وجدت ابنها أو من يشبهه. فقد تغير شكلاً وزياً وصوتاً وهيئة. ووعدها وهو يقبل يديها وقدميها والأرض أنه لن يعود إلى فرنسا. ولم يعد.

وكانت عودته بداية النهضة المصرية والانفتاح الثقافي. فكان رفاعة الطهطاوي مؤسسة في التأليف والترجمة والنشر. وزاد عدد الحاقدين. وخاف الخديو منه. فنفاه إلى السودان. وعاد ليكون بين ألوف من تلامذته. . وانتهى دوره الريادي العظيم حين عرف تلامذته الطريق إلى الحضارة الحديثة. .

وأروع مؤلفات الطهطاوي كتابه «تخليص الابريز في تلخيص باريز» والذي قدمه لأساتذته الفرنسيين. وأمتعهم هذا الكتاب لبساطته وصدقه ودقة ملاحظته وعمقه وأمانته أيضاً واحترامه العميق للحرية واختلافه المخلص مع العادات الفرنسية التي تتنافى مع الإسلام. فهو في هذا الكتاب كواحد من رواد الفضاء المصري نزل كوكباً آخر وراح يصف الرحلة إلى ذلك الكوكب، ثم الكوكب وأهله. . وتمنى لبلاده أجمل ما في هذه الأرض الجديدة. ونقل إلينا الكثير مما رأى ومما قرأ. وكان كتابه هذا فاتحة للنهضة في أدب الرحلات وفي الثقافة الفرنسية. . ودعوة جادة لأن نعبر البحر وأن ننظر أمامنا

في شوق، وألا نلتفت وراءنا وإلا انتقل الملح والمرارة إلى أفواهنا، فلا نتذوق شيئاً من حضارة الإنسان.

أما الكتاب الثاني الذي أعجبني، فهو آخر ما كتب واسمه «نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز» أي الرسول عليه الصلاة والسلام. وكان قد نشر بعض فصوله في مجلة له اسمها «روضة المدارس» ثم جمعه في كتاب. ونشره علي باشا مبارك لأول مرة. أما طبعته الثانية فهي التي تولى الطهطاوي تنقيحها. ومات قبل أن يكمل ذلك. وقام ابنه بإكمال تصحيحها وملاحقتها في المطبعة.

وسوف أعرض له في حلقات..

وهذا الكتاب هو الجزء الثاني من كتابه «توفيق الليل في أخبار مصر وتوثيق بني اسماعيل».

يقول الطهطاوي في المقدمة: لا غنى عن تتويجه بالسيرة النبوية، فانتقيت ذلك من صحيح كتبه المصطفوية، فجاءت بحمده تعالى جيدة الأسلوب، تنفع أهل الوطن، وتسطع في عزة ولي المنن، خديو مصر اسماعيل، والمجدد في مصر أحسن زمن، شكراً لإحسانه، واعترافاً بفضله وامتنانه وأداء لواجب من ألف هذا التاريخ باسمه، وأهدى برسمه، حضرة صاحب عهد مصر الوثيق دولتلو محمد باشا توفيق:

قنعت نفسي بما رزقت   وتمنيت في العلى هممي

فإذا ما الدهــر عاتبني لم يجدنــي كافــر النعم

ويقول: كيف تخلو التواريخ الإسلامية المثيرة من السيرة الفاخرة لسيد الـدنيا والآخـرة، وكيف لا يوقف اللبيب عليهـا عينه، ولا يقدح الأريب في فنها ذهنه، مع أن المؤرخين في كل وقت يتنافسون فيها، ويتسابقون إليها ويروونها بألسنتهم، ويدونونهـا في كتبهـم، ويحملهـا متقدمهـم إلـى متأخرهـم، ويدرسونهـا في المساجـد، ويتذاكرونهـا في المشاهـد، ولا عجب من محب يروي مآثر حبيبه، ولا من صب يتحف معشوقه بغزله ونسيبه:

لا يطربــون سوى بذكر حبيبهم

أبــداً، فكل زمانهــم أفراح..

وهذا الكتاب ليس معروفاً، ولا أحد يذكره عندمـا تجـيء اسماء الذين ألفوا عن الرسول عليه السلام. وعلى الرغم من أن الطهطاوي متحرر الفكر، فإنه لم يتحرر تماماً من خصائص الأساليب القديمـة في السجـع، وحشـر الشعـر بلا مناسبـة. والذي يهمنا أكثر في هذا الكتاب هو العلم الغـزير وتقديمـه للقارىء في بساطة وسهولة. دون أن يرهق القارىء بالتحاليل النفسية أو السياسية أو الاجتماعية التي يلجأ إليها الـكثير من المؤلفين. وإنما هو رجل أزهري قرأ كثيراً. واختار ما يريحه عقلياً ووجدانياً. ثم قدم ذلك كله للقارىء. ولعله كان يتمنى أن يترجم كتبه إلى اللغـة الفـرنسية ليجـد القـارىء الفرنسـي

صورة لسيرة الرسول عليه السلام بقلم من عاشر وتعلم وتأثر بالثقافة الفرنسية. أي من واحد قريب من الفرنسيين، قادر على أن يقنعهم.

وقد أعلن الطهطاوي ذلك وهو في باريس. فقد تمنى أن يقوم هو وآخرون بنقل الثقافة المصرية والعربية الصحيحة إلى أوروبا ـ وكان أملاً عسير المنال. ولا يزال حتى اليوم، فلم نفلح أن ننقل إلى أية لغة أوروبية فكرنا الحديث. فكأننا لم نتجاوز آمال الطهطاوي منذ أكثر من مائة سنة!

ـ ١ ـ

ولد الرسول عليه الصلاة والسلام يوم الاثنين من طلوع الفجر. وهو وقت البركة. كما قال صلى الله عليه وسلم: بورك لأمتي في بكورها.

وفي يوم الاثنين كانت ولادته وكانت هجرته ووفاته والاسراء به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وابتداء نبوته.

ومن أسمائه عليه السلام: طه ويس والمدثر. . وعبد الله في قوله تعالى: وإنه لما قام عبد الله. . ونبي التوبة ونبي الرحمة واسمه مذكر في قوله تعالى: إنما أنت مذكر

وقد روى الترمذي عن ابن عباس قال: جلس بعض

الصحابة ينتظرون خروجه عليه السلام حتى دنا منهم وسمعهم يتذاكرون فقال واحد منهم : عجباً أن الله تبارك وتعالى اتخذ من خلقه خليلاً ، اتخذ ابراهيم خليلاً .

وقال آخر: وكلم موسى تكليماً .

وقال ثالث : وجعل عيسى كلمة الله وروحه .

وقال رابع : أما آدم فاصطفاه الله عليهم وخلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له الملائكة .

فسلم رسول الله على أصحابه وقال : سمعت كلامكم وعجبكم . إن ابراهيم خليل الله ، وهو كذلك . وإن موسى نجى الله ، وإن عيسى روح الله وكلمته ، وآدم اصطفاه الله ، وهو كذلك . . ألا وأنا حبيب الله ولا فخر، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر، وأنا سيد الأولين والآخرين ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول من يحرك خلق الجنة فيفتح الله لي فيدخلنيها ومعي فقراء المؤمنين ، ولا فخر .

وقد خص الله تعالى كل واحد من أنبيائه بكرامة ، فأكرم آدم عليه السلام بسجود الملائكة له «وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم» .

ونوحا عليه السلام باجابة الدعوة : «رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا» .

وموسى عليه السلام بالكلام . «وكلم الله موسى تكليماً» .

وابراهيم عليه السلام بالخلة «واتخذ الله ابراهيم خليلا» .

ونبينا محمد عليه السلام والصلاة عليه . «يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما» .

* * *

ويتحدث الطهطاوي عن رضاعة الرسول عليه السلام فيقول : وسبب دفع أمه إياه لمن ترضعه أن هذه عادة قريش وأشراف العرب في أولادهم . ولو كانت الأم حية ولها لبن لأن نساءهم كن يرين إرضاع أولادهن عاراً عليهن . وأيضاً إذا نشأ الرضيع غريباً كان أنجب له ، مع ما يضاف إلى ذلك من تفرغ النساء للأزواج ، وإن كان هذا منتفياً هنا لأن أباه عليه السلام توفي وهو حمل ، على الصحيح ، والأولى في التعليل أن ينشأ غريباً ، على أن هذه العادة عند أشراف الدنيا قديماً وحديثاً . لاسيما بالأقطار الحجازية بالنسبة للمواخر ، فإنهم يبعثون بأبنائهم إلى البوادي للتربية بها ، مع ما ينضم إلى ذلك من خاصية فصاحة العربية العريقة بالبادية القليلة المخالطة بما يفسد اللغات . فهذه هي حالته صلى الله عليه وسلم حيث منَّ الله على «حليمة السعدية» فأرضعته مع ابنها الذي شرب النبي عليه السلام من لبنه وهو عبد الله بن الحرث . وكانت للرسول عليه السلام في الرضاعة أختان : أنيسة والشيماء . .

أما الاحتفال بمولد النبي، فليس سنة. ولا أوصى به أحد من الصحابة ولا عرفنا أحداً قد احتفل بذلك في الثلاثة القرون الأولى ـ وهي القرون الفاضلة. ولكن لا ضرر ولا ضرار من هذه الحفاوة. فهي مناسبة للتحدث عن عظمة الرسول وسيرته العطرة وفضل الله علينا أن بعث إلينا رسولاً من أنفسنا عزيزاً علينا بالمؤمنين رؤوف رحيم..

وأشهر القصائد في مدح الرسول قصيدة البوصيري الهمزية المضمومة التي تقول:

كيف ترقى رقيك الأنبياء   يا سماء ما جاوزتها سماء

والتي عارضها الإمام الزمزمي بهمزته المفتوحة، كما عارض همزية القيراطي المكسورة التي تقول

ذكر الملتقى على الصفراء   فبكاه بدمعة حمراء

يقول الزمزمي:

اثفور منها الصباح أضاء   أم بروق على النقا تتراء
يوم ميلاده وليلة مسرا   ازدهى الليل والنهار ازدهاء
وسما القدر منها بفخار   طبق الأرض سودداً والسماء
ملئت مكة سروراً ولم لا   يملأ البشر قطرها سراء

ثم أشار الزمزمي إلى هذه القصائد كلها بقوله:

فاز بالرفع مغلق لك وشى   «كيف ترقى» وأفحم الشعراء

وبخفض الجناب جوزي منشي «ذكر الملتقى» جزاء وفاء
جئت من بعد ذا وذاك أخيرا فلهذا نظمي على الفتح جاء

* * *

ومن بعدهم جاء أمير الشعراء شوقي فقال همزيته الشهيرة :

ولد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسم وسناء

- ٢ -

أما زواجه عليه الصلاة والسلام فيقول الطهطاوي : ولما كانت خديجة رضي الله عنها رئيسة شريفة ، وهي يومئذ من أزكى قريش نسباً وأعظمهم شرفاً ، وأكثر مالاً ، كان كل قومها حريصاً على الزواج بها لو يقدر عليه ، إلا أنها اجتمعت به صلى الله عليه وسلم وقالت له : يا ابن العم ، إني قد رغبت فيك ، لقرابتي منك ، وشرفك في قومك ، وامانتك فيهم ، وحسن خلقك ، وصدق حديثك ، فاخطبني من عمي عمرو بن أسد. وكان شيخاً كبيراً . فذكر عليه السلام ذلك لأعمامه . فخرج معه حمزة بن عبد المطلب . حتى دخل على عمرو بن أسد. فخطبها إليه . فوافق . فأمرت السيدة خديجة بشاة فذبحت. واتخذت طعاماً . ودعت عمها وبعثت إلى رسول الله . فأتى ومعه حمزة بن عبد المطلب وأبو طالب فأكلوا .

فخطب أبو طالب قائلاً :

الحمد لله الذي جعلنا من ذرية ابراهيم وزرع اسماعيل

وجعلنا حضنة بيته وشوكة حرمه وجعل لنا بيتاً محفوظاً ومحرماً آمناً. وجعلنا الحكام على الناس. ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلا رجح، وإن كان في المال قل، فالمال ظل زائل وأمر حائل، ومحمد من قد عرفتم قرابته، وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها من الصداق ما آجله وعاجله كذا من مالي، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل جسيم.

وتكلم ورقة بن نوفل فقال: الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت، وفضلنا على ما عددت، فنحن سادة العرب وقادتها، وأنتم أهل ذلك كله، لا تنكر العشيرة فضلكم، ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم، وقد رغبنا في الاتصال بحبكم وشرفكم، فاشهدوا علي معاشر قريش بأني قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله على أربعمائة دينار.

ثم تكلم أبو طالب فقال: قد أحببت أن يشركك عمها.

فقال عمها: اشهدوا علي يا معشر قريش قد زوجت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد..

وقد ولدت السيدة خديجة: القاسم ابن رسول الله. وكانوا ينادونه: يا أبا القاسم وولدت له زينب كبرى بناته. تزوجها العاصي بن الربيع ابن خالتها. وكان ذلك قبل الإسلام. فلما أكرم الله رسوله بالرسالة، أسلمت خديجة وصدقته زينب. أما

زوجها فظل على دين قريش .

وذهب إليه أعيان قريش يقولون : أردد على محمد بنته ونحن نزوجك أية امرأة أحببت من قريش فقال : لا والله . لا أفارق صاحبتي فإنها خير صاحبة .

وكانت زينب قد هاجرت قبله وتركته على كفره ، وقد أسلم أبو العاصي . فرد رسول الله زينب عليه بزواج جديد بعد سنتين . وقد أنجب من زينب علي وأمامه . . أما علي فمات وهو طفل . وأما أمامة فتزوجها علي بن أبي طالب بعد وفاة فاطمة بنت الرسول فأنجبت له محمد بن الحنفية وقتل علي رضي الله عنه وهي عنده . .

وولدت خديجة لرسول الله : رقية وهي أكبر بناته بعد زينب . تزوجها عتيبة ابن أبي لهب . فلما نزلت الآية الكريمة : «تبت يدا أبي لهب وتب» فطلبت إليه أمه التي وصفها القرآن الكريم بأنها «حمالة الحطب» وأبوه أبو لهب أن يطلقها . ففعل .

فزوجها الرسول عليه السلام من عثمان بن عفان فولدت له بأرض الحبشة عبد الله . نقر عينه ديك فتورم وجهه فمرض ثم مات وهو ابن ست سنوات . فوضعه رسول الله في حجرة ودمعت عينه عليه وقال : إنما يرحم الله من عباده الرحماء .

وتوفيت رقية في أيام بدر . ولم يحضرها رسول الله فقد كان

يقود جيش المسلمين في بدر. ولما عزي بها قال: الحمد لله، دفن البنات من المكرمات..

وولدت خديجة رضي الله عنها لرسول الله: أم كلثوم وتزوجها عتبه بن أبي لهب. فلما نزلت أية «تبت يدا أبي لهب.» أمره أبوه بفراقها. ولمت توفيت رقية زوجة عثمان بن عفان، زوج رسول الله ابنته أم كلثوم من عثمان بن عفان، وماتت ولم تنجب لعثمان. فبكى عثمان. فقال له الرسول: ما يبكيك؟ قال انقطاع صهري منك يا رسول الله. فقال له: كلا إنه لا يقطع الصهر الموت، وإنما يقطعه الطلاق. ولو كانت عندنا ثالثة لزوجناك!

وولدت خديجة لرسول الله: فاطمة صغرى بناته. وولدت قبل النبوة بخمس سنوات وماتت بعد الرسول بستة أشهر. ولقبها: البتول والبتل معناه: القطع. فقد انقطعت عن نساء الأمة فضلاً وديناً وحسباً ونسباً. وتلقب أيضاً بالزهراء. وسماها رسول الله فاطمة بإلهام من الله. لأن الله فطمها وذريتها من النار. وكانت أحب أولاده. إذا دخلت عليه قام لها إجلالاً. ولما بلغت الخامسة عشرة، تزوجها علي بن أبي طالب فولدت له الحسن والحسين ومحسن الذي مات صغيراً وزينب وأم كلثوم ورقية.

فأما زينب فقد تزوجها ابن عمها عبد الله بن جعفر بن أبي

طالب. فولدت له: علياً وعوناً وعباساً ومحمداً وأم كلثوم. وأم كلثوم تزوجها عمر بن الخطاب فولدت له زيداً ورقية. ولم يكن لهما أولاد. وقتل عمر. فتزوجت من بعده ابن عمها جعفر ومات ولم تنجب. وتزوجها ابن عمها عون. ومات. وتزوجها أخوه عبد الله. ومات. ولم تلد لأحد من الثلاثة. وتوفيت أم كلثوم وابنها زيد في يوم واحد. أما رقية فماتت قبل البلوغ..

وولدت السيدة خديجة لرسول الله: عبد الله. وهو الملقب بالطيب والطاهر. ومات بمكة. وقال الناس: لقد انقطع ولد محمد فهو أبتر. فنزلت الآية الكريمة: «إن شانئك هو الأبتر».

«وانكسفت الشمس يوم موته.

فقال الناس: انكسفت الشمس يوم موته.

فقال الرسول عليه السلام: إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته. فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى الصلاة..

هؤلاء أولاد الرسول عليه السلام من خديجة أم المؤمنين.

أما ابنه إبراهيم فمن ماريه بنت شمعون وهي مصرية. وتوفي ابراهيم رضيعاً. وحزن الرسول عليه السلام وحلق رأسه وتصدق بزنة شعره فضة للمساكين وأمر بشعره فدفن في الأرض.

وقد انقرض نسل الرسول عليه السلام إلا من فاطمة رضي الله عنها . . طاب أصلها أماً وأباً وانتشر نسله الشريف منها .

وأهل البيت هم : علي وفاطمة والحسن والحسين وذريتهما وهم أهل العبادة .

يقول تعالى : «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا» .

وهم المقصودون بذلك . .

وقال عنهم الرسول : اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا .

وقال أيضاً : أنا حرب لمن حاربهم وسلم لمن سالمهم وعدو لمن عاداهم .

وتوفيت السيدة خديجة رضي الله عنها ، قبل الهجرة بثلاث سنوات عن خمس وستين سنة . وكان عمر الرسول عليه السلام تسعة وأربعين عاماً وثمانية أشهر وأربعة عشر يوماً ، وقبل موت أبي طالب بثلاثة أيام . فعظمت المصيبة على رسول الله . وسمي ذلك العام بعام الحزن . وكانت السيدة خديجة قد تزوجت مرتين قبل زواجها من الرسول عليه السلام .

تقول السيدة عائشة زوجة الرسول عليه السلام إنها سمعته يقول : كانت خديجة خير نساء العالمين . وإن لخديجة بيتاً في

الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب. وإني لأعرف فضلها، رحمها الله.

وكان الرسول عليه السلام يذكر خديجة كثيراً ويتحدث عن خلقها العظيم. وكانت عائشة رضي الله عنها تغار من ذلك. فقالت له مرة: قد رزقك الله خيراً منها.

فقال: لا والله ما رزقني خيراً منها. آمنت بي حين كذبني الناس، وأعطتني مالها حين حرمني الناس، ورزقت منها الولد وحرمته غيرها.

وكانت السيدة عائشة بنت أبي بكر تقول عن نفسها: خصصت على نساء النبي بعشر خصال:

تزوجني بكرا، ولم يتزوج بكرا غيري.

وأسلم أبي وجدي وأمي وأم أبي وأخوتي وأخواتي..

وأنا حبيبته من النساء وأبي وزيره وحبيبه من الرجال.

ومات في صدري وقبض في يومي. ودفن في حجرتي وأمرني بالمقام عنده كيلا أفارقه فأنسى به ميتاً كأنسى به حياً. وفي كل يوم أسلم عليه عند الصباح وأعلم أنه يسمعني فأسمع في قلبي رد السلام. وكم من ليلة رأيته في المنام وهو يقول: يا عائشة اقرئي أصحابي السلام فأصبح وأبلغهم سلامه.

ومات هو راض عني..

وورثني علمه فأنا عالمة الأمة .

ولي الهجرة والسبق إلى الإسلام، ولا أشركت بالله طرفة عين . ولا رأيت بعيني صنماً منذ خلقت . ولا كتب الملك علي ذنباً إذ ربيت في حجر الصديق ثم انتقلت إلى حجر الصادق، وصليت إلى القبلتين . .

وما نزل الوحي في لحاف غيري، ورأيت جبريل . وكان رفيقي ليلة هجرتي وأعطيت شطر العلم . وكان لكل امرأة من نسائه يوم وليلة ولي يومان وليلتان . .

وصور الله صورتي في الجنة في سندسة خضراء، وأهداني إلى حبيبه محمد وأمره بزواجي . فقاضى رب العالمين وأبي أبو بكر خاتم الصديقين وبعلي محمد الصادق الأمين خاتم المرسلين، وأنا أفضل أمهات المؤمنين .

وقال الرسول عليه السلام مشيراً إلى زوجته عائشة رضي الله عنها: خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء ـ فقد كان لونها أبيض أحمر . .

وقال أيضاً: عائشة عالمة هذه الأمة . .

وقد سئل عروة بن الزبير عن عائشة فقال: والله ما رأيت امرأة أعلم بالفرائض والسنن والتنزيل والتأويل من عائشة رضي الله عنها، حتى أشعار العرب وأيامهم وأنسابهم والطب والأدوية .

فقلت لها: من أين لك علم الطب والأبدان؟

فقالت من رسول الله. كان إذا مرض يتداوى، وإذا مرضت أنا يصف لي فأبرأ. وإذا سئل يصف المرض فتعلمت منه.

فقلت لها: ومن أين لك بأنساب العرب وأيامها وأشعارها؟

قالت: والله يا ابن أختي ما سمعت أذني شيئاً فيه نفع للناس إلا حفظته ولا أنساه.

قال عروة: والله ما ندمت على شيء قط أشد مني ندماً على ما فاتني من علم عائشة رضي الله عنها، وما الذي يمنعها وقد رباها أعلم العلماء وأحكم الحكماء وأفصح العظماء رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأبوها علامة قريش المفتي في حضرة النبي.

والولد: سر أبيه..

قال علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه: دخلت على عائشة رضي الله عنها فرأيتها جالسة وعليها قميص مرقع. فحمدت الله تعالى بما هو أهله، وثنت بالصلاة على نبيه وذكر بعض ما وهبه الله تعالى من فضله، وأثنت على أبي بكر وعمر وعثمان بما كان فيهم من العدل والاحسان. ثم حضت بالاقتداء بهم وإتباع أمرهم. فوالله ما سمعت أذني من سائر النساء أفصح

منها وأنظم من كلامها، ولا أرشد من رأيها.

فقلت لها: أنت والله أم المؤمنين حقاً، والعالمة بالله ورسوله، الناصحة المشفقة الواعظة المبلغة. دللت الناس على الحق وأمرتهم باتباعه، ونهيتهم خطر أنفسهم، وأنت أهل أن يسمع قولك ويطاع أمرك ويقبل نصحك. ثم قمت وخرجت.. فما سمعت أذني خطاباً من أكثر الصحابة أنصح من عائشة ولا أبلغ من موعظتها.. فلو كانت إمرة لامرأة بعد النبوة لاستحقت عائشة الخلافة!

قال الأحنف بن قيس: سمعت كلام أبي بكر حتى مات، وكلام عمر بن الخطاب حتى مات وكلام عثمان بن عفان حتى مات، وكلام علي بن أبي طالب حتى مات، ولا والله ما سمعت فيهم أبلغ من عائشة رضي الله عنها!

- ١ -

ولا نهاية لأوصاف رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلم يترك المسلمون شيئاً من ملامح رسول الله، ولا جلسته ولا نومه ولا مشيته ولا طعامه وشرابه ولباسه. كل ذلك سجلوه. فقد بهرتهم عظمة الرسول وحكمته. وكان مثلاً أعلى وقدوة فريدة في التاريخ، طفلاً وشاباً ورجلاً ونبياً وزوجاً وأباً وجداً وداعياً وقائداً..

وقد اختار الطهطاوي بالعقل والمنطق أفضل ما قرأ من

روايات عن صفات الرسول عليه السلام. وفي مقدمتها ما سمعه الناس من عمر بن الخطاب وهو يبكي حزناً على رسول الله. سمعوه يقول:

«بأبي أنت وأمي يا رسول الله» لقد كان لك جذع تخطب عليه، فلما كثر الناس اتخذت منبراً تسمعهم عليه، فحن الجذع لفراقك حتى جعلت يدك عليه فسكت، فأمتك أولى بالحنين حين فارقتهم.. بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عند الله أن أخبرك بالعفو عنك قبل أن يخبرك بذنبك فقال: «عفا الله عنك لم أذنت لهم».. بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن جعلك آخر الأنبياء وذكرك في أولهم فقال: «وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم»

بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أهل النار يودون لو كانوا أطاعوك وهم بين أطباقها يعذبون: «يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول».. بأبي أنت وأمي يا رسول الله إن كان موسى بن عمران أعطاه الله حجراً تتفجر منه الأنهار، فماذا بأعجب بين أصابعك حين نبع منها الماء صلى الله عليك.. بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد كان سليمان بن داوود أعطاه الله الريح غدوها شهر ورواحها شهر، فما ذلك بأعجب من البراق حين سرت عليه إلى السماء

السابعة ثم صليت الصبح بالأبطح، صلى الله عليك.. بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لئن كان عيسى بن مريم أعطاه الله إحياء الموتى فما ذلك بأعجب من الشاة المسمومة حتى كلمتك وهي مشوية فقالت: لا تأكلني فأنا مسمومة.. بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد دعا نوح على قومه فقال: «رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً» ولو دعوت علينا مثلها لهلكنا عن آخرنا، فلقد وطيء ظهرك وأدمي وجهك وكسرت رباعيتك فأبيت أن تقول إلا خيراً.

فقلت: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.. بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد اتبعك في قلة سنك وقصر عمرك ما لم يتبع نوحا في كبر سنه وطول عمره فلقد آمن بك الكثير وما آمن معه إلا القليل.. بأبي أنت وأمي يا رسول الله لو لم تجالس إلا كفئاً، ما جالستنا، ولو لم تؤاكل إلا كفئاً ما آكلتنا «ولبست الصوف وركبت الحمار ووضعت طعامك بالأرض.. تواضعاً منك صلى الله عليك وسلم..»

ووصفه علي بن أبي طالب: ليس بالطويل ولا بالقصير، ضخم الرأس كث اللحية، ششن «يميل إلى الغلظة والقصر» الكفين والقدمين، ضخم الكراديس «رؤوس العظام» مشربا وجهه بحمرة أدعج «شديد السواد» العينين سبط «سائح» الشعر، سهل الخدين، كأن عنقه ابريق فضة..

وكان واسع الجبين وفي وجهه تدوير عظيم الفم ، حسن الثغر، رائق الثنايا ، في أسنانه تفليج وتفريق ، حلو المنطق ، يتكلم بجوامع الكلم لا يضحك إلا مبتسماً . إذا جلس مع أصحابه رضي الله عنهم فكأنما على رؤوسهم الطير حسن تواضعهم بين يديه . أزهر اللون . إذا مشى فكأنما تطوي له الأرض ، وفي مشيته لا يلتفت وراءه ، وإذا التفت التفت جميعاً ، حسن الوجه ، حسن الصوت وخاصة بتلاوة القرآن العظيم .

وكان صلى الله عليه وسلم يأكل ما يجد ويحب اللحم والعجوة والعسل وأحب الفاكهة إليه : العنب والبطيخ .

وكان يشرب اللبن الحليب والماء في ثلاثة أنفاس . ويمص ولا يعب . ولا يتنفس في الإناء . وكان يلبس الكتان أو الصوف أو القطن : قميصاً أو رداءً أو إزاراً . ويحب البيض والخضر . ولبس البردة والحبرة والجبة والحلة الحمراء والبيضاء وأحبها إليه القميص . ووضع على رأسه العمامة السوداء والبيضاء . . وكان يجعل لها عذبة بين كتفيه . . وكانت ثيابه فوق الكعبين ، وربما جعلها لنصف الساق ، والكم فوق الرسغ أو مع الأصابع . ويقول عليه السلام : الحمد لله الذي كساني ما أستر به عورتي وأتجمل به .

وإذا استجد ثوباً سماه وقال : اللهم لك الحمد كما

كسوتني، أسألك خيره وخير ما صنع له وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له.

ويضع الخاتم في خنصر يده اليمنى. . وكان الخاتم من فضة ونقشه: محمد رسول الله. . «محمد» تحت ثم «رسول» فوقها. . ثم «الله» فوق ذلك.

ويلبس النعال السبتية ـ أي المدبوغة حتى اختفى شعرها.

أما فراشه من أدم حشوه من ليف. وطوله ذراعان وعرضه ذراع. .

ويقال أن عمر بن الخطاب دخل على الرسول عليه السلام وهو على سريره وقد أثر الشريط في جنبه فبكى. فقال الرسول: ما يبكيك يا عمر؟ فقال: ذكرت كسرى وقيصر وما كانا لهما من الدنيا، وأنت رسول الله رب العالمين وقد أثر بجنبك الشريط. . فقال النبي عليه السلام: أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا، ونحن قوم أخرت لنا طيباتنا في الآخرة.

وكانت للرسول عباءة تفرش له حيثما تنقل. . تثني طبقتين، وربما نام على حصير، وعلى الأرض. وما عاب مضطجعاً قط.

وكان يحب الطيب ويكره الريح الكريه. ويتبخر بكافور

وعود. ويكتحل، وكان يتوكأ على العصا. ويقول: التوكؤ على العصا من أخلاق الأنبياء.

وقد رعى الغنم. وقال: ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم.

وإذا نام ينفخ ولا يغط..

ولم يملأ بطنه في يوم من طعامين. فكان إذا شبع من التمر، لم يشبع من الشعير. وإذا شبع من الشعير لم يشبع من التمر. وربما شد على بطنه حجراً من الجوع.

قال صلى الله عليه وسلم: عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً، فقلت: يا رب أشبع يوماً وأجوع يوماً.. فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك.

قال صلى الله عليه وسلم: اللهم من أبغضني وعصاني فأكثر له المال والولد، اللهم من أحبني وأطاعني فارزقه الكفاف، اللهم أرزق آل محمد الكفاف، اللهم رزق يوم بيوم،

ويقال أن يهودياً جاء إلى الرسول فقال له: ادع لي «فقال عليه السلام: اللهم أصح جسمه وأكثر ماله، وأطل حياته»!

وقال عليه السلام: إن الله إذا أحب عبداً رزقه كفافاً..

عن ابن عثمان رضي الله عنه إنه قال: كان رسول الله يبيت

الليالي المتتابعة طاوياً وأهله لا يجدون عشاء، فكان عامة خبزهم الشعير..

وقيل: الفقر لباس الأنبياء، وزينة الأولياء، لأن الفقر يورث الخشوع، والخشوع يورث الكرامة.

وقيل: لكل شيء مفتاح، ومفتاح الجنة حب المساكين والفقراء..

قال البوصيري في مدح الرسول:

فاق النبيين في خلق وفي خلق ولم يدانوه في علم ولا كرم

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تطروني كما أطرى عيسى..

وكان صلى الله عليه وسلم يقوم من الليالي حتى تتفطر قدماه فتقول له عائشة رضي الله عنها: اتتكلف هذا وقد غفر الله لك؟ فيقول:

أفلا أكون عبداً شكوراً؟

* * *

وكان أكثر دعائه عليه السلام: يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك!

اليوم أكملت لكم دينكم
وأتممت عليكم نعمتي
ورضيت لكم الإسلام ديناً
صدق الله العظيم

- ١ -

بدأ الكفار من قريش يعتدون على المسلمين وبذلك نقضوا العهد الذي قطعوه على أنفسهم أيام صلح الحديبية وكان الاتفاق هو وقف إطلاق «النار» لمدة عشر سنوات ولكنهم هم الذين اعتدوا وقتلوا من المسلمين عشرين رجلاً.

وذهب الشاعر عمرو بن سالم إلى الرسول عليه السلام في المدينة فوجده قائماً للصلاة ثم أنشده أبياتاً يقول فيها:

ن قريشاً أخلفوك الموعد ... ونقضوا ميثاقك المؤكدا
زعموا أن لست تدعو أحداً ... وهم أذل وأقل عددا
هم بيتونا بالوتير هجدا ... وقتلونا ركعا وسجدا
فانصر هداك الله نصرا ايدا ... وادع عباد الله يأتوا مددا

فقال صلى الله عليه وسلم: نصرت يا عمرو بن سالم ودمعت عينا الرسول.

وجاء رجل أسمه «بديل» من قبائل خزاعة وروى لرسول الله ما حدث وماذا فعلت قريش ثم عاد إلى مكة فقابله أبو سفيان فسأله إن كان قد جاء من المدينة فأنكر ذلك. وإن كان قد قابل الرسول عليه السلام فنفى ذلك. ولكن أبا سفيان تسلل إلى منزل الإبل، وأمسك بمخلفاتها.. وراح يقلبها بين أصابعه، فوجد أنها من نوى بلح المدينة!

فسارع أبو سفيان إلى المدينة ليجدد العهد مع رسول الله فدخل على ابنته أم حبيبة زوجة رسول الله فحاول أن يجلس على فراش رسول الله فقامت ابنته فطوت الفراش فقال: يا بنية أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني؟ فقالت: بل هو فراش رسول الله.

قال: والله لقد أصابك بعدي شر!

ثم خرج فذهب إلى الرسول عليه السلام فكلمه فلم يرد عليه فذهب إلى أبي بكر ثم إلى عمر ثم إلى علي رضوان الله عليهم. وطلب إليهم أن يكلموا رسول الله وتشفع بهم فلم يفعلوا، ثم قال لعلي كرم الله وجهه: يا أبا الحسن إني أرى الأمور قد اشتدت عليَّ فانصحني فقال علي: والله لا أعلم شيئاً يغني عنك ولكنك سيد قومك فقم فاطلب الأمان بين الناس ثم الحق بأرضك، فقال له: أو ترى ذلك يغني عني شيئاً؟ قال: لا والله ما أظنه ولكن لا أجد لك غير ذلك.

فقام أبو سفيان في المسجد فقال : يا أيها الناس إني طلبت الأمان بينكم .

ثم ذهب إلى مكة وسألوه : ما وراءك؟ فروى لهم ما حدث وقال أنه طلب الأمان فسألوه إن كان الرسول قد وافق على ذلك . فقال : لا . . وقالوا : إن علياً قد لعب بك!

وأمر الرسول عليه الصلاة والسلام بالاستعداد للقتال سراً ثم أخبرهم الرسول بأنه يريد مكة .

وقال عليه السلام : اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتهم في بلادهم .

فكتب أحد المسلمين خطاباً إلى قريش يخبرهم باستعداد الرسول لدخول مكة . وعرف الرسول ذلك . واستدعاه الرسول وسأله : ما حملك على هذا؟ قال : والله إني مؤمن ما كفرت منذ أسلمت ولا غششتك ولكن لي بين أظهر قريش أهل وولد وليس لي عشيرة فصانعتهم .

فقال عمر بن الخطاب : دعني يا رسول الله أضرب عنقه فإنه منافق .

قال صلى عليه وسلم : إنه شهد موقعة بدر . وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال لهم : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم؟ فبكى عمر .

فأنزل الله تعالى قوله: يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة.

وخرج الرسول في عشرة آلاف من المهاجرين والانصار عائداً إلى مكة وظل الرسول مفطراً إلى آخر رمضان. ولقيه أبو سفيان وأسلم وقال: يا محمد إني قد استنصرت الهي واستنصرت أنت إلهك، فو الله ما لقيتك من مرة إلا ظهرت علي، فلو كان إلهي محقاً وإلهك مبطلاً لظهرت عليك!

ثم أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

وقال العباس: يا رسول الله إن أبا سفيان يحب الفخر فأجعل شيئاً يكون في قومه.

فقال الرسول: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن.

فلما ذهب أبو سفيان لينصرف قال رسول الله: أحبسه يا عباس بحضن الوادي حتى تمر به جنود الله تعالى فيراها.

ومرت به القبائل واحدة واحدة. وكان يقول: إنه لا يقوى على مواجهة هذه القبائل.

حتى مضى رسول الله صلى عليه وسلم فسأل أبو سفيان: سبحان الله من هؤلاء يا عباس؟ قال العباس: هذا رسول الله في المهاجرين والانصار. فقال أبو سفيان: ما لا حد بهؤلاء

من قبل، ولا طاقة، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً، قال العباس: ويحك يا أبا سفيان إنها النبوة الحق الآن بقومك فحذرهم.

وذهب أبو سفيان يخطب في قريش: يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به.. فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. قالوا: وما تغني دارك عنا شيئاً؟ فقال: فمن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ومن القى السلاح فهو آمن.

فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد.. ونهى رسول الله صلى عليه وسلم عن القتال والقتل.. إلا أن خالد بن الوليد قتل ثمانية وعشرين من المشركين. فلما علم النبي قال: ألم انهكم عن القتال؟ فقالوا: إن خالداً قوتل فقاتل. وقتل من المسلمين رجلان.

ودخل النبي مكة وهو على ناقته يقرأ سورة الفتح: إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً..

عن عائشة رضي الله عنها: كان لواؤه يوم فتح مكة أبيضا ورايته سوداء..

وبعث الرسول بجنوده إلى الأصنام حول مكة فكسروها.

ونادى المنادى بمكة يقول: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر

فلا يدع في بيته صنماً الا كسره . .

ويقول الشاعر فضاله الليثي :

لولا رأيت محمـداً وجنوده بالفتـح يوم تكسـر الأصنام
لرأيت نور الله أصبـح بيننا والشرك يغشى وجهـه الإظلام

وكان الرسول يرتدي عمامة سوداء فوقف على باب الكعبة يقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده .

ثم كانت خطبته الرائعة التي أبان فيها الكثير من الأحكام :

أن لا يقتل مسلم بكافر ، ولا يتوارث أهل ملتين مختلفتين ، ولا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها . والبينة على المدعي . واليمين على من أنكر . ولا تسافر امرأة مسيرة ثلاث ليال إلا مع ذي محرم . ولا يصام يوم الأضحى ولا يوم الفطر . . يا معشر قريش إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعاظمها بالآباء . الناس من آدم ، وآدم من تراب . . يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . .

والتف جنود الرسول حول المسجد الحرام وفي داخله تزاحم الكفار خوفاً على ارزاقهم منكسي رؤوسهم . فقال رسول الله : يا أهل مكة بئس العشيرة كنتم لنبيكم كذبتموني وصدقني الناس . أخرجتموني وآواني الناس وقاتلتموني

ونصرني الناس، والآن وقد أظهرني الله عليكم كما ترون فما تروني فاعل بكم؟

فقام واحد من رؤساء قريش وقال: يا محمد أنت أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت وإن عذبتنا فبجرم عظيم وإن عفوت فبحلم قديم.

فتبسم رسول الله وقال: بل أقول مثل ما قال أخي يوسف عليه السلام: لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم اذهبوا فأنتم الطلقاء..

ولما اطمأن الناس خرج رسول الله إلى الطواف فطاف بالكعبة سبعاً فوق ناقته واستلم الركن ودخل الكعبة ورأى على جدرانها شخوصاً للملائكة وصورة لإبراهيم فقال الرسول: قاتلهم الله.. ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين. ثم أمر بطمس هذه الصور..

وكان الشاعر كعب بن زهير ابن أبي سلمى يهجو الرسول كثيراً فجاءه وهو جالس في المسجد فدخل وأسلم وانشأ قصيدته الشهيرة التي مطلعها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول

فلما بلغ قوله:

إن الرسول لسيف يستضاء له   مهند من سيوف الله مسلول

أنبئت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول

فقال النبي: اسمعوا ما يقول.

وقد فرح رسول الله والبسه بردته جائزة له.

وفي يوم بعث معاوية إلى الشاعر كعب أن يبيعه بردة رسول الله فرفض. فلما مات اشتراها معاوية من أولاده بعشرين ألف درهم ثم توارثها الخلفاء الأمويون والعباسيون حتى أخذها التتار!

ويرى الطهطاوي أن هناك بردتين: بردة كعب ابن زهير هذه. وقد ضاعت بضياع دولة بني أمية، والبردة الثانية التي أهداها الرسول لأهل إيلة في غزوة تبوك. وكتب لهم أماناً واشتراها العباس السفاح بثلاثمائة دينار. وتوارثها الخلفاء وطرحوها على أكتافهم في المواكب جلوساً وركوباً وكانت على الخليفة المقتدر يوم قتل، وتلوثت بالدماء.

ويقول الإمام أحمد بن حنبل: إن ثوب رسول الله الذي كان يخرج فيه للوفد رداء حضرمي طوله أربعة أذرع وعرضه ذراعان وشبر، فهو عند الخلفاء قد خلق وطووه بثياب تلبس يوم الأضحى والفطر.

يقول الطهطاوي ولعل هذه البردة هي الموجودة في الخزانة الخديوية بمصر..

وفي هذه السنة أذن بلال الظهر في الكعبة .

فقالت بنت أبي جهل : لقد أكرم الله أبي حين لم يشهد نهيق بلال على ظهر الكعبة !

وقال الحارث بن هشام : ليتني مت قبل هذا . .

وقال خالد بن أسيد : لقد أكرم الله أبي فلم ير هذا اليوم!

فخرج عليهم رسول الله ثم ذكر لهم ما دار في أنفسهم . فقال الحارث : أشهد أنك رسول الله . . ما اطلع على هذا أحد فنقول أخبرك .

ويوم الفتح أسلم أبو قحافة والد أبي بكر رضي الله عنه . ولما ذهب أبو قحافة إلى الرسول يسلم عليه قال عليه السلام لأبي بكر : الا تركته حتى أكون أنا آتيه في منزله؟

فقال أبو بكر : بابي أنت وأمي يا رسول الله هو أولى أن يأتي رسول الله .

وكانت أم أبي بكز قد اسلمت قبل ذلك بأربع سنوات . وتوفي أبو قحافة في عهد عمر بن الخطاب عن سبع وتسعين عاماً .

. وسرقت امرأة فأراد صلى الله عليه وسلم قطع يدها ففزع قومها إلى أحد من الصحابة . فذهب إلى رسول فتلون وجهه وقال عليه السلام : أتكلمني في حد من حدود الله ثم وقف

الرسول خطيباً: أما بعد فإن ما أهلك الناس قبلكم انهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها . .

ثم أمر الرسول بتلك المرأة فقطعت يدها . .

- ٢ -

ثم بعث الرسول عليه السلام برجاله وسفرائه إلى القبائل شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً يدعوهم إلى الإسلام . . وقدم عليه وفود كثيرة اسلمت فبعث خالد بن الوليد إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام. فمكث ستة شهور لا يجيبونه. فبعث علي بن أبي طالب وامره أن يستدعي خالداً فلما وصل علي إلى شمال اليمن اجتمعوا به. فقرأ عليهم كتاب رسول الله فأسلمت قبيلة همدان كلها. وكتب للرسول فسجد لله شكراً ثم قال: السلام على همدان ثلاث مرات .

ثم تتابع أهل اليمن على الإسلام . .

وفي هذه السنة قدم وفد بني حنيفة ومن بينهم مسيلمة الكذاب فأسلموا وأقاموا أياماً يتعلمون القرآن .

وارتد مسيلمة وادعى النبوة وأن رسول الله قد أشركه في الأمر واستخلفه من بعده. فأفتن الناس به، وكتب إلى الرسول عليه السلام يقول: من مسليمة رسول الله إلى محمد رسول

الله سلام عليك فإني قد اشتركت في الأمر معك وأن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ولكن قريشا قوم لا يعدلون.

وكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب سلام على من اتبع الهُدى. أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

وفي هذه السنة كانت حجة الوداع وتسمى حجة الإسلام وسميت حجة الوداع لأن النبي خطب الناس فيها وأوصاهم فقال: لعلكم لا تروني بعد عامي هذا. وودعهم. ثم خطب الناس في عرفة. وفي هذه الخطبة بين للناس الكثير من الأحكام الأساسية في الإسلام فحمد الله وأثنى عليه وقال:

أيها الناس اسمعوا قولي فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً، أيها الناس أن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وحرمة شهركم هذا وستلقون رباً فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها وأن كان رباً فهو موضوع، ولكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون. قضى الله أن لا ربا وأن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله. وأن كل دم في الجاهلية موضوع كله. أيها الناس إن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً، ولكنه رضي أن يطاع فيما

سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم . . . أيها الناس أن لكم من نسائكم حقاً ولهن عليكم حقاً عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح . فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيراً ، فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله . . أيها الناس إني قد بلغت قولي وتركت فيكم ما أن استعصمتم به فلن تضلوا أبداً : كتاب الله وسنة نبيه . . أيها الناس إن كل مسلم أخو المسلم . . وإن المسلمين أخوة . . فلا يحل لامرىء من مال أخيه إلا ما أعطاه الله إياه عن طيب نفس فلا تظلموا أنفسكم ألا هل بلغت؟

فقالوا نعم

فقال : اللهم اشهد .

وفي حجة الوداع نزل عليه في يوم الجمعة عصراً في يوم عرفة وهو واقف بعرفات على ناقته قوله تعالى : اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون . اليوم أكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً .

ولم ينزل بعد هذه الآية شيء . . .

ويقال أن واحداً من اليهود ذهب إلى عمر بن الخطاب يقول له: يا أمير المؤمنين آية في كتاب الله نقرأها لو نزلت علينا لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. فسأله عمر: أي آية؟ قال اليهودي: اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً.

ويقال أن ابن عباس قرأ هذه الآية وكان عنده يهودي فقال له: لو نزلت علينا لاتخذنا يومها عيداً: فقال ابن عباس: كان في ذلك اليوم خمسة أعياد: يوم جمعة ويوم عرفة وعيد اليهود وعيد للنصارى وعيد للمجوس. ولم تجمع أعياد لأهل الملل في يوم قبله ولا بعده.

ويقال أنه لما نزلت هذه الآية بكى عمر بن الخطاب. فسأله الرسول: وما يبكيك يا عمر؟ فقال: أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا، فأما أنه كمل فإنه لم يكمل شيء إلا نقص. قال الرسول: صدقت.

فكأن هذه الآية نعت الرسول عليه السلام، فعاش بعدها واحداً وثمانين يوماً.

ولم يحج رسول الله بعد أن فرض الحج إلا حجة واحدة ـ هي حجة الوداع. وقبل الهجرة يقال أنه حج مرتين ويقال ثلاث مرات.. وعاد الرسول عليه السلام إلى المدينة. وبعد شهور بدأ يشكو أوجاعاً وصداعاً. وأخذ صلى الله عليه وسلم يشير إلى أنها النهاية.

وفي هذه السنة مات ابراهيم ابن رسول الله . .

- ٣ -

لقد حدث في غزوة خيبر أن جاءت يهودية فأهدت الرسول شاة مسمومة فأخذ منها قطعة ومضغها : وأكل الناس أيضاً . فقال لهم الرسول : ارفعوا أيديكم إنها مسمومة . ومات واحد كان قد ابتلع الذي مضغه ، أما الرسول فمضغها ولم يبتلعها ، ولكنها أثرت في شفتيه وفي حلقه ، واستدعى الرسول هذه المرأة اليهودية فاعترفت ، ثم قال لها : ما حملك على ما صنعت؟ قالت : إن كنت نبياً لم يضرك الذي صنعت ، وإن كنت ملكاً أرحت الناس منك . فقال الرسول : ما كان الله ليسلطك على ذلك .

ولم يعاقبها ، لأنه كان لا ينتقم لنفسه ، وإلى ذلك يشير البوصيري صاحب الهمزية النبوية قال :

ثم سمّت له اليهودية الشاة ... وكم سام الشقوة الأشقياء
فأذاع الذراع ما فيه من شر ... بنطق إخفاؤه إبداء
وبخلق من النبي كريم ... لم تقاصص بحرصها العظماء

وقد أجمع أهل الحديث أن رسول الله قتل اليهودية التي سمّته . .

ولما اشتد به المرض صلى الله عليه وسلم قال لعائشة : يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلته بخيبر فهذا أوانه ،

وإني وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم ـ والأبهر هو وريد العنق ـ أو أحد الشريانين اللذين يخرجان من القلب.

وكان ابتداء ذلك المرض في بيت زوجته ميمونة بنت الحارث. وكان الرسول يدور على نسائه، حتى اشتد مرضه فجمع نساءه واستأذنهن أن يمرض في بيت إحداهن. فوافقن أن يمرض ببيت عائشة رضي الله عنها. . .

ولما حضر إلى بيت عائشة أمر منادياً في المدينة أن الرسول يريد أن يوصي المسلمين فاجتمع كل الناس من ذكر وأنثى وكبير وصغير. وتركوا أبوابهم ودكاكينهم مفتوحة. وخرج الرسول وهو متوعك حتى جلس على المنبر. فحمد الله وأثنى عليه وقال: أيها الناس من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقدمني، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليستقدمني، ومن أخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه. .

ثم نزل وصلى الظهر، ثم رجع إلى المنبر فعاد إلى مقالته.

فادعى عليه رجل بثلاثة دراهم فأعطاه عوضها. ثم قال: ألا إن فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة.

ثم قال: ألا إن عبداً خيّره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده. .

ففهم أبو بكر معنى هذه العبارة وكان أسرع المسلمين إلى البكاء وقال: فديناك بأنفسنا. .

ولما اشتد وجعه قال: إئتوني بدواة وبيضاء - أي ورقة - أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً.

فقال بعضهم: إن رسول الله قد غلبه الوجع.. وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله..

ثم اختلفوا واختصموا. وقال بعضهم: قرّبوا يكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً ولما كثر اللغو والتنازع قال الرسول: لا ينبغي عند نبي تنازع..

وفي أيام مرضه كان يصلي بالناس: وإنما انقطع ثلاثة أيام. وقال: مروا أبا بكر فليصل بالناس، فقالت عائشة: إن أبا بكر رجل أسيف (خفيض الصوت)... وإنه متى يقم مقامك لا يسمع الناس صوته من شدة البكاء.. فلو أمرت عمر؟ فقال الرسول: مروا أبا بكر أن يصلي بالناس. فقالت عائشة لحفصة زوجة الرسول وبنت عمر بن الخطاب. قولي أن أبا بكر رجل أسيف أنه إذا قام مقامك لا يسمعه الناس من شدة البكاء.. ألا أمرت عمر؟

فقال الرسول: إنكن لأنتن صواحب يوسف!

يقول الطهطاوي: أي مثل صاحبة يوسف عليه السلام زليخاء، أظهرت خلاف ما تبطن أظهرت للنساء التي جمعتهن إنها تريد إكرامهن بالضيافة. وإنما قصدها أن ينظرن لجمال يوسف عليه السلام. ويعذرنها في حبه والنبي عليه السلام فهم

من عائشة إنها تظهر كراهية لذلك، مع محبتها له باطناً، والمنقول عن عائشة رضي الله عنها إنما قصدت بذلك خوفاً من أن يتشاءم الناس أبا بكر فيكرهوه رجلاً حيث قام مقام الرسول. فقد جاء عنها أنها قالت: ما حملني على كثرة مراجعتي للرسول عليه السلام إلا أنه لم يقع في قلبي أن يحب الناس بعده رجلاً قام مقامه أبداً.. ولا كنت أرى أنه يقوم أحد مقامه إلا تشاءم الناس منه.

فصلى بهم أبو بكر ثلاثة أيام، وفي أحد الأيام وجد الرسول أنه قادر على الذهاب إلى المسجد. وراح يتساند على المسلمين حتى وصل إلى أبي بكر الذي كان يصلي واقفاً. واقترب منه الرسول في مكان على يساره. وأومأ إلى أبي بكر أن يمضي في صلاته، وصلى الرسول قاعداً. ولما فرغ من الصلاة. التفت إلى المصلين وقال: معاشر المسلمين، ما من نبي يموت حتى يصلي خلف رجل صالح من أمته.

وقد صلى النبي وراء رجلين من أمته: عبد الرحمن بن عوف وأبي بكر الصديق.

* * *

وتوفي رسول الله بعد مرض شديد دام ثلاثة عشر يوماً، عن ثلاثة وستين عاماً وفي هذه السن مات أبو بكر وعمر بن الخطاب وعائشة.. ولم يوص الرسول بما يورث. فلم يترك

ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ولا شاة ولا بعيراً. توفي ولم يجدوا عنده ما لا يفك به درع كان قد رهنها عند رجل يهودي، على ثلاثين صاعاً من الشعير..

وكانت وفاة رسول الله مفاجأة فاجعة للمسلمين. حتى أن عمر بن الخطاب قال: من قال أن رسول الله قد مات علوت رأسه بسيفي هذا. وإنما ارتفع إلى السماء.

فقرأ أبو بكر الصديق قوله تعالى: وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل، انقلبتم على أعقابكم. ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين.

فبايع الناس أبا بكر.

قالت عائشة إنها سمعت رسول الله يقول: ما قبض نبي إلا دفن حيث يقبض.. فحفروا له قبراً تحت فراشه.

ولما دفن جاءت فاطمة رضي الله عنها فقالت:

كيف طابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله التراب؟

وأخذت من تراب القبر وشمته وأنشدت تقول:

ماذا على من شم تربة أحمد ... أن لا يشم مدى الزمان غواليا
صبت عليّ مصائب لو أنها ... صبت على الأيام صرن لياليا

وقد عاشت فاطمة بعد والدها عليه السلام ستة أشهر.

وعندما دفنها زوجها علي بن أبي طالب قال:

لكل اجتماع من خليلين فرقة ... وكل الذي دون الفراق قليل
وإن افتقادي فاطما بعد أحمد ... دليل على أن لا يدوم خليل

وعن عائشة أن فاطمة سألت أبا بكر بعد وفاة رسول الله ميراثها من تركة رسول الله فقال أبو بكر: أن الرسول قال لا نورث، فما تركناه صدقة. فرفض أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة شيئاً. فغضبت فاطمة فهجرته. فلم تزل مهاجرته حتى توفيت.

ثم ذهب إليها وهي مريضة فقال لها علي: هذا أبو بكر يستأذن عليك قالت: أتحب أن آذن له؟ قال: نعم. فأذنت له فدخل عليها فرضاها حتى رضيت..

قلت: أفعل إن شاء الله!

في بيتنا كتب..

أما البيت نفسه فلست على يقين من شكله وحجمه ولا حتى موقعه من الشارع ولا من مدينة المنصورة.. ولا حتى من الذي يدبدب فوقنا، ومن الذي يدق مسماراً ويخلعه كل يوم في البيت المجاور لنا ولا يحلو له ذلك إلا بعد منتصف الليل.. ولا ما هي العلاقة بين أغاني أم كلثوم وبين «العلقة» الساخنة التي تتلقاها سيدة في البيت المواجه لنا..

ولم أعرف نوعية هذه الكتب إلا في سن متأخرة. فأكثرها كتب في الدين. وبعد ذلك عرفت أنها ليست في الدين وإنما هي في التصوف. ومعظمها شعر. وأكثرها يحفظها والدي. ولذلك لم يعد يقلب فيها إلا نادراً. وكثير من الشعر قد حفظته. فوالدي يقول ويردد وأنا أحفظ. فحفظت «البردة» للبوصيري والهمزية أيضاً. وأنا لا أعرف معنى هذه الأسماء:

أمن تذكر جيران بذي سلم ... مزجت دمعاً جرى من مقلة

أم هبت الريح من تلقاء كاظمة ... وأومض البرق في الظلماء والظلم

إلى آخر «البردة» النبوية والتي حاكاها أمير الشعراء شوقي بقوله:

ريم على القاع بين البان والعلم ... أحل سفك دمي في الأشهر الحرم

والهمزية للبوصيري أيضاً تقول:

كيف ترقى رقيك الأنبياء ... يا سماء ما جاوزتها سماء
حبذا عقد لؤلؤ وفخار ... أنت فيه اليتيمة العصماء

وسمعت في بيتنا آذان الفجر قبل الصلاة.. والقرآن قبل الصلاة وبعدها.. والدعاء ورأيت الدموع في عيني والدي.. ورأيت الناس تسعى إليه وتصلي وراءه وتدعوه أن يدعو لها بالخير ويقبلون يده. وكنت أفعل أيضاً. ولكن ما معنى ذلك؟

وهل كل الناس وكل البيوت عند الفجر يفعلون ذلك مع الشاي بالنعناع؟

وسحبت الكتب التي توارت تحت السرير وتحت المقاعد.. ولم يكن من السهل أن أقرأ ولا من السهل أن أفهم، ولا وجدت أحداً أسأله عن المعنى.. ولا عرفت أن هناك كتباً أخرى.. أو من نوع آخر..

ووجدت غضباً صامتاً من والدتي. ليست سعيدة بهذه الكتب، ثم هي لا تقول شيئاً. هل لأنه ليس لديها ما تقول.. هل لأنها تخاف أن تقول شيئاً آخر غير الذي يقوله والدي..

هل لأن الوقت ما يزال مبكراً، أي لا خوف من الكتب على مستقبلي. . طبعاً لا خوف لأنني لم أكن أعرف القراءة. حتى دخلت الكتاب. وحفظت القرآن الكريم. وعرفت قدراً ضئيلاً من القراءة.

وكان أكثر المترددين على بيتنا من المشايخ. . أي الذين يرتدون العمامة وأكثر كلامهم في القرآن والدين. . وكنت أجلس طويلاً معهم وأسمع، ولا أظن أنني كنت أفهم تماماً ما يقولون. ولكن لا توجد مجالس أخرى. ولا نوعية أخرى من الناس. إنهم المشايخ وإنه الدين، ووسطهم والدي، وعند الباب أجلس لكي أكون أسرع إلى الإتيان بالقهوة والشاي. . والقباقيب إذا حان وقت الوضوء والصلاة. . وأتلقى منهم: الله يفتح عليك، ذهاباً وإياباً. ثم إنني الطفل الوحيد المسموح له بالجلوس، لأنني حفظت القرآن الكريم، وأدهشني أن أعرف أن من بين هؤلاء المشايخ من لم يحفظ القرآن؟!

ولم أكن على يقين من أن الخناقات التي تحدث في الليل ويتردد فيها اسمي كثيراً سببها أن أمي غير موافقة على أن أذهب إلى الأزهر الشريف. لماذا؟ لا أعرف. وكان والدي خفيض الصوت، وكانت والدتي عالية الصوت. ولذلك لم أكن أسمع إلا ما تقوله أمي. . وكانت تذكر اسماء من أقاربها لا تحبها. .

واكتشفت أن هناك عدداً منهم يرتدون العمامة . . أقارب لأبي وأقارب آخرين لأمي . وكانت أمي تقول ما معناه : إنهم يمشون على أقدامهم . وإن أكثرهم ثراء يركب حماراً . . لا حصاناً ولا سيارة! أي إنهم فقراء . . وكانت أحكامها على كل رجال الدين في غاية القسوة! فهل هم فقراء ولذلك ذهبوا إلى الأزهر؟ أو أن الأزهر هو سبب فقرهم؟

ولم يكن أمامي إلّا صورة واحدة هي الشاب الثوري ابراهيم عبد الهادي (باشا) أحد زعماء ثورة ١٩١٩ والذي صار رئيساً للديوان ورئيساً للوزراء . . فقد كان هذا هو الرجل وهو المستقبل . وعلى الشباب أن يتخذوه قدوة . . وأن أكون مثله إن استطعت . . أما هؤلاء «الفقراء» فلم يكن مما يسعد والدتي . . ولكن يبدو أن هذا مما يسعد والدي فالفقر والغنى بيد الله . . ولكن الذي بأيدينا هو أن نؤمن بالله . . والرزق هو ما قدره الله لنا ، أغنياء أو فقراء . .

في إحدى المرات سألوني : إن كان واحد من أخوتي هو الذي القى طوبة كسرت وعاء من اللبن على رأس جارة لنا .

وقلت : نعم . . إنه هو . .

وكان من نصيبي الكثير من الضرب ، من أخوتي ولم أفهم . فمنذ حفظت القرآن الكريم ، اعتدت أن أقول الحق . . هذا ما يجب أن أقوله . وهذا ما يتوقعه الناس . وكان الناس

يتساءلون: معقول يحفظ القرآن ويكذب؟ مستحيل!

وفعلاً لم أكن أكذب. ولا أخاف الصدق..

ولكن هذه المرة عوقبت على الصدق. أما السبب فهو أن أخي لم يكسر وعاء اللبن فقط وإنما هو كان يعاكس هذه الفتاة وعاقبها بأن كسر لها الإناء.. فهناك أسباب كثيرة لا أعرفها، تجعل من الأسلم والأفضل أن أكذب أو أن أسكت..

واتسعت جهنم في عيني وفي أذني وفي خيالي: فالكثير من الأفعال والأقوال والناس سوف يدخلون جهنم. ولذلك كانت العقوبة والمحاذير والمخاوف مسيطرة على كل الذي أقول والذي لا أقول، والذي في نيتي..

وكان من الصعب في هذه السن الصغيرة أن نسأل: ولماذا لا تتسع الجنة أيضاً؟

* * *

فما هو أول كتاب قرأته؟

لا أعرف. ولكني أمسكت كتباً كثيرة. وفتحت صفحاتها. وحاولت أن أفهم. ولكن لم استطع. وحاولت وصبرت. ولم أجد أحداً يساعدني على الفهم، رغم لهفتي وحبي الشديد للقراءة. ولما حاولت أن أقرأ لم أجد أحداً من زملائي الصغار

قد فعل كذلك. ولم يكن هناك حديث مشترك، ولا قضية من الممكن أن تكون بيننا..

ومنذ البداية كانت القراءة متعة شخصية، أو شاغلاً فردياً. فلما اعتدت أن أقرأ لنفسي ووحدي، اعتدت أيضاً أن تكون همومي كذلك. وسمعت في سن مبكرة أني لست كأحد من «هؤلاء» ـ وكانت الإشارة من النافذة إلى الصبية الذين يلعبون في التراب وبين الطوب والحجارة ويصرخون طول اليوم ولا يغسلون أيديهم، فهم لا يخافون على الكتب أو ملابسهم أن تتلوث.

و «هؤلاء» كما تقول والدتي ـ سوف يذهبون إلى الحقول على النورج والساقية ووراء المحراث. فمن الحارة بدايتهم وفي الحقول نهايتهم.. فلاحون أولاد فلاحين. ولست من هؤلاء، ولا ينبغي أن أكون. وإنما يجب أن أمضي في القراءة، من كتاب إلى مائة إلى ألف ومن الكتاب إلى المدرسة إلى الجامعة ـ وهو كلام ليس واضحاً تماماً. ولكن الشيء الواضح المؤكد بين أصابعي هو: الكتاب.. وهو كتاب ديني. ولم أعرف معنى كلمة ديني أو دين.. أو ما هو الفرق بين هذه النوعية من الكتب وكتب أخرى ـ إن كانت هناك كتب أخرى!

أما أول قلم من أمي على وجهي بعد أن حفظت القرآن

الكريم ، فقد كان حدثاً أبكاني طويلاً . لا لأنه شيء غريب أن تضربني أمي ، فقد فعلت ذلك كثيراً جداً ولأسباب تافهة جداً . . أو بلا أسباب . . كان الصفع على وجهي نوعاً من مد الذراعين وتنشيط أصابع اليدين وكنت أضيق بذلك . ولكن لما كبرت وجدت لها عذراً . فقد كانت ظروف الحياة أقسى عليها من الصفع والركل . فالذي كنت أتلقاه ليس إلا نوعاً من التنفيس . . ولكن أن يجيء هذا الضرب بعد أن حفظت القرآن الكريم فهذا حدث جليل . فمنذ حفظت القرآن ، تغيرت المعاملة والنظرة من كل الناس . فقد أضافوا إلى عمري سنوات بعدد سور القرآن الكريم . . كبرت . . في نظرهم . . كبرت عندهم . . أصبحت «الطفل الأمل» أو «الطفل القدوة» . . ولكن ما حدث هو أن أمي لاحظت أنني أجلس ثم أهتز يميناً وشمالاً كما يفعل المشايخ . . بل أنها لاحظت أنني أقلب عيني في السقف كثيراً كما يفعل العميان . فصفعتني بشدة على خدي الأيمن والأيسر وحذرتني إن فعلت ذلك مرة أخرى فسوف تضربني وأشارت الى الشبشب . ولم أفعل !

وفي يوم انفردت بي . وراحت تسألني : هل تحب أن تكون مثل ابن خالتك؟

هل يرضيك هذا . .

وكنت قد نسيت أن ابن خالتي هذا عنده كتاب . وإنني

فررت من هذا الكتاب بسبب سوء المعاملة. ولما شكوت إلى والدي ذهب إليه وتشاجر معه. ولم أعد. فقد طلب ابن خالتي مني ومن أطفال آخرين أن نذهب ليلاً ونسطو على كتاب آخر. ونسرق «المصاحف». . وذهبنا وتسلقنا أكتاف بعضنا البعض. وأحضرنا له المصاحف!!

ولم تكن أمي في حاجة إلى أدلة مقنعة أكثر من الإشارة إلى ابن أختها الذي جعل عشرات الأطفال لصوصاً. . يحفظون القرآن ويسرقون المصاحف ـ وإلى أنه في الثلاثين أي في نصف عمره، ولم يزد على أن يكون صاحب كتّاب يسرق الآخرين. في ذلك اليوم، انتهى كل خاطر لي أو أمل في أن أكون أزهرياً. وبشكل لا شعوري اتجهت إلى البحث عن كتب أخرى، واتجهت عيناي إلى أناس آخرين. ورأيت في شارعنا لافتات الدكاترة والمحامين والمهندسين. وكأنني أرى ذلك لأول مرة. . ورحت أتلفت إلى أولاد هؤلاء الناس كيف يكونون. . ماذا يأكلون ويشربون وكيف يلعبون. وإن كان من السهل أن نصبح زملاء أو أصدقاء. . وكيف يكون شكل الطبيب والمهندس والتاجر والناظر والقاضي. . وكيف بناتهم وزوجاتهم. . وأهم من ذلك كيف تكون بيوتهم. .

ووجدتني أتسلل لأرى. . وأتصنت لأسمع، وأفتعل لكي أكون أقرب. . ولكي أجدني في هذه البيوت متنقلاً بين الغرف. .

إن عالماً آخر غنياً لامعاً مثيراً قد انكشف أمامي . . ولم أعد أسمع أو أرى أو أنتظر توجيهاً من أحد. كأنني عرفت الطريق فلا يبقى إلا أن أمضي فيه . إلى أين؟ لا يهم أين ، ولكن لا بد من الاستمرار في السير. المهم ألا أتوقف. وأهم من كل ذلك ، أنني ابتعدت تماماً عن الطرق التي تؤدي إلى أن أكون من رجال الدين . .

ولا أعرف بالضبط أين وجدت هذه الأبيات التي حفظتها . . أي التي قرأتها أنا وكررتها لنفسي حتى حفظتها . . وكنت أفتعل المناسبات لكي أرددها . بل إنني كتبتها في أحد موضوعات الإنشاء . مع أن معنى هذه الأبيات لا علاقة لها مطلقاً بما هو مطلوب مني أن أكتبه . فالموضوع هو الفرق بين الصيف والشتاء . .

أما الأبيات فهي :

نهارك يا مغرور سهو وغفلة ... وليلك نوم والردى لك لازم
تسر بما يغني وتفرح بالمنى ... كما سر باللذات في النوم حالم
وتسعى إلى ما سوف تكره غبه ... كذلك في الدنيا تعيش البهائم

ولا أدري لماذا حفظت هذه الأبيات . . فلا أعرف أحداً مغروراً . . ولا حتى معنى الغرور في ذلك الوقت . ولا هي قضية . ولا عندي شكوى . ولا أظن إن كانت هناك مناسبة حقيقية بيني وبين زملائي الصغار تجعلني انسحب جانباً وألقي

بهذه الأبيات موعظة لأحد من الناس. ولكن حفظتها. وكنت سعيداً بها. لأنني أنا الذي قرأها وحفظها، وهي غير أكثر من ألف بيت رددتها وراء والدي وحفظتها، دون أن أفهمها ـ فقط موسيقاها وتراكيبها البلاغية هي التي بهرتني!

ربما كان أول كتاب أطلت النظر فيه.. هو كتاب «أدب الدنيا والدين» وهو كتاب في حسن السلوك والاخلاق والطرائف والنكت والموعظة الحسنة..

وفي هذا الكتاب حفظت من القراءة الواحدة ومن أول لحظة هذه الأبيات أيضاً

سامح أخاك إذا خلط   منه الإصابة بالغلط
وتجاف عن تعنيفه   شكر الصنيعة أم غمط
من ذا الذي ما ساء قط   ومن له الحسنى فقط؟

وقرأت أن الشاعر وقف عند هذا التساؤل الذي معناه أن كل إنسان يخطيء. ولذلك يجب أن يكون الإنسان متسامحاً. فمن الطبيعي أن يخطيء الإنسان. ومن الطبيعي أن يسامح الإنسان أخاه وصديقه.. ويقال أن الشاعر سمع من يهتف في أذنه إجابة عن هذا السؤال:

محمد خيرى الورى   من عليه الوحي هبط!

ولا أستطيع أن أحصي كم من عدد المرات التي رويت فيها هذه الأبيات. ولا كم كانت سعادتي عندما أرى الإعجاب

والبهجة في عيون الصغار والكبار . . إذ كيف أعرف ذلك . . وإذ كيف جاء الجواب عظيماً على تساؤلات الشاعر . .

وذهبت إلى غير حدود في قراءة الشعر الديني والكتب الدينية والصوفية . . وكنت سعيداً باكتشاف الكثير من المعاني والمباهج الفلسفية والشعرية . .

ووجدتني أتردد على المساجد . . أحب أن أعرف . . وأن أتحدث بعد ذلك على أنظف المساجد وأجملها . . وعن أحسن الخطباء . . وماذا قال هذا وماذا قال ذلك . . وكنت أحرص على أن أبدو مكتشفاً وأن أبالغ في ذلك . . فبدلاً من أن أذهب إلى أقرب المساجد، فإنني اتجه إلى أبعدها . . ولا أكتفي بأن أسمع وإنما أذهب إلى الخطيب نفسه وأقول له : إنني أسكن في الحسنية وقد سمعت عنك . . ولكن الذي سمعته اليوم أحسن وأجمل مما سمعت . وكان الخطيب سعيداً بذلك . وكان يدعوني أنا وزملائي إلى أن نسمعه في الأسبوع القادم فسوف يعد لنا خطاباً أبلغ وأروع . وكنا نذهب . وكنا نبحث عن غيره . ونتحدث ونروي القصص والنوادر . .

وكانت بعض المساجد مغامرة . فالخطيب لم يعد شيئاً . ولذلك فما يقوله لا يساوي المشوار . إنه رجل متواضع . مريض . شيخ . . غلبان . والمصلون بالعشرات وهذا لا

يشجع الخطيب على أن يتعب نفسه في إعداد الخطبة الأسبوعية . .

ثم استقر بنا الطواف عند مسجد الشيخ حسين . وكان الخطيب فصيحاً بليغاً يعرف كيف يقول ويدري إلى من يقول . وكان بارعاً في التقاط الآيات والأحاديث والابيات . ويهز الناس ويوقظهم من الترغيب والترهيب ، من الجنة والنار ، من الدنيا والآخرة . والناس تقول : الله . . إن جاء وصف جهنم بليغاً أو وصف الجنة جميلاً . . فهو أديب وهم يتذوقون الأدب . .

وكان هذا الخطيب هو أول من دفعني إلى التذوق الأدبي . . وإلى البحث عن الأسماء التي تجيء في خطبته . . فقد سمعت اسم شوقي أمير الشعراء لأول مرة وحافظ ابراهيم والعقاد وطه حسين . . وأبي العلاء والمتنبي وابن زيدون والحلاج وابن الفارض والجلالين . . وغيرها أسماء كثيرة تلقى منه ومن الناس عظيم الاحترام . .

ما الذي كان يقول عن العقاد ، لا أعرف بالضبط . . ولكنه لم يكن راضياً عنه تماماً . . ولا عن طه حسين . ولم يكن واضحاً ، أو كان واضحاً لكل الناس ، ولكني لم أجده كذلك .

وهو الذي دفعني دفعاً لقراءة سيرة ابن هشام ، التي أخذ عنها طه حسين «على هامش السيرة» ـ ولم أكن أعرف ذلك .

وكذلك فعل العقاد عندما كتب عن «عبقرية محمد» ومحمد حسنين هيكل باشا عندما كتب عن «محمد» . .

وأشكر للشيخ محمود خطيب هذا المسجد أن فتح لنا الطريق أمام هذه الكتب وهؤلاء المؤلفين العظام . .

هل نصحنا ، نحن الطلبة ، أن نقرأ بأنفسنا ولأنفسنا سيرة الرسول عليه السلام وأصحابه الكرام . . أي نقرأ سيرة ابن هشام قبل أن نقرأ للعقاد وطه حسين والحكيم وهيكل؟ هل يرى أن ذلك أسهل؟ هل يرى أنه أفضل لنا أن نعرف بأنفسنا ، وأن نتعب وأن نكابد كما فعل هؤلاء الكبار وأن نستنتج ما يعجبنا . بدلاً من أن نقرأ لهؤلاء الكبار نقرأ الذي استنتجوه والذي أعجبهم واستراحوا إليه في السيرة النبوية هل هو الذي علمنا ذلك أو هل نحن الذين استنتجنا ذلك؟ ورأينا من الأفضل لنا أن نعتمد على عقولنا ، وليس على عقول الآخرين . . أن نحبو . . وأن نتمشى ونتساند على الأشياء ونقع ثم ننهض من جديد ـ وهي المبادىء الأساسية للمشي الصحيح . . أي بدلاً من أن يحملنا هؤلاء الكبار ويوفروا علينا متاعِب المشي والتساند والاعتماد على النفس . .

هل هذا الخطيب الشيخ محمود هو الذي نبهني إلى أن هناك كتاباً للشيخ رفاعة رافع الطهطاوي عن السيرة النبوية بعنوان «نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز» ـ وأنه هو

شجعنا بفضل هذا الكتاب على كثير من الكتب. لأن المؤلف رجل طيب. وفقيه بسيط. وإنه لا يدعي الثقافة والعبقرية. وإنه على مستوى القراء. فقد جمع لهم المعلومات. ونسقها ووضعها أمامهم. وترك لهم أن يرسموا للرسول عليه السلام الصورة التي يحبونها.

ولم اهتد إلى هذا الكتاب إلا بعد ذلك بوقت طويل. فهو يقع في ٨٠٠ صفحة.

وقد ظهر على شكل أبحاث أو مقالات طويلة جمعت في كتاب على ورق رديء. ولكن الطهطاوي لم يدع العلم والإحاطة والشمول ـ وإنما هو شيخ مستنير أراد أن يهدي الناس وتمنى لو أن هذا الكتاب قد ترجم إلى الفرنسية ليقرأه الفرنسيون ويهتدوا إلى الإسلام..

كان هناك أربعة أنواع من الكتب.. أو أربعة أصناف من المؤلفين:

ابن هشام الذي جمع الأحاديث وقصص الأنبياء.. وكذلك الطبري.. وهؤلاء المؤرخون قد جمعوا كل الذي سمعوا ولم يناقشوا كثيراً كل الذين سجلوه. فاختلطت الحقيقة بالخرافة. ولكنهم جميعاً أناس أمناء: سمعوا وكتبوا. وتركوا ذلك التراث الضخم إلى أناس من بعدهم..

فجاء أناس آخرون من قبل رفاعة الطهطاوي، قرأوا

واختاروا. فالذي كتبوه هو حصيلة الاستيعاب والاختيار.. فكل الذي قرأوا قد نقلوه إلى القارىء مع حذف ما ليس معقولاً أو مقبولاً من العقل والمنطق. وهذا النوع من القراء يناسب الصغار. فهو لا يفرض عليهم رأياً ولا نظرية ولا فلسفة. وإنما يترك للقارىء الصغير أن يقرأ هو أيضاً وأن يفهم وأن يختار ما يعجبه..

وهناك الذين قرأوا واختاروا ولهم رأي.. ولكنهم يتحدثون إلى الناس. يقتربون جداً منك ويهمسون في أذنك. وتستريح إلى الصوت وإلى الحديث، ولهم رأي ولكنهم لا يفرضون عليك هذا الرأي أو لا يجاهرون به.. من مثل طه حسين في كتابه «على هامش السيرة». فطه حسين أديب فنان جميل الهمس بليغ الأداء. لا تشعر وأنت تسمع إليه أنه قد اختار وأنه له رأي. ولكن أنت مستمع مستمتع وأنه بارع ساحر..

وهناك المعلمون من مثل محمد حسنين هيكل.. فهو قد قرأ كثيراً جداً. ما كتبه العرب وما كتبه الأجانب. المؤمنون والكافرون. ويعرض عليك كل ذلك. ويعلمك كيف تقرأ وكيف تقبل وكيف ترفض. فالمهم عنده أن تكون تلميذاً مطيعاً في مدرسته، وسوف يضعك على الطريق الصحيح إلى السيرة العطرة وأنت وهو آمن تماماً.. ولأنه معلم ولأنك صغير، فهو

لا يزال يحمل العصا بين أصابعه. ولا يسمح لك بأن تهمس أو تترك مقعدك أو تقاطعه. وإنما أن تستمع وأن تمسك ورقة وقلماً وتكتب ملاحظاتك في صمت.. فهو يعلمك كيف تقرأ وكيف تفكر. وهو يضع على كتفيك عبئاً ثقيلاً جداً هو: ما دمت قد تعلمت، فلا بد أن تنقل علمك إلى الآخرين ـ كما فعل هو تماماً!

وهناك أمثال الأستاذ عباس العقاد، فهو قد قرأ وفكر، وهو قد ناقش وسهر وتعب. ثم جاء إليك ينقل خلاصة كل ذلك. وهو من اللحظة الأولى حريص على أن يضع أمامك تفسير كل هذه الألغاز في السيرة النبوية.. فهو يفسر لك معنى الرسول الإنسان والرسول النبي والرسول العظيم.. وهو يفسر لك لماذا ظهر؟ ولماذا ظهر بهذه الصفات؟ وفي هذا الزمن وفي هذه القبيلة، ولماذا كان من الضروري أن يكون يتيماً ولماذا كان من المحتم أن يموت ابنه الوحيد؟ ولماذا اختار خلفاءه.. ألف لماذا؟ وهذه الأسئلة التي تجدها الناس عويصة. قد اهتدى الأستاذ العقاد إلى إجابات عنها. ويكون السؤال في مائة سطر وتكون الإجابة في كلمة. كيف استطاع ذلك؟ هذه موهبة التحليل المنطقي الواقعي عند الأستاذ العقاد..

وفي وقت مبكر جداً من حياتي حاولت أن أشارك في هذا

«التـأليف» فاسترحـت إلـى أن أقـدم «مختـارات» من السيرة النبوية . . أو من الأحاديث . . أو من آيات القرآن الـكريم . وتنبهت إلى أن كلمة «مختارات» ليست مما يناسب القـرآن الـكريم . . ولـذلك عدلـت عن الاختيار والمختـارات . . واتجهت إلى المختارات من الشعر القديم والحديث . ولكن لم أكمل هذا المشـروع . . ضاق الوقـت . أو كان حماسـي عابراً . أو أن القراءة أهم من ادعاء التأليف في شيء صغير . . إذ كيف أكتب وأنا لم اتفقه كثيراً في علـوم الـكلام وصناعـة الكلام . .

واذكر أنني حاولـت أن أؤلف كتابـاً عن الرسـول عليه السلام . . ووضعت خطة متواضعة . ولكن وجدت إنني غير قادر على ذلك . . وإنني لا أستـطيع أن أرقـى إلـى مستـوى المؤلفين العظماء . وإننـي لكي أؤلف كتابـاً لا بد أن أسـلك مسلكين : أن يكون الكتاب تبسيطـاً لكتـب صعبـة . وبـذلك يكون في متناول أقل الناس ثقافة وأضيقهم وقتـاً وأعجزهـم صبراً . أي كتاب سريع . . يمكن قراءته في ساعة أو ساعتين . ولـم يكـن المعنى واضحاً ولا الهدف أيضاً . . ولا كنت مقتنعاً بقدرتي على ذلك .

أو أكون قد اهتديت إلى معنى جديد أو إطار جديد يجعلني

أخوض في بحر الأحداث والاجتهادات الكثيرة. ولا أظن أنني مؤهل لذلك..

وعندما أصدرت بعد ذلك كتاباً عن الأديان جعلت عنوانه وموضوعه «ديانات أخرى».. ولم أشأ أن أجعل الإسلام والمسيحية واليهودية من بين هذه الديانات.. قد تهيبت أن تكون دراستي سريعة خاطفة. والواجب أن تكون متأنية..

وأذكر أنه في أول لقاء مع الرئيس أنور السادات في بيت السفير محمد توفيق عبد الفتاح قال لي الرئيس: إنني أتابع ما تكتبه عن الأديان الأخرى في «أخبار اليوم».. ولقد قرأت ما كتبته عن الكونفوشيسية والبوذية..

ثم قال ما أدهشني: ولماذا لا تجرب قلمك في الكتابة عن الإسلام؟!

وهو لا يعلم أنني تمنيت ذلك. ولكن انشغلت كثيراً. ومثل هذه الكتابة في حاجة إلى دراسة وتأمل وإلى «احتشاد» ـ أي حشد كل قدراتي والتفرغ لهذا العمل الجليل. وليس ذلك صعباً.

وتذكرت أن الرئيس القذافي عندما زار «أخبار اليوم» من ٢٥ عاماً قال لي: يا أخي.. ولماذا لا تكتب في الفلسفة الإسلامية.. يا أخي أنت مؤهل لذلك.. فهذه فريضة يجب أن تؤديها وليس..

ثم أشار إلى سلسلة من المقالات كنت ماضياً فيها عن «الذي يخيفنا من أنفسنا وعلى أنفسنا» . .

وأدهشني ذلك فقد كان يردد ما أهمس به لنفسي . ثم إنه قد لاحظ ذلك فقال بذكاء غريب : أنت تريد ذلك . . وتستطيع !

وعندما فكر الرئيس السادات في أن يؤلف كتاباً عن الإسلام ويهديه إلى صديقه المستشار هلموت شميث أطلعني على عدد من الدراسات عن اليهودية والمسيحية والإسلام وعن أوجه الخلاف والتشابه فيما بينها . . واستأذنت الرئيس السادات في أن أعدل وأبدل في هذه الأبحاث وأن أصوغ بعضها بعبارتي أو أعيد كتابتها تماماً .

وكتبت المقال الأول في هذا الكتاب بعنوان «ولماذا الإسلام؟» وكان هذا المقال صدى لأعماقي ، وكأنني أرد على نفسي بقلم الرئيس السادات . . وكأنني أتعهد أمام الله أن أكتب . فلا شيء يخيف؟ فأنا أستطيع . وعندي ما أقوله .

ولا بد أن أروي تجربتي الدينية وتجربتي الإيمانية وأن أرفع أصابعي عن ينابيع الإيمان ونور الله في أعماقي . وأن أنقل ما عرفت وتذوقت وما عانيت فاهتديت . فكان كتابي «طلع البدر علينا» . وهي تجربة في الدين والإيمان والفلسفة والتصوف والمعاناة بعد أول «عمرة» أديتها . . وعلى الرغم من أنني أديت العمرة والحج أكثر من مرة بعد ذلك ، فإنني لم

أكتب سطراً واحداً. فكل الذي أحسست به حشدته في هذا الكتاب. ولكن لا بد أن أجرب مرة أخرى وبصورة أوسع وأشمل وأرحب.

وكأنني أريد أن أتحدث في هذا كله فرويت جانباً من ذلك إلى الصديق الناشر أحمد رائف

قلت: وبعد؟

فقال: أنت الذي عليك أن تحدد متى يكون هذا البعد..

وجاء هذا الحديث فجأة كأنه احتجاج على الذي نراه في أحد مقاهي الشانزلزيه في باريس منذ أيام. وكأنني وكأنه لا يرى ما حولنا أو لا يريد. أو كأننا نحب أن نتعرف عن الذي في داخلنا، أو ما هو واجب علينا.. ومن الواجب أن نقول وأن ندعو وأن ننفخ في الصور.

فقلت: إنني مشغول الآن بعدد من القضايا السياسية والفلسفية لا بد أن أفرغ منها تماماً.. وبعدها سوف أعكف على الذي يطن في أذني، ويئن في قلبي، ويتوهج في رأسي، ويتألب في نومي.

وفي الطائرة وهي تهبط فجأة في أحد المطبات الهوائية قال لي جاري: وبعد؟

قلت: الأعمار بيد الله!

قال: لذلك يجب أن نسارع بأن نكتب ما يجعل طريقك إلى الجنة . .

وضحك: كيف تضمن لي أن يتقبل الله ذلك.

فأجاب: سوف يقبل. «إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً» وأنا على يقين من أنك سوف تحسن هذا العمل الذي هو قمة كل عمل. صدقني!

وقال جار انتهز هذه الفرصة وراح يشد في لحيته كأنه يتوعدني بعدد شعراتها سنوات في النار إن لم أفعل قال: أتذكر قوله تعالى «أفلم يسيروا في الأرض فينظروا» وأنت سرت كثيراً وطويلاً ونظرت، فأين ما كتبت؟!

* * *

وتولت الآيات والأحاديث من يميني وشمالي ومن خلفي وأمامي: قال تعالى: «الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، ويتفكرون في خلق السماوات والأرض: ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك»!

«والذين جاهدوا فينا، لنهدينهم سبلنا، وإن الله لمع المحسنين» يقول صلى الله عليه وسلم: نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ. . وقال رسول الله صلى الله

عليه وسلم : ثلاثة يتبعون الميت : أهله وماله وعمله . فيرجع اثنان ويبقى واحد . . يرجع أهله وماله . ويبقى عملِه .

* * *

قلت : أفعل إن شاء الله !

يا أمة ضحكت من «وفائها» الأمم!

الشعب المصري لم يرحم الرئيس السادات، ولكن الله رحمه. ولا أعرف إن كان ما يزال رأي السادات أن مصر هي بلد «الوفاء» هل كانَ هذا رأيه حقاً.. أو أنه أراد أن يكون ضحية لهذا الفهم الخاطيء! ونحن نحتفل الآن بيومين للسادات: يوم ١٥ مايو ويوم العاشر من رمضان.. ففي اليوم الأول انفرد السادات بمخلفات عبد الناصر ونفاياته السياسية والعائلية ومشعلي النار في معسكر الاعتقال ومصاصي دماء عشرات الألوف من الأخوان المسلمين وغير المسلمين والشيوعيين ومن تحالف قوى الشعب العامل..

وبعض الذين كتبوا عن هذا اليوم لم يذكروا اسم السادات كأن الذي حدث من فعل الطبيعة مثل الزلازل والأعاصير والمجاري. والذين ذكروا اسمه اعتذروا عن ذلك كأن السادات مجرم أفلت من العقاب.. مع أن جريمة السادات هي أنه حرر مصر من عصابة مجرمة وأنه انتصر في حرب العاشر

من رمضان وفتح القناة وفتح أبواب الاقتصاد وارسى الدستور الدائم وأحزاب المعارضة وصحفهـا والتأمينـات الاجتمـاعية ومعاش السادات والسلام وعودة سيناء بلا حرب ـ إذن جريمة السادات أن قراراته المصيرية كثيرة ولذلك فبعضها قد أنسانا بعضها الآخر. .

أما فضيحة العاشر من رمضان فهي أن القوات المصرية قد انتصـرت لأول مرة في ٣٧ عامـاً فاستعدنـا أرضنـا. ولـذلك فالإصلاح الناصري لهذه الغلطة البشعة أن تعود القناة وآبـار البترول وسيناء إلى إسرائيل تماماً كالجولان والقدس والضفة الغربية وهذا هو التضامن العربي. وأن نعلن الجهاد المسلح ضد اليهود لأنه لاتفريط فى حبة رمل واحدة من ترابنا المقدس وأنه لا صوت يعلو على صوت المعركة وأن نحارب إلى آخر قطرة في بترول الخليج وأن نبتـز أمـوال الأغنياء العـرب في بيوتهم وأموالهم وأن نلعن أباءهم ـ فقد ثبت لدى الناصريين أن الرئيس عبد الناصر هو الوحيد الذي كان يعرف التخاطب معهم بالتخويف والابتزاز وطول اللسان. أما احترامهم كما فعل السادات فكانت سياسة خاطئة لأن أمـوال العـرب لكل العرب. ولأن بترول الخليج لكل البلاد العربية. . وإننا في مصر نحمي الأمة العربية من المحيط إلى الخليج وإننا نستحق الأجر على ذلك. فإذا نحن طالبناهم بثمن السلاح. فنحن لا نطلب معونة وإنما نحن نطالب بمستحقاتنا. . ولا بد أيضاً من

إعلان الحرب على أمريكا ـ وهو ما فعله الرئيس القذافي الذي رأى فيه الرئيس عبد الناصر شبابه في العنف والإرهاب والابتزاز . . وإذا أمريكا لم يعجبها فلتشرب من البحر . . وإذا لم يكفها البحر الأبيض فلتشرب من الأسود والأحمر أيضاً

شيء عجيب حقاً أن الرجل الذي حذف اسم الجمهورية العربية المتحدة أي مصر وسوريا وأعاد إليها اسمها مصر لم يفهم مصر فهماً صحيحاً والرجل الذي حذف اسم مصر من التاريخ هو الذى فهمها فهماً صحيحاً . . فعبد الناصر ومخلفاته السياسية هم أصح فهماً لطبيعة المصريين.فهم يرون عودة الاحتلال الإسرائيلي . والسوفيتي إن أمكن . لماذا لأنه من طبيعة المصريين إلقاء اللوم على أحد غيرهم . . وبذلك نتنصل من مسؤولية كل كوارث مصر . . فنقول إنهم الإغريق . . إنهم الرومان . . والصليبيون والفرنسيون والإنجليز واليهود والأمريكان وعرب البترول . فإذا خرج هؤلاء فسوف نجعل من مصر جنة . إذا خرج هؤلاء فسوف تعتدل الموازين والمكاييل في أيدينا . . إنهم جنادل تعترض سير النهر العظيم . . إنهم بقع سوداء في شمسنا إنهم يمسكون أيدينا عن العمل ويسدون أنفسنا عن الحياة إنهم فرضوا علينا اليأس والموت . . لولا هؤلاء لحققنا المستحيل . . وأصبح ذلك من أهم معالم الخلق المصري : لوم كل الناس إلا أنفسنا . . اتهام كل الناس وتبرئة أنفسنا . . تجريم السادات وتبرئة عبد الناصر .

وسوف تفعل مصر مع كل حكامها ومع كل من أدى لها خدمة ومع كل من مات من أجلها . . وإلا فاسأل أهالي الشهداء . . وأحياء الجنود ما الذي قدمته لهم مصر. ؟

بأي شيء ميزته عن غيرهم من الذين لا عملوا ولا تعبوا ولا حاربوا؟

لا شيء!

فعلاً كان عبد الناصر أحسن فهماً للمصريين من السادات ولذلك سار عبد الناصر وراء الناس، وتقدمهم أنور السادات . . ومات عبد الناصر بلا حراسة واغتيل السادات بيد قواته في يوم عيدهم الذي هو من تفكيره وتدبيره .

وإذا كانت هناك رغبة قوية في تجريم السادات وتأثيم عصره وتحقير منجزاته . فلأنه الرجل الذي خلص المصريين من الندم ومن العار.ولكنهم يريدون الندم ويستحقون العار لأن هذا هو جوهر مشاعر التواكل والتحلل من المسؤولية والبحث عن ضحية يلتف حولها الناس ويلطمون : لأنهم الذين قتلوه!

والسادات استحق القتل لأنه فاجأ المصريين بقرار تاريخي : لا بكاء ولا عويل بعد اليوم!

* * *

حتى الهجوم الضاري على جمال عبد الناصر واتهامه بأنه

لص كما أن أنور السادات خائن وشاذ جنسياً. هو إدانة لرجل زعيم غير معالم مصر والعالم العربي.. وحقق لمصر الكثير من الانتصارات والفادح من الهزائم.. ولكن هذه صفات العظماء ـ بركاتهم عظيمة ولعناتهم أعظم. والقاعدة هي: كلما كان الضوء قوياً كانت الظلال أقوى!

والهجوم على عبد عبد الناصر هو فرصة أيضاً للبحث عن سبب للنكسة. فالنكسة قد انستنا كل شيء فعله الرجل لبلاده..

وقد حدث عندما وقعت «الثغرة» بعد النصر العظيم، أن هاجمت الأقلام جنود مصر.. هاجموا ذلك الجندي الأسمر الرشيق الذي لفحته الشمس. والذي رفع علم مصر على القناة. لقد نسينا ما الذي فعل لنا. وتذكرنا ما الذي فعله بنصرنا. لليلة زفافنا.. تماماً كما يحدث في ملاعب كرة القدم.. فاللاعب الذي سجل ألف هدف في مبارة واحدة ندمي له أيدينا. ونمزق له حناجرنا. ونحطم له مقاعدنا.. فإذا فاته أن يسجل هدفاً. أو إذا سقط في الملعب وعطل سير المباراة. صرخنا نطالب بإخراجه.. لأنه سوف يفسد متعتنا.. ونسينا أنه هو الذي أمتعنا وأسعدنا ونحن نقول: المصريين أهمه..

إنها وحشية المتفرجين.. وكلنا في كرة القدم وفي الحرب

متفرجون . . ولذلك فلا قلب لنا . . ولا رحمة عندنا . .

ونحن قسونا على جمال عبد الناصر لأنه أوجعنا وفضحنا وهزمنا . . فبكينا منه وبكينا عليه . .

وقسونا على أنور السادات . لأنه نصرنا على أنفسنا . ولأنه جفف دموعنا ودماءنا . . ونحن نريد دموعاً لا تجف وجراحاً لا تلتئم . فهو قد أفسد علينا تدبيرنا . وجعلنا ضد طبائعنا . .

ولا شيء يدل على أننا فراعنة . إلا عادة البكاء وضرورة البكاء . .

ولكن فراعنة مصر بنوا الأهرام وهم يبكون . . وبنينا نحن أيضاً السد العالي ونحن نبكي . .

وإذا كانت حجارة الأهرام دموعاً قد تجمدت ، فإن توربينات السد العالي غدد تدفع سيلاً من الدموع أيضاً . .

* * *

ويقال في النكت المصرية أن رجلاً وزوجته اعتادا على البكاء على ما أصاب الناس . . هذا مات . . وهذا صدمته سيارة . . وهذا شب في بيته حريق .

وفي يوم لم يقع شيء من هذه الحوادث . وانزعج الرجل وزوجته وتناوبا الباب والشباك انتظاراً لكارثة تجعلهم يبكون حتى الصباح . وفجأة دق الباب وأسعدهم أن يجيء من

ينتشلهم من هذا القلق الفظيع . وقال الرجل الذي دق الباب : مع الأسف لم يقع شيء اليوم!

فقتله الرجل . . وجلس يبكي هو وزوجته على هذه الجريمة . . التي راح ضحيتها واحد بريء ! !

* * *

من أجل ذلك يستحق السادات الاغتيال مرة أخرى إذ كيف يخلص المصريين من عادة فرعونية قديمة وهي تزيين أجمل الفتيات ثم القاؤها في النيل والبكاء عليها ـ وكذلك فعلنا بالسادات في يوم عرسه في السادس من أكتوبر سنة ١٩٨١ ـ تخليداً ليوم النكسة العسكرية والسياسية والاجتماعية وإنعاشاً لها ومطالبة بأن يقف التاريخ عندها لتكون كل الأيام خمسة وكل الشهور يونيو وكل السنوات ٦٧ وكل المجرمين أنور السادات!

* * *

فيا أمة ضحكت من «وفائها» الأمم!

* * *

وهذه مقدمة كتاب سوف ينشر . .

الفهرس

رقم الإيداع : ١٩٨٨/٤١٠٥
الترقيم الدولى : ٦ - ٢٣٨ - ١٤٨ - ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسنى - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - فاكس . ٣٩٣٤٨١٤
بيروت : ص ب ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

الغلاف للفنان حلمى التونى



عميد الأدب العربى د . طه حسين هو الذى قال : إن أنيس منصور هو أكبر قارئ فى مصر .

بل إلى جانب ذلك فهو أقدر كاتب على أن يجعل الصعب سهلا ، والسهل بديعا ، إنه كاتب المليون قارئ .. إنه يكتب لأقل الناس تخصصا فمفرداته قليلة وعبارته سريعة ومعانيه متألقة .

إنه الكاتب الذى استطاع أن يجعل قلمه فرشاة ترسم بكل لون ، وبكل درجة لونية .. إن أصابعه مثل دود القز تحول أوراق التوت إلى حرير ..

وهو أيضا صاحب أكبر مكتبة خاصة .. فى مكتبته سبعون ألف كتاب بسبع لغات .. إن قلمه هو « طوق النجاة » فى خضم المعانى الصعبة .. وأن كتبه هى سفينة نوح التى تنجو بالقارئ من طوفان النظريات والفلسفات .

فأنت مع الكاتب الكبير الأستاذ أنيس منصور مع بطل أبطال السباحة ـ مسافات طويلة ـ فى المحيطات والقنوات .. فأنت معه آمن على عقلك وعلى قلبك ، ضامن لمتعتك العقلية ـ وهى أرقى ماعرفت حضارة الإنسان !



© دار الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسنى ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٣٤٨١٤

بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣